كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

رحلاتي حول العالم

الدكتورة نوال السعداوى



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن ((دار الهلال))

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL

العدد ٤٢٢ - جمادي الأولى ١٤٠٦ - فبراير ١٩٨٦

No· 422 — FEBRUARY 1986

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفي بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

رحلاتى حول العالم

بقلم :

الدكتورة نوال السعداوى

دار الهلال

الاهـــداء

الى كل من سافر وعرف الغربة بعيدا عن الوطن

والى كل من عـــاش الغـــربة فى الوطـــن

أول رحلة خارج الوطن

منذ الطفولة كان الوطن فى عينى هو الحب . صدر أمى الدافىء ورائحة اللبن . يد أبى فى الليل البارد تغطينى . صوت جدتى فى ليالى الصيف تحكى قصة الغولة وجنية السحر . رائحة الخبز والتين الشوكى . والزلعة على راس ابنة عمتى فاطمة ممتلئة حتى الحافة بماء النيل . وأمواج البحر فى الاسكندرية . وهدير الطلبة فى الشوارع يهتفون : يسقط الملك .

وفى شبابى أصبح الوطن هو الثورة . والثورة هى الحب . ولان الحب كان محرما فقد أصبحت الثورة محرمة ايضا تقودنى الى السجن لا الى الحرية .

وكان حلم حياتى هو الطيران والفرار من السجن . وفى طفولتى كان هنـــاك حلم يتكرر . أن أبى مات وأصبحت أخرج بدون اذن . وفى شبابى حلم آخر مشابه . ان زوجى مات وأصبحت كاملة الاهلية .

كان أبى أكبر حب فى حياتى . ومع ذلك كنت أحسد الاطفال اليتامى بغير آباء . وأول ثورة فى حياتى كانت ضد أبى . أراد أن يزوجنى رجلا لا أحبه . وكنت بخيال مزاهقة اعيش أحلام اليقظة . وأحب فى الخيال بطلا يمتطى السلاح ويضرب الاعداء ويحرر الوطن .. ثم يضمنى بين ذراعيه ويقبلنى وافقد الوعى .. وانسى

ابى وامى واخوتى وجدتى كل آلامى .

لكنه ضمنى وقبلنى فلم افقد الوعى ، ولم أنس شيئا حتى حكايات جدتى عن الغولة والجان والعفاريت لم انسها واكتشفت أول حقيقة فى حياتى . أن الحب الاول وهم والبطولة خيال ، والوطن لم يتحرر .

فى منتصف الليل نهضت من السرير بحذر . كان صوت الشخير عاليا والفم مفتوح ، وفوق الشفة العليا شارب أسود كثيف . تسللت على اطراف أصابعى وفتحت الباب وخرجت . كنت امشى بخطوات سريعة تشبه الجرى . ولم يكن لى الا هدف واحد . أن تلتف من حولى ذراعى أمى . لكنى توقفت فجأة . تذكرت أن أمى ماتت . وانها لم تعانقنى فى حياتى مرة واحدة . وابى أيضا مات دون أن يعانقنى أبدا . لا أنا ، ولا أى أحد من اخوتى واخواتى .

كنت اغيب عاما دراسيا كاملا فى المدرسة الداخلية ثم أعود فلا يعانقنى أحد أو يقبلنى . لم تكن القبلات فى بيتنا تعنى الحب . كان الحب مجرد احساس عميق مدفون فى الاعماق . لا كلمات ولا عناق ولا قبلات . حب صامت فاقد النطق والحركة الا فى الخيال .

وكانت مأساة حياتى . فالحقيقة دائما أقل من الخيال . وأصبحت حياتى سعيا متصلا لتحقيق الخيال والحلم ، ماذا كان حلم حياتى ؟

كنت ارانى فوق جواد أبيض يطير فى الجو ، وفى يدى سيف أضرب به الاعداء واحرر الوطن . لقد ولدت فى بلد يحكمها الاجانب . وتشهق جدتى حين أحكى لها الحلم :

هذه ليست احلام البنات .

ـ وماذا تحلم البنات ياجدتي ؟
ـ يحلمن بالعريس وفستان الزفاف .

لكني لم احلم ابدا بالعريس او فستان الزفاف . رغم ان جدتي اشترت لي فستان الزفاف قبل مجيء العريس بعشرة أعوام . وفي كل عيد يشتري أبي لي فستانا جديدا ويشتري لاخي مسدسا وطائرة صغيرة لها زمبلك يلفه عدة مرات فاذا بالطائرة تتحرك .

وفي الصندوق الاصفر من الكرتون رايت هديتي . فستان حريري أبيض له كرانيش على الصدر ودانتيلا على الامام وصحت بغضب : أريد طائرة ومسدس مثل اخي .

وقالت امي : ستكونين جميلة في الفستان الجديد .

وهتفت : لا أحب الفساتين .

وصاحت جدتي : هذه البنت كان لابد أن تكون ذكرا .

رغم جدتي كنت أتطلع نحو السماء بعيني طفلة في العاشرة . هل سيأتي يوم أركب فيه طائرة ؟ هل يمكن ان اطير في الجو كعصفور بعيدا عن هذا السجن الذي ولدت فيه ؟

في الحلم كنت اطير بغير طائرة . يرتفع جسمي في الجو ، واحلق فوق أسطح البيوت وقمم الاشجار والبحار ثم فجأة يهوى جسدي الى الارض ويغوص في جوف البحر .

وتقول جدتي : الطيران في الحلم نجاح وسوف تتزوجين من أمير او ابن ملك .

وأصيح في وجهها : انا اكره الملك واكره الزواج .
وتشوح بيدها في غضب : مجنونة مثل أمك .

وكانت أمي تكره الملك فاروق ، لكن جدتي لم تكره الا الانجليز وتغنى مع الراديو :

ملك البلاد يا زين يافاروق يانور العين .

***

لازلت اسمع صوت حذائي الاسود الجديد يدب على أرض المطار كأنه بالامس . مر عشرون عاما منذ وقعت عيناى لاول مرة على طائرة فوق الارض . رايتها اضخم مما تصورت ، وكنت اراها في الجو صغيرة ، بحجم طائرة أخي ذات الزمبلك .

وقفت في الصف ومن امامي وخلفى أعداد من النساء والرجال الاجانب . في أيديهم حقائب جلدية ثمينة ، وعلى سواعدهم معاطف صوفية . رءوسهم مرفوعة وظهورهم عضلاتها مشدودة ، وقامتهم طويلة .

رفعت رأسي وشددت عضلات ظهرى . قامتي طويلة مثل قامة الرجال منهم . ونساؤهم أقل منى قامة . بشرتهم بيضاء كالطباشير وعيونهم كالدوائر الصفراء والافواه كالخطوط بلا شفاه ، تتحرك بسرعة وهم يتكلمون كالاوتار المشدودة أو الكرابيج .

في مرآة دورة المياه رأيتنى أرتدى بالطو مطر اسود اشتريته من « عمر افندى » بعد أن حصلت على تأشيرة الخروج من مكتب الجوازات في ميدان التحرير . وفي يدى حقيبة جديدة سوداء لها يد طويلة اعلقها على كتفى . في جرابها الخارجي تطل اطراف جواز السفر الاخضر ، والتذكرة الطويلة الحمراء ، وبطاقة التطعيم الصفراء المربعة . ومن النافذة الزجاجية العريضة ألمح الطائرات راقدة على أرض المطار كالطيور القانصة الضخمة أو

حيوانات خرافية من الزواحف .

أزيز الاقلاع والهبوط يدوى فى اذنى ويسرى فى جسدى كالقشعريرة . مزيج من الرهبة والفرح والاقدام والخوف والحزن الغامض . يذكرنى بليلة الزفاف الاولى وليلة موت امى .

عيناى فى المرآة تلمعان بضوء شديد السواد . وبشرتى سمراء متوردة بالحماس . لازلت فى ريعان الشباب . وباب الطائرة امامى مفتوح على العالم الواسع . والشرطى القابع على بوابة المطار استوقفنى وسألنى عن أوراقى . ناولته الورقة الصفراء عليها خاتم النسر ، رمز الدولة . لماذا النسر ؟ ذلك الطائر المفترس العنيف والثورة كانت بيضاء بلا عنف كما قالوا . لكنى أدركت بعد عشرين عاما من الرحلات فى العالم أن أختام الدولة وشعارات الثورات تنسخ بالمقلوب . فاذا ما كانت الدولة دموية حفرت على خاتمها حمامة السلام ، واذا كان الزعيم قاتلا حصل على جائزة نوبل .

فحص الشرطى الورقة الصفراء بعينين بوليسيتين . تأكد أن خاتم النسر حقيقى وليس مزيفا . وأن الدولة توافق على انتقال جسمى خارج حدود الوطن .

مادخل الدولة فى حركة جسمى ؟

حرك الشرطى عينيه من الورقة الصفراء الى وجهى . ينقل عينيه ببطء من وجهى الى صورتى الملصقة بالصمغ على قطعة من الكرتون . وجهى لا يشبه الصورة . البريق فى عينى لا يراه فى الصورة ، فهو بريق الكراهية المؤقت يشع من عينى الآن وانا انظر اليه .

لا يعرف أن بينى وبين رجال البوليس عداء ثلاثة آلاف عام . منذ سيطر الاله آمون وانهارت حضارة

ازيس وظهر الى الوجود شيء اسمه العبودية .
حملق فى وجهى بعينين ضيقتين وهز شاربه الكثيف فوق شفته العليا . ذكرني بصوت الشخير ينبعث من تحت الشارب الاسود الضخم . شوارب الرجال أيضا مثل أختام الدول تعلن عكس ماتبطن .
وسمعته يقول : هذه هى موافقة الدولة ولكن أين موافقة الزوج ؟
حملقت فى وجهه بدهشة . ربما تقتضى الدكتاتورية أن تمتلك الدولة جسمي ، لكن الزوج ؟ هل هو أيضا يمتلك حركة جسمي ؟
وماهو الحد الفاصل فوق كيانى بين ملكية الدوله وملكية الزوج ؟
غامت عينى سحابة لكنى تذكرت فجأة أننى غير متزوجة ، وانقشعت الغمة ولمعت عيناى بالبريق وهتفت بصوت رن فى صالة المطار كرنين الفضة : أنا كاملة الاهلية ، ولا أحد يمتلكنى اللهم الا الدولة .
وزمجر الشرطى بصوت غليظ كالشخير : أنا أسألك عن موافقة الزوج !
وقلت : وانا أقول لك أننى حسب القانون يمكننى السفر بدون موافقة الزوج لانى امرأة حرة بغير زوج .
وصاح بغضب : هل معك ما يثبت أنك غير متزوجة ؟
وبحركة سريعة اخرجت من حقيبتى ورقة طويلة تشبه شهادة ميلادى ، أو شهادة النجاح والتخرج النهائى . رفعت الورقة البيضاء فوق رأسى كالراية أو كطوق النجاة . وحركة أخرى سريعة وضعتها فى يده تحت عينيه .

قرب الورقة من عدسته البوليسية وفحصها بدقة . راجع أختامها وتوقيمات المأذون والشهود ثم زمجر لماذا لم تقولى منذ البداية أنك مطلقة « نطقها بفتح اللام » ؟

وقلت بغضب : أنا لست مطلقة « بفتح اللام » ولكنى مطلقة « بكسر اللام » !

رغم مرور عشرين عاما على تلك الرحلة الاولى خارج الوطن ، لا زال صوتى يرن فى رأسى وأنا أضغط على الشدة تحت اللام المكسورة ، والشرطى جالس أمامى من وراء القفص الحديدى يطل على بعينين ضيقتين شبه مختنقتين كعينى حيوان محبوس . ولازلت أذكر حركة يده حين رفعها الى فوق وضرب بالختم الاسود كالمطرقة الحديدية على جواز سفرى وتركنى أمر .

لم أصدق أول الامر أنه تركنى أمر ، وحركت قدمى ببطء الى الامام متصورة أنه سيمنعنى . لكنه لم يمنعنى فخطوت الخطوة الثانية بحذر أقل . ولم يمنعنى . وغمرنى الفرح كالدهشة فقفزت خارج حدود الوطن كأنما أولد من بطن أمى للمرة الثانية . وصفقت بيدى كالطفلة . وحركت قدمى فوق الارض كأنما سأحلق فى الجو . وجهى ناحية السماء وظهرى تجاه الوطـن ، تأهبت للانطلاق والطيران . لكن شرطيا آخر استوقفنى وفحص أوراقى . ثم تركنى أمر مع المسافرين . وعلى سلم الطائرة استدرت خلفى . ظننت أن أحـد رجال الشرطة يتبعنى . وأنه فى اللحظة الاخيرة سيمنعنى . وتم اغلاق الابواب وانسحاب السلم .

وتحركت الطائرة وأنا شاخصة الى أبوابها كأنمـا ستفتح فجأة ليدخل شرطى يتجه نحوى .

لكن الابواب ظلت مغلقة . ومن خـــلال النافـذة الزجاجية المستديرة رأيت شرفة المودعين ، والايادى المرفوعة تلوح فى الهواء . ليس من بينها يد واحـدة تلوح لى . والوجوه كثيرة ، ليس من بينها وجه واحد أعرفه .

ودارت رأسي مع الطائرة وهى تستدير بعيدا عـن مبنى المطار . غامت عينى تحت ضباب مفاجىء . مـن خلال الغمامة لاح لى وجه طفلتى . يدها الصغيرة تلوح لى وعيناها العسليتان فيهما دموع . اقتربت منهـا لاقبلها ، والتفت أصابع يدها الخمسة حول أصابعى بقوة .

الالم عند نهاية الضلوع ، تحت القلب مباشرة . عميق وثقيل كقطعة الرصاص . قطعـــة منى لا تزال هناك . فى تلك الشقة الصغيرة . بشرتها من لون بشرتى واصابع يدها تشبه أصابعى . تحبو على يديها وقدميها وتتطلع بعينيها الواسعتين نحو غرفة نومى فلا تجدنى . شددت جسمى كأنما سأنهض وأعود . أمومة مفاجئة لى شكل حنين جارف يجهض فرحتى بالسفر . أحاول آن انهض . لكننى مربوطة فى مقعدى بحزام سميك . والوطن يلوح لى من بعيد على شكل وجه طفولى مستدير . وعينان عسليتان مليئتان بالدموع . وأصـــابع خمسة دقيقة ما أن تلامس أصبعى حتى تلتف حوله . كالوتد تربطنى بالوطن . كالجذر الممدود فى الارض ، وأصبح كالشجرة الام وأنا لم أعش طفولتى بعد . أمـــومتى وطفولتى يعيشان داخل كيـــانى فى تناقض متوازن . وحنينى لابنتى كحنينى للوطن متناقض . رغبـــة فى الالتصاق لا تساويها الا رغبة فى الفرار .

أول رحلة خارج الوطن منذ عشرين عاما تبدو لي وكأنها بالامس . والرعشة على أطراف أصابعي وأنا أتحسس حزام المقعد . وهدير الطائرة في أذني وهي تهم بالاقلاع ، ثم انفصالي المفاجيء عن الارض ، والارتفاع في الجو ، وخفقات قلبي تتصاعد وتتصاعد . الطائرة تهتز كأنها ستسقط ، والضربات تحت ضلوعي تتوقف ، الى جواري رجل يقرأ في جريدة أجنبية كأنه جالس في بيته . له أنف طويل مقوس وبشرة بيضاء محمـــرة . يرتدي ربطة عنق ضخمة متعددة الالوان ، وأصـــابعه حول الجريدة طويلة بيضاء أظافرها مشـــذبة بعناية فائقة .

الرمال الصفراء تتسع وتتسع من خلال النـــافذة الزجاجية المستديرة والبيوت تبتعد وتصغر حجمها ، نهر النيل كالشريط الرفيع الابيض ، الشاطئان شريطان لونهما أسود . ثم الصحراء كبحر من الرمال الممتدة في الافق .

لاول مرة أرى الوطن من مسافة بعيدة . أصبح الوطن صغيرا . مجرد خط ملتوى كالثعبان الرفيع في مساحة صفراء . كل شيء في حياتي أصبح صغيرا . أفراحي وأحزاني . أمومتي وطفولتي . آمالي وأحلامي . كل شيء أصبح صغيرا . حتى عبد الناصر بصوته المدوي كل يوم ، وصفوف رجال الدولة الراجفين أمـــامه ، أصبحوا جميعا مجرد سطر صغير في ذيل الصفحة في الجريدة الاجنبية تحوطها أصابع الرجل الغريب . كنت أظن أن وطني هو كل العالم ، بمثـــل ما كنت أظن وأنا طفلة أن شارعنا هو كل الوطن . وكلما كنت أكبر كان الشارع يصغر . وحين امتد كياني خـــارج

الوطن انكمش حجم الارض وملأنى احساس جديد بأننى اكبر مما كنت .

***

جناح الطائرة من خلال النافذة الزجاجية ثابت الحجم . ثابت الجسد . لا يتحرك .. معلق فى الفضاء فوق أمواج من السحب البيضاء الثابتة . لا شىء فى الكون يتحرك ، لا السحب ولا الطائرة . ولا حتى « الشاى » فى الفنجان الموضوع على منضدة بيضاء بلاستيك معلقة فى ظهر المقعد امامى .

حملقت فى الثبات ساعة ووراء الساعة ، ثم اكتشفت ان السفر بالقطار كان اكثر متعة . فالحركة كنت أراها من نافذة القطار . أعمدة السوارى والاشجار تجرى الى الوراء بسرعة لا تلاحقها العين ، تملأنى بحركة الحياة وانطلاق نحو الهدف بأقصى سرعة . والدم يجرى فى عروقى بالسرعة نفسها . واحساس طاغ بالسعادة . منذ طفولتى كان للسفر فرحة كالعيد . أرتدى له ملابس جديدة ، وحذاء جديدا . ولا أنام من الفرح . وأصحو قبل آذان الفجر أو صياح الديوك . السفر كان فى سيارة أو قطار ، وداخل حدود الوطن . من القاهرة الى قريتنا كفر طحلة ، أو الى منوف ، أو الاسكندرية أو الجيزة أو حيث تشاء وزارة المعارف أن تنقل أبى .

واتسابق أنا واخوتى للجلوس بجوار النافذة . أخى كان يكبرنى بعام واحد وكنت أسبقه الى النافذة . لكن أخى الاصغر كان يبكى ويتشبث بالنافذة فاترك له المقعد. اخواتى البنات كن أصغر منى ، تجلس أصغرهن على ركبتى أمى .

لم اكن أعرف عن الطائرة الا الازيز من بعيد أسمعه فى

السماء ، وجسم صغير يلمع فى الافق بحجم اليمامة ، له حركة بطيئة فى الكون كحركة السحاب .
لم يكن خيالي قادرا على تصور حجمها الحقيقى او سرعتها ، ولم اتصور انه يمكن للبشر بأحجامهم العادية أن يكونوا داخلها ، يطلون علينا من فوق السحاب كالآلهة ولم يكن لخيالى أن يمتد رأسيا فأتصور انني سأكون فى السماء داخل طائرة أطل على الكون من ارتفاع شاهق .
كان خيالي يمتد بشكل افقى مع حركة السيارة او القطار فوق القضبان وحركة قدمى ، وامتداد النيل باستواء الارض . وحينما ارفع راسى عموديا نحو السماء تنزعج العيون من حولى . خاصة عينى جدتى .
منذ ولدت وهى ترمق بقلق راسى المرفوع فوق عنقى . أكان من المفروض أن أولد بغير رأس ؟ واذا حركت عنقى الى أعلى ازداد قلقها وصاحت : لا ترفعى رأسك هكذا ! الا ترين كيف تسير البنات المؤدبات ؟
وكانت البنت المؤدبة تسير ورأسها مطرق الى الارض وظلت جدتى تقول أننى غير مؤدبة حتى ماتت . لكنها كانت جدتى آمنة والدة أمى . اما جدتى مبروكة والدة أبى فكانت تضع الزلعة فوق راسى وتقول : لاتحنى عنقك هكذا ، انظرى كيف تسير بنات الكفر مرفوعات الرأس . لكنها كانت تظن أن رأس البنت لم يرتفع عموديا فوق العنق بهذا الشكل الا لتحمل فوقه الزلعة .
ومع كل ذلك كنت أحب جدتى مبروكة أكثر من جدتى آمنة ، وافضل السفر الى بيتها الترابى ذى الشرفة الخشبية اشرب من الزير ، واستحم بماء الزلعة من النيل . لكن أمى كانت تفضل السفر الى بيت أبيها فى القاهرة . وأبى كان مثلي يحب فضاء

اجازة الصيف فى بيت امه فى الكفر . ويدور النقاش بينهما اول كل أجازة صيف . لم يكن نقاشا حادا ابدا ، ولا ينتهى بفوز أحدهما على الآخر . نوع من التعادل بين القوتين الكبيرتين فى البيت . وتحزم أمي الحقائب وتسافر الى اهلها مرة ، والى أهل أبي مرة .. هكذا على التوالى .

قبل السفر بأيام أخـــرج كل ملابسى من الدولاب وارصها فى الحقيبة الكبيرة . وتأتى امى وتفرغ الحقيبة فى الدولاب وهى تصيح : لن تأخذى معك كل ملابسك ثم ان موعد السفر لم يأت بعد .

وتقف على الكرسى الخشبى العالي ، وتشـــب على اطراف اصابعها لتضع الحقيبة فوق الدولاب . ومن موقعى فوق الارض وعيناى الى أعلى أرى ساقيهـــا السمينتين البيضاوين بغير شعر يمتدان تحت ثوبهـا الحريرى الى فخذين اشد سمنة واشد بياضـــا ثم يلتصقان فى النهاية فى خط واحد عميق داكن اللون .

ويراودنى خاطر غريب ،هو أننى هبطت الى العالم من هذا الخط الداكن . ثم يتبع ذلك على الفور خاطر آخر اكثر غرابة ، هو أن أبى أيضا له علاقة ما بهذا الخط الداكن . والى هنا تتوقف خواطرى تماما كأنما وصلت نهاية العالم . وأعود أدراجى الى مكانى فوق الارض ثم أصعد على الكرسى الخشبى العالى وأمد ذراعى فوق الدولاب لكن يدى لا تصل ابدا الى الحقيبة.

كل ليلة ومنـــذ أن تبدأ الاجازة الصيفية وأنا أحلم بأن يدى امتدت وطالت وامسكت بالحقيبـــة . وأن ملابسى كلها انتقلت من الدولاب الى الحقيبة . وأن أمى توقظنى فى الفجر لارتدى الملابس الجديدة . وأبى يحكم

اغلاق النوافذ والابواب . والسيارة الاجـــرة تنتظر أمام الباب . صوت الموتور يرن فى أذنى عجيبا ورائحة البنزين تسرى فى أنفى نفاذة منعشة . وعنـــد محطة القطار يبدو كل شيء مدهشا . رصيف المحطـــة العالى والقضبان الممتدة الى مالا نهاية فى الخندق العميـــق ، وأصوات الاجراس وصفارات القطار والدخان الكثيف يندفع من الفوهة السوداء والناس تجرى وفى أيديهم الحقائب وبائع السميط ينادى بصوت حاد مرتفع . وسلم القطار العالي . امسك القبض الحديدى واضـــع قدمى على السلم ويخيل الى أن القطار سيتحرك وقدمى الثانية لا تزال على الارض . لكن القطار لا يتحـــرك واجري الى مقعدى وانظر من النافذة ، وتظل المحطة ثابتة . واظن ان القطار لن يتحرك ابدا . وفجأة احس براسي يهتز بعنف الي الوراء ثم الى الامام ، وتبـــدأ البيوت في الحركة الى الوراء ، ومن بعدها اعمـــدة السواري التي تبدأ فى الجري الي الخلف واحدة وراء الاخرى .

واطل براسى من النافذة وانا اشهق بالفــــرح . الهواء القوي يطير شعري فى الفضاء ، وفمى مفتوح عن آخره ابتلع الهواء والدخان ، ولا احس الا بيد أبى تشدني الى الخلف وصوته يدوى فى اذنى مختلطـــا بصوت عجلات القطار : ادخلى راسك !

***

تراجعت براسي الى الوراء بعيدا عن النافذة . لكنني داخل الطائرة ولست داخل قطار ، والنافذة صغيرة مستديرة مغلقة زجاج مزدوج ، والسماء زرقاء ثابتة ، والسحب بيضاء ثابتة ، لا أشجار ولا اعمـــدة سوارى

تتحرك . ولا استطيع ان أطل برأسي من النافذة . وجسدى عاجز عن ادراك الحركة . كأنني داخل علبة حديدية معلقة فى الكون الى الابد ، وحزام المقعد يلتف حول جسدى وينتهى الى قفل معدنى . ملمسه فوق صدرى كالسماعة الطبية تتدلى من الخرطوم المطاطى حول عنقى ، ورائحة اليود والدم فى معطفى الابيض ، ولهاث المرضى فى اذنى كالطنين . طابور طويل يمتد حتى الزقاق المترب أمام باب المستشفى تعلوه لافتة نحاسية صدئة نقشت عليها حروف سوداء : « مستشفى الامراض الصدرية بالجيزة » ، والى جوارى المنضدة الخشبية كالحة والفانوس الكهربى لرؤية صور الاشعة ، ثم نافذة صغيرة مفتوحة على بركة صغيرة تقذف الهواء محملا بالغاز ورائحة عفونة كالمجارى .

حملقت فى الكون الواسع من خلال الزجاج المزدوج ، ونظرت ناحية الارض . ابحث بعيناى عن موقع مستشفى الدرن من الارض أو موقع الارض من المستشفى .

من بين السحب البيضاء كزبد القطن رأيت سردابا طويلا يهبط الى الارض . الارض سوداء تماما . لكن عينى التقطتا نقطة فوق الارض اكثر سوادا . وقلت لنفسي : لابد انه المستشفى . لكنى أدركت بسرعة انه ليس المستشفى ، والارض أيضا ليست أرضا وانما هو شيء له حركة ماء . ولابد أنه البحر .

من خلفى رجل عجوز يسعل . سعاله من النوع الجاف بسبب الدخان وليس الدرن . اذناى تدربتا

على تشخيص المرض من نوع السعال .

كل يوم من الساعة التاسعة صباحا حتى الثانيـة بعد الظهر أسمع سعال الطابور الطويل . أضع السماعة المعدنية بين الضلوع البارزة وأسمع صفارة الهواء ثم شخشخة الدم والصديد . أسلط على الصدر الاشعة وانا اقول للمريض : أكتم نفسك . وبدلا من أن يكتم نفسه ، يسعل في وجهي ويملأني بالرذاذ . أتراجع الى الوراء بسرعة وأدس في اليد المعروقة زجاجة الدواء قائلة : قرص واحد بعد كل وجبة طعام ثلاث مـــرات في اليوم .

يردد الصوت الخافت مع اللهاث : بعد كل وجبـة طعام ؟

واقول : نعم بعد كل وجبة طعام ، ثلاث أقراص في اليوم الواحد بعد الوجبات الثلاثة !

ويأتي السؤال على شكل شهقات : الوجبات الثلاثة ؟

واردد : نعم وجبات الطعام الثلاثة !

ذلك اليوم كانت آخرالطابور امرأة في يدها طفل وعلى كتفها طفل استدارت وهي تزمجر : وهل كنت أمرض بالسل اذا كانت هناك وجبات ثلاثة ؟

كل يوم وانا أحملق من النافذة على البركة الآسنة ارفع عيني الى المساحة الصغيرة من السماء بين الجدران واخاطب الله : من هو المسئول عن هذه التعاسة فوق الارض ؟ انت أم رئيس الدولة ؟

وتسري في جسدي قشعريرة الخوف ، وقد ألقيت المسئولية على رئيس الدولة وليس على الله ، وكنت لا أزال أومن بالعدالة الالهية .

ذلك اليوم دق جرس التليفون فجأة . وانتفضت

فى مقعدى . تصورت أن مكتب الامن بالوزارة التقط بجهاز ما شكوكى العميقة فى عدالة الدولة .
وجاءنى صوت يقول بلهجة متعالية : صـــدر قرار وزارى بسفرك ضمن وفد الاطباء الى الجزائر .

***

وفى كل رحلة خارج الوطن كنت أظن أننى لن أعود . لكنى فى كل مرة كنت أعود . حنين لابنتى يشدنى الى الوطن . وحنين الى الارض . رائحة الارض والتراب والهواء . الوجوه والملامح المألوفة . اللغة واللهجـــة تشتاق اليها أذنى ، والشوق له ألم حاد فى الاذن ، وفى القلب تحت الضلوع ، وفى حركة الدم فى العروق كاشتياق المدمن لوجع السم .

***

أحملق من خلال الزجاج على أرض الوطن . لا أرى الا السماء والسحاب وفى القاع البعيد الساحل الداكن كالخط الاسود يفصل البحر عن الارض . هل نحلـــق فوق الاسكندرية ؟ أحملق فى القاع البعيد . لاشىء يتغير تحت عينى . لا زال وجه موظف الامن امامى . رأسه أصلع أملس كراس السلحفاة . عيناه عدستان بيضاوان بغير جفون ولا رموش . يرمقنى من قمـــة رأسى الى أطراف قدمى . كيانى ينقلب الى برغوث مثبت بالصمغ تحت عدسة الميكروسكوب . جهاز يشبه جهاز الاشعة ورسمت على وجهى ملامح قديسة تفيض بالحب والخوف يكشف عن أعماقى . أخفيت الكراهية فى طيات أمعائى فلا شىء يهدد الامن الا الكراهية أو الحب بغير خوف .
لاول مرة أقف للفحص أمام موظف الامن لاستخراج ذلك الدفتر الصغير المستطيل المسمى « جواز السفر »

لاول مرة في حياتي أستخرج جواز سفرى . وحين استقر « الباسبور » في حقيبة يدى سرت في الشارع مرفوعة الرأس في زهو . كأننى بهذا الدفتر صعدت من طبقة الى طبقة . لكن سرعان ماتبدد الزهو حين ابتلعنى المبنى الضخم المسمى « مجمع التحرير » ، وسقط جسمى في خندق مزدحم بالاجسام تلهث .. وتنز بالعرق .. وأخذت الهث أنا الاخرى ، وأجرى من مكتب الى مكتب ، وفي يدى أوراق الصقت عليها دمغات صفراء وخضراء ، وتوقيعات بالحبر الاحمر والاسود والازرق . واستقر بي الامر في النهاية داخل مكتب الامن ، وموظف يشبه الموظف الآخر . رأس اصلع وصوت ناعم . رمقنى من رأسي الى قدمي وحملق في صورة وجهي ثم سألنى : لماذا تسافرين الى الجزائر ؟

قلت : لحضور المؤتمر الطبي العربى .

وتساءل كأنما بدهشة : انت طبيبة ؟

وقلت : نعم .

حملق في وجهى وقال : مارأيك في الثورة ؟

وتساءلت : أى ثورة ؟

لكني تداركت السؤال وقلت : نعم .

قال : نعم ؟

وبدأت أفكر .

وزمجر الرجل بغضب : فيم تفكرين ؟

قلت : في الاجابة .

وقال بدهشة : وهل السؤال يحتاج الى تفكير ؟

وبدا لي التفكير لحظتها كالعورة وانتهت المقابلة بسرعة وانقضى شهر وأنا أنتظر حصولى على تأشيرة الخروج . لكن التأشيرة لم ترد .

وجاء يوم الثلاثاء وكان موعد السفر الاربعاء ، اي بعد يوم واحد . وذهبت الى موظف الامن وسألت :
ـ لماذا تأخرت التأشيرة ؟
ورد : انها تتأخر دائما .
وقلت : ألا سبيل الى استعجالها ، فالمفروض انني سأسافر غدا .
قال : لا سبيل الى استعجال أى شىء .

وعدت الى بيتى . جدران الشقة تطبق على صدرى . مددت يدى نحو قرص التليفون . رنين الجرس يدوى فى أذنى . لا أحد فى العالم ، وأنا وحدى تماما . سرت الى النافذة لاطل على الناس فى الشارع . رائحة كطفح المجارى تملأ الجو . الهواء محمل بغبار وصهد . الناس تتحرك فى الطريق كأشباح ميتة فى عالم آخر . عربة بوليس تجرى ومن خلفها سيارة تطلق صـــفارة حادة . احساس جارف بالغربة يسرى فى جسدى .
وفجأة توقف أتوبيس أحمر ، وهبطت منه ابنتى ، ترتدى مريلة زرقاء لها كولة بيضاء وفى يدها حقيبة المدرسة . رفعت رأسها نحو النافذة ورأتنى . ابتسمت ولمعت عيناها العسليتان بالفرح . جريت الى الباب . وانتظرت حتى خرجت من باب المصعد فحملتهـــا بين ذراعى . دفنت رأسها فى صدرى . رائحة الطفولة فى شعرها توقظ أمومتى وتبدد الغربة .
أعددت لها الطعام وجلست أرقبها وهى تأكل بشهية تقلص وجودى فى الحياة الى ذلك الصحن تمتد اليه يدها الصغيرة ثم ترتفع الى فمها ، وحركة فـــكيها الصغيرتين وهى تمضغ الطعام بلذة .

وفى الليل نمت وذراعى حولها . كأنما احتضن العالم كله . ولا شىء فى العالم يمنحنى هذه النشوة . لا رجل ولا عمل ولا سفر ، وترددت لحظة . هل ركوب الطائرة اكثر متعة ؟ وكيف يبدو العالم تحت عينى ، وانا فوق السحاب ؟ والارض هل سأراها كروية ؟ وهل سأطل على القارات الخمس فى آن واحد ؟ والتضاريس والجبال والانهر والبحار هل سأراها بشكلها على الخريطة ؟

خيالى تلك الليلة ظل راكدا ، وصورة قاتمة واحدة سيطرت على عقلى : ان الطائرة سقطت فى البحر ونا داخلها . وتحولت خيبة الامل فى السفر الى فرحة النجاة من الموت . ونمت نوما عميقا .

وفى الصباح فتحت عينى وقد تبددت تماما كل رغبتى فى السفر . وذهبت الى المستشفى كأى يوم . لكن جرس التليفون رن الى جوارى وجاءنى الصوت المتعالى يقول : لقد وصلت تأشيرة الامن .

ووضعت السماعة الى مكانها ، وادركت أن تصاريح الامن لا تحل بالانسان حين يرغبها ، فاذا ما كف تماما عن رغبتها حلت به فجاة من حيث لا يدرى كالقضاء والقدر .

افقت على صوت ينبعث من سقف الطائرة يقول اننا نحلق فوق ليبيا . جسدى يسترخى فى المقعد وخدر لذيذ يسرى فى كيانى . اصبحت خارج حدود الوطن . تحت ضلوعى خفقات تتصاعد السرعة . والدماء الدافئة تمشى فى عروقى . شحنة من الحماس ، وحواس جديدة تستيقظ وتتفتح للحياة والحب ... أسندت

راسى الى مسند المقعد وأغمضت عينى ثم فتحتهما .
لحن موسيقى فى أذنى ، وعينان زرقاوان تتطلمان نحوى
وتبتسمان . كانت تجلس فى المقعد المجساور لى
وتحتضن بين ذراعيها دمية كبيرة من البلاستيك .
تهدهدها كانها طفل حي .
سالتني : عندك أطفال ؟
قلت : نعم .
قالت بأسى : حرمت من الاطفال .
قلت : الحياة فيها اشياء اخرى غير الاطفال .
تساءلت : مثل ماذا ؟
قلت : العمل ، السفر ، الحب ...
تساءلت : هل أحببت ؟
وفاجأني السؤال . لم يسألنى احد من قبل هذا
السؤال . لكن سؤالها يبدو لى عاديا . وبى رغبة
لافتح قلبى لهذه المراة فهى لا تعرفنى ، وسوف نفترق ،
ولن نلتقى بعد اليوم .
وقلت : اتريدين الصدق ؟
قالت : نعم .
قلت : توهمت الحب لكننى لم أحب بعد .
وضحكت والقت بشعرها الاصفر الغزير الى الوراء .
رايت بين اسنان فكها العلوى سنة ذهبية . اظافرها
طويلة مدببة مطلية باللون الاحمر . امسكت خصلة من
شعرها بين اصابعها ولعقت بطرف لسانها شفتها العليا
وقالت : لا يوجد شيء أسمه الحب .
سألتها : من اى بلد ؟
قالت : انا ايطالية ، واشتغل فى بنى غازى .
قلت : وماذا تشتغلين ؟

قالت وهي تشعل سيجارة : راقصة .. ثم أردفت بصوت خافت : ومومس أيضا .

انتفض جسدي مبتعدا عنها بحركة شبه غريزية . لاول مرة في حياتي أرى امرأة مومسا . قرات عنهن في الروايات وشاهدتهن في أفلام السينما . رمقتها بطرف عين أدرس ملامحها وذراعيها وساقيها . كل شيء فيها عادي لا يثير الانتباه . كنت اظن أن المرأة المومس لابد وأن تثير الانتباه بشيء غير عادي . تأملت اصابع يدها الخمسة بدهشة . كأنما كنت أتوقع أن يكون لها ستة أصابع أو سبعة . أفقت على هزة عنيفة كأنما تسقط الطائرة في البحر ، ومعدتي تسقط معها الى تحت . امسكت المقعد بكلتا يدي وهتفت : ماذا يحدث ؟ وقالت المرأة الايطالية : نهبط في بني غازي .

اضاءت رقعة مستطيلة من الضوء فوق راسي عليها حروف بالانجليزية : اربطوا حزام المقعد . أطفئوا السجائر . صوت أنثوي يعلن في الميكروفون ان الطائرة تهبط ولم أسمع بقية الكلمات . الميكروفون ياكل نصف الحروف والازيز العالي يبتلع النصف الآخر ، وجدران أذني تنطبق وتنغلق تحت ضغط مفاجيء ، ولم اعد أسمع الا صفيرا حادا . ثم انفتحت أذني فجأة بصوت اشبه بالفرقعة الخفيفة وزال الضغط تماما وسمعت صوتا كهدير الشلال ثم ارتج جسمي مع ارتطام عجلات الطائرة بالارض .

ولابد أن وجهي كان شاحبا لان قلبي كان يدق بسرعة وحلقي جف تماما .

***

على ارض مطار بني غازي رايتها من خلال الزجاج

تسير بين الصفوف ، تحمل على ذراعها الابيض النحيل دميتها البلاستيك كام تحمل ابنتها الوحيدة ، وبيدها الاخرى امسكت حقيبة جلدية صفراء .

عاصفة من الرمال هبت وطيرت شعرها الاصفر ، ورأيتها تغطي ركبتيها البيضاوين بطرف ردائها ، وهواء بني غازي يعاندها ويرفع عنهما الرداء ، ووجوه سمراء تتفرسها ، وعيون جائعة تلتهمها .

ورأيتها تتوقف ثم تستدير نحو نافذتي ، ولوحت لي من بعيد بمنديلها الابيض الصغير ، فلوحت لها بيدي ، وخوف غامض يسري في كياني .

***

حين هبطنا في الجزائر كانت الشمس لا تزال في السماء . شمس الاصيل الدافئة تلمع فوق الشجر والجبل العالي الاخضر . لاول مرة في حياتي اري جبلا عاليا أخضر صاعدا نحو قرص الشمس . في مصر لم أعرف الا الارض المستوية ، وجبل المقطم لم يكن جبلا . والخضرة في مصر لم يكن لها هذا اللون الاخضر القوى الداكن .

سمعت من خلفي صوتا يقول : حمدا لله على السلامة استدرت بسرعة . رايت الوجه الطويل الاسمر والشارب الدقيق المنمق فوق الشفة العليا . اسمه الدكتور « جميل ياسر » وكان استاذا لي بالكلية .

تساءل : أنت وحدك ؟

قلت : نعم .

قال : تعالى معنا ، سناخذ تاكسيا الى الفندق . كانت معه زوجته . امراة ضخمة سمينة تترجرج على كعبين رفيعين . السائق الجزائري يتكلم بالفرنسية .

الساعة حول معصمى تشير الى الثامنة والنصف ، ولا تزال الشمس في السماء . وقال الدكتور جميل ياسر : ألم تغيرى ساعتك ؟ الساعة الآن الخامسة والنصف .

مددت يدى وادرت مسمار الساعة الى الوراء ثلاث دورات كاملة .

رغم رحلاتى المتعددة فى بلاد العالم خلال العشرين عاما الماضية ورغم أننى حركت عقارب الساعة الى الوراء أو الى الامام حسب موقع البلد التى أسافر اليها ، الا اننى لازلت اذكر هذه المرة الاولى التى غيرت فيها الزمن بيدى .

أحسست رعشة خفيفة فوق اصابعى وانا أحرك مسمار الساعة ، وعيناى تتابعان ــ العقربين وهما يتقهقران الى الوراء ثلاث ساعات كاملة .

كنت اظن أن حركة عقربى الساعة مقدسة لا يمكن ليد أن تلمسها أو تغيرها . هذان العقربان كانا يحكمان يقظتى ومنامى . مواعيد عملى ولهوى . يحكمان أيام عمرى . يحكمان على بالشباب أو بالشيخوخة . هذان العقربان لم اكن استطيع ان اقدمهما أو اؤخرهما دقيقة واحدة ، ولا يستطيع أحد غيرى حتى الصائغ الذى صاغهما ودقهما بمطرقته وصنع منهما عقربين . هذان العقربان المقدسان استطعت الآن أن احركهما الى الوراء ثلاث دورات كاملة .

وتحولت الدهشة الى فرحة . كأنما اختلست من الآلهة ثلاث ساعات واضفتها الى عمرى .. أو كأنما درت حول الكرة الارضية ثلاث دورات وانا فى مكانى .

وحين سرت على أرض الجزائر والشمس لا تزال

في السماء قلت لنفسي : الناس في مصر غربت عنهم الشمس وانا لا تزال الشمس في عيني ؟! أهي الشمس نفسها أم شمس أخرى ؟

ملمس الشمس فوق وجهي في أول زيارة لا تزال في ذاكرتي . واللهجة الجزائرية بدت لي كاللغة الجديدة والملامح الجزائرية حادة قوية شامخة كالجبل . والسلام الجمهوري حين سمعته يعزف لاول مرة أدركت انني فوق أرض الجزائر . أرض المليون شهيد . حرب التحرير والفدائيين . سجون التعذيب وجميلة بوحريد الجنود الفرنسيون وفظائع الاستعمار . « فرانز فانون » وكتابه « المعذبون فوق الارض » بن بيلا بوجهه المستدير وقامته الطويلة تقارب قامة عبد الناصر .

افتتح بن بيلا المؤتمر الطبي . قاعة ابن خلدون مليئة بالاطباء العرب ، والحديث بينهم يدور حول الثورة الجزائرية والعمل الفدائي والتحرر من الاستعمار . لكن سرعان ما انقسموا الى لجان متخصصة وبدأوا الحديث عن أمراض القلب والمعدة والطحال .

وفي المساء كانت حفلات الموسيقى والغناء والرقص الجزائري . أنغام البيانو والكمان تمتزج بدقات الدف والعود . كلمات فرنسية تمتزج بكلمات عربية . عيون فيها ثورة وغضب ، وعيون فيها استكانة وشبع . نساء رشيقات نصف عاريات . ونساء محجبات تحت خمار سميك وعباءة واسعة بيضاء .

في حي القصبة العربي طغت دقات الدف والعود على أنغام البيانو والكمان . وطغت الكلمات العربية على الفرنسية . وبدات الازقة الرطبة والبيوت القديمة

المتآكلة وعيون النساء من تحت الحجاب الابيض ووجوه الاطفال الذابلة .

تقدمت نحوي امرأة تخفي وجهها وجسمها تحت عباءة بيضاء واسعة . على ذراعها طفل ، وذراعها الثانية ممدودة نحوى ، باسطة كفها تشحذ : أعطنى قرشا . قالتها بالفرنسية . لاول مرة فى حياتى أسمع شخصا يشحذ بلغة أجنبية . كنت أظن أن الشحاذين لا يعرفون الا العربية .

قبل منتصف الليل عدت الى غرفتى بالفندق ، ورأيت الورقة الصغيرة ، وكلمات بخط دقيق منمق يشبه الشارب الدقيق المنمق ، الحرف بجوار الحرف كالشعرة بجوار الشعرة فى دقة شديدة أشبه بالحذر : « أدعوك الى العشاء معى غدا . »

جميل على

أكاد لا أعرف الاسم . أيكون هو الدكتور جميل ياسر؟ حضرت بعض محاضراته في مدرج علي ابراهيم فى كلية طب قصر العينى . والقي بحثا فى المؤتمر بالامس عن طريقة جديدة لاستئصال ورم المخ . متوسط القامة يميل الى الامتلاء خاصة عند البطن والفخذين . له نظرة حادة حين ينصت باهتمام ، شعره أسود بلون الصبغة الفاحمة السوداء ، تجاعيد العمر واضحة حول العينين والفم . أسنانه صغيرة صفراء من كثرة التدخين . وحين يمشي يتكيء بجسمه على ساقه اليمنى كأن بقدمه اليسرى عرج خفيف . لم يكلمنى وأنا طالبة ولم أكلمه .

وقابلته بعد التخرج مرات قليلة فى اجتماعات عابرة . ولم نتكلم أيضا . لم أكن أظن أنه يعرفنى . وفى قاعات

المؤتمر كنت أراه يمشي والى جواره زوجته . يسبقها بخطوة .
في الصباح دق جرس التليفون في غرفتي وقال : انا جميل ؟
ـ جميل من ؟
ـ الدكتور جميل ياسر .
ـ ولكنك في الورقة كتبت جميل على ؟
ـ اسمى الثلاثي جميل على ياسر .
ـ ولماذا لم تكتب جميل ياسر .
ـ خشيت أن تقع الورقة في يد أحد غيرك .
ـ أتعنى أن جميل على هو اسمك التنكرى.؟
ـ تقريبا .
ـ ولماذا تتنكر ؟
ـ التقاليد تطاردنا أينما سافرنا .
ـ وهل انت ضد التقاليد ؟
ـ حين اسافر نعم .
ـ هل ستأتى معك زوجتك ؟
وصمت لحظة ثم قال : لا . انها تفضل البقاء بالفندق .
وأردف : هل أمر عليك في السادسة والنصف ؟
قلت : لا
ـ أترفضين دعوتي ؟
ـ لا ، ولكنى أرفض دعوة « جميل على » .
ـ لماذا ؟
ـ لانى لا أعرفه .
وتساءل : ودعوة جميل ياسر ؟ هل تقبلينها ؟
ـ لا .

– لماذا ؟
– لانى أعرفه .

***

سافرت الى الجزائر مرات أخرى بعد هذه الرحلة الاولى عام ١٩٦٣ . لكن صورة الجزائر ظلت فى ذاكرتى كما رأيتها أول مرة . كوجه انسان يشدنا لاول وهلة وتظل الصورة الاولى محفورة فى الذاكرة رغم تغير الملامح .

الجبل الاخضر يحتضن البحر الازرق . الارتفاع الشاهق ينحدر بحدة وبلا تدرج ، والصخور حمراء . وعينا الفدائى الجزائرى « شهيب » نفاذتان ثاقبتان كعينى الفهد . لونهما أزرق كالسماء . لكنه اذا نظر ناحية الجبل تحولت الزرقة فى عينيه الى خضرة داكنة كالغابة . فاذا ماحرك رأسه ناحية البحر أصبحت الخضرة فى المقلتين زرقاء عميقة الاغوار كمياه البحر .

شعرت بالقرب منه وهو صامت . أحب فى الرجل صمته . فالصمت أصدق . وملمس يده فى يدى مألوفا لكن اذا مانطق وسمعت تلك اللهجة الجزائرية الفرنسية نصف العربية رأيته رجلا غريبا .

وضحك فاردا ذراعيه عن آخرهما محتضنا البحر والجبل والسماء والشمس . وحاول أن يحتضنى فابتعدت . صوت أمى لا زال فى أذنى منذ الطفولة : لا تثقى فى أى رجل غريب .

الغرباء لم نرهم فى بلادنا الا مسلحين بالبنادق وبنادقهم ناحية صدورنا . وعقلى منذ الطفولة ربط بين البنادق والرجال الغرباء وكونى أنثى . كرهت الكلمة منذ الطفولة . واصبحت انوثتى عقلانية .

لازلت أحدق في عيني « شهيب » رغم مرور عشرين عاما . رائحة البحر في أنفي والسيارات المحروقة في سفح الجبل ، والتراب أحمر بلون الدم وهو صامت ينظر بعينيه النفاذتين الى قمة الجبل .

وتذكرت الحوار :

ـ في عينيك شيء لم أجده في عيون الرجال .

ـ ماذا ؟

ـ هذا البريق النفاذ الحاد يشق الجبل والبحر .

ـ الثورة ؟

ـ ربما . ولكنها ثورة مختلفة . عندنا أيضا ثورة .

ـ ثورتكم بيضاء وثورتنا حمراء . سال دم مليون شهيد قبل أن نحصل على الاستقلال .

ـ عندنا شهداء ماتوا في حرب القنال ضد الانجليز .

تذكرت « المنيسي » زميلي في كلية الطب . كان يجلس الى جواري عام ١٩٥١ في أول سنة بالمشرحة . اختفى ذات يوم ولم أره أبدا . ولم يبق منه الا حروف اسمه محفورة على لوحة من الرخام في مدخل الكلية ضمن أسماء الشهداء ، وحروف اسمي على ورقة بخط يده في درج مكتبي .

ـ اذا كانت ثورتنا بيضاء فأين يذهب دم المنيسي ؟

ـ من هو المنيسي ؟

ـ حبي الاول . كان ثائرا وكان جذابا .

ـ الثورة تجعل الملامح جذابة .

ـ كل من أحببت في حياتي كان ثائرا . وكل امرأة جذبتني كانت ثائرة . وكل طفلة أو طفل جذبني رأيت الثورة في العينين واضحة . وأنا أحب نفسي حين أثور واكره نفسي حين أستسلم .

ـ وأنا أحب المرأة الثائرة حين تستسلم .

ـ وأنا أحب الرجل المستسلم حين يثور .

***

هل تؤثر طبيعة الارض على الملامح ؟ فى مصر الوادى السهل المنبسط يجعل الملامح هادئة والعيون وادعة شبه مستسلمة ؟ وهنا فى الجزائر الجبل الصعب الشاهق يجعل الملامح حادة عنيفة شبه صخرية ؟

فى زيارتى الاولى للجزائر جذبتنى الملامح الجبلية . خفق قلبى وأنا أصعد الجبل لاول مرة . ورأيت فى العينين النفاذتين حريق المعارك المتفحمة فى بطن الجبل . ورأيت البحر فى عنفوانه . والجبل فى شموخه . وأصبحت الثورة هى الحب . لكنى كنت لا أزال أسيرة الوهم أن الثورة تمنح ، والمرأة تؤخذ .

ووقفت مترددة . كالمشدودة بين قوتين متعادلتين . تجاوزت حدود الوطن لكنى لازلت حبيسة سجن بغير جدران ، وسلاسل تحوطنى غير مرئية .

كان بن بيلا لازال فى الحكم . وعبد الناصر أيضا لازال قبل هزيمة ١٩٦٧ . وكنت أمد رأسى بين الصفوف لاسمع صوت بن بيلا وهو يلقى خطابه فى أول أيام المؤتمر . كلماته العربية تختلط بالفرنسية . يقول بدل مدرسة « أكول » وبدل موعد « راندفو » . خليط عجيب من الكلمات الفرنسية المعربة ترن فى أذنى كلغة مستحدثة غريبة ، ومنفرة .

واشار « شهيب » الى السيارات المحترقة فى سفح الجبل .

ـ هذه بقايا معركة التحرير وقد طردنا فرنسا الى الابد .

ـ ونحن أيضا طردنا الانجليز من قبلكم !
ـ هل نتمشى معا الليلة ؟
ـ لا .
ـ هل انت متزوجة ؟
ـ لا .
ـ لماذا تعترضين اذن ؟
ـ هل الزواج هو الذى يمكن أن يمنعنى ؟!
ـ بالعكس الزواج يحرر المرأة .
ـ والاستعمار يحرر بلادنا ؟
ـ هل الزواج كالاستعمار ؟
ـ كلاهما وجهان لعملة واحدة .

وفى الزيارة التالية للجزائر رأيت « شهيب » سائرا فى الطريق . استداز ورآنى . ملامحه لم تعد جذابة . هل فقد ثورته ؟ صافحته وسرت فى طريقى مسرعة . الشمس تقترب من المغيب .

شوارع الجزائر بعد الغروب تخلو من النساء ، وتصبح غابة من الرجال . يسيرون جماعات على شاطىء البحر . أنوفهم حادة وعيونهم نفاذة ثاقبة . وأنفاسهم كزفير البحر أول الليل يصعد ويهبط .

وقلت لصديقتى الجزائرية فتيحة : لماذا لا تتمشى النساء الجزائريات على البحر ؟

وقالت فتيحة : لازلنا مجتمعا رجوليا .

ـ ولكن النساء اشتركن فى حرب التحرير .
ـ نعم . لكن بعد تحرير الوطن لم نحرر أنفسنا .
ـ أيهما يسبق ؟ تحرير النفس أم تحرير الوطن ؟
ـ النفس طبعا . فاقد الشىء لا يعطيه .

فتيحة احدى عضوات الاتحاد النسائى الجزائرى .

لم تتزوج بعد . كانت مشغولة بالثورة ولم تجد الوقت للزواج ، واذا وجدت الوقت لم تجد الرجل . وقالت لى : « الرجل الجزائرى اذا تحرر تزوج فرنسية ، واذا تزوج جزائرية لم يعد متحررا ، وهو يشتهى المرأة الحرة لكنه لا يتزوج الا الجارية .

●●●

من الجزائر ركبت الطائرة الى باريس . لم يعد لركوب الطائرة السحر الاول .

أحملق من خلال الزجاج المزدوج لارى مضيق جبل طارق ، شريط البحر بين قارة افريقيا وقارة أوروبا .

كلمة « أوروبا » تملأ راسى بالخيالات . أول مرة سمعت الكلمة من أبى . كنت لا أزال طفلة ، وسمعته يقول أن الطالب المتفوق يسافر فى بعثة لاوروبا . وتصورت أن أبى تفوق على جميع رجال العالم ولا أحد يفوقه فى شيء . ثم اكتشفت بعد أن كبرت قليلا أن الملك فاروق أكثر شهرة من أبى . وسألت جدتى لماذا لم يصبح أبى ملكا . ثم كبرت أكثر . وكلما كنت أكبر كان حجم أبى يتناقص . حتى علمت أن هناك رجالا سافروا فى بعثات الى أوروبا وهو لم يسافر . ثم عاش أبى ومات فى الواحد والستين من عمره دون أن يرى أوروبا ودون أن يركب الطائرة .

أصبحنا نحلق فوق أسبانيا . أحملق من خلال الزجاج كأنما سأرى الاندلس ، والسندس الاخضر ، وحلبة مصارعة الثيران .

أدقق النظر الى الارض فى القاع السحيق تحت جناح الطائرة . الارض تبدو حمراء تحت وهج الشمس البيوت دقيقة بحجم رءوس الدبابيس .

الى جوارى رجل يقرأ فى جريدة . التقطت كلمة الصباح « بالفرنسية » .
تعلمت اللغة الفرنسية فى المدرسة الابتدائية والثانوية لم اتكلم الفرنسية منذ أكثر من عشر سنوات .
ابتسم الرجل وسألنى بالفرنسية عن بلدى . وقلت: « ايجيبت » . ورن صوتى فى أذنى غريبا ، وكلمة « ايجيبت » بدت وكأنها ليست « مصر » .
وردد الرجل بدهشة : ايجيبت ؟! وكأنما «ايجيبت» هذي في آخر الدنيا . وبدت ملامح الرجل غريبة ، وبشرته حمراء وله أنف طويل مدبب وشفتان رفيعتان مشدودتان ويداه كبيرتان فوقهما نقط سوداء . واجتاحني احساس جارف بالغربة وسمعت الرجل يقول أول مرة تذهبين الى باريس ؟
وقلت وانا ابتلع لعابي الجاف : نعم .
وتمنيت لحظتها لو عادت بي الطائرة الى بيتى ، ولاحت لي عيني ابنتي فيهما دموع .
فوق النافذة نقط ماء كالمطر . السحاب تغير لونه . أصبح كثيفا له لون داكن مخيف . من بين شقوق السحب تبدو الارض أشد غرابة . أشد بعدا . صوت الطائرة يهدر في أذني . الرجل الي جواري ترك الجريده وأغمض عينيه . مضيفة الطائرة تضحك مع أحد الركاب . امرأة جالسة فى مقعدها تقرأ في مجلة الي جوارها طفل يلعب بمكعبات صغيرة ملونة . كل شيء داخل الطائرة يبعث على الطمأنينة .
مرت المضيفات بأباريق الشاى والقهوة . نكهة القهوة فى أنفى قوية . حواسى الطبيعية تعود ، ويعود معها الادراك المفاجيء بأننى فى الطريق الى باريس .

باريس ؟! الكلمة ترن فى اذنى ساحرة . من كل الرجال فى أسرتى لم يسافر احد الى باريس . قرأت فى طفولتى عن رجال مصريين سافروا الى باريس . لا أتذكر منهم الآن الا سعد زغلول وطه حسين . فى خيالى عن باريس نساء شقراوات جميلات يرقصن على ضفاف نهر السين . عيونهن زرقاء وسيقانهن وردية ناعمة وألحان الموسيقى تملأ الكون .

الطائرة تهتز وتتأرجح كانما ستسقط بين امواج السحب . الصوت يعلن اننا نهبط فى مطار باريس ورقعة الضوء كشفت عن عبارة : اربطوا الاحزمة . أذناى تنغلقان وتنفتحان ، والازيز يشتد كالصفير الحاد . ثم الارتجاجة العنيفة الاخيرة وتلامس العجلات مع الارض .

***

المطار ضخم متعدد الممرات . أحاول تتبع العلامات فوق اللافتات لأصل الى باب الخروج . الارض نظيفة لامعة تبرق . الناس وجوههم نضرة متوردة . اجسامهم ممشوقة سريعة الحركة . كعوب النساء الرفيعة العالية ترن فوق الارض بدقات سريعة . كعوب الرجال أيضا تدب دباتها القوية النشيطة . الاجسام الرشيقة تتدافع أمامى فى تناسق وسرعة كموجات نهر رشيق .

الشوارع فسيحة والاشجار خضرتها قوية . البيوت أنيقة شرفاتها تطل منها الزهور . لم ار فى أى شرفة ملابس منشورة على حبل غسيل .

هبطت الدرجات لاركب « المترو » . الزحام شديد، والخطوات سريعة لكن لا أحد يرتطم بأحد . على المقعد

المواجه لى فى القطار فتاة وفتى يتعانقان . يستغرقان فى قبلة طويلة والقطار مزدحم ولا أحد ينظر اليهما . احاول أن أبعد عينى عنهما . ثلاثة شباب وفتاة يعلقون على أكتافهم آلات موسيقية ويعزفون . أبواب القطار تنفتح وحدها فى كل محطة ويهبط ناس ويصعد ناس ثم تنغلق الابواب وحدها . توقف القطار فى محطـــة الشانزلزيه فاندفعت بسرعة خارج القطار . صـــــعدت السلالم الى الشارع . رأيت أمامى قوس النصر الضخم والشارع الفسيح على جانبيه المحلات ذات النـــوافذ الزجاجية الكبيرة . عيناى تتحركان بلا توقف . الوجوه من حولى مشرقة والخطوات مرحة . الملابس أنيقـة متعددة الاشكال والالوان . سراويل ضيقة كالقفاز . أثواب قصيرة تكشف عن سيقان ناعمة ملونة . شاب وشابة يسيران متعانقين .

الحرية تتجسد أمامى . حيث لاعيون ، ولا آذان ، ولا أنوف تندس أو تتشمم . وسرت الى عدوى الحرية شددت عضلات ظهرى ورفعت رأسي وسرت بخطـوات منطلقة احرك ذراعى فى الهواء . اشتريت تفاحة حمراء ضخمة ووضعتها بين أسنانى ، واندفعت مع مجموعة من الشباب نحو مركب للنزهة فى نهر السين .

هبطت نحو النهر أجرى كما كنت أفعل وأنا طفلة . ثم توقفت لحظة التقط أنفاسى . أدركت أننى لم أعـد طفلة وضفاف نهر السين على الجانبين تحوطها الابنية ذات القباب العجيبة والتماثيل الحجرية منتصبة فوق الجدران كآلهة العصور القديمة قبل ظهور الالهـــة السماوية . الابنية ضخمة ممتدة فى الافق ، بـــرج ايفيل عملاق حديدى يبعث فى الجسد قشعريرة . هواء

بارد يلفح وجهي . قلبي ثقيل وصدري يمتلىء بالرهبة هذه المدينة أكبر مني . تمتد أكثر مما يمتد بصري . والاسماء فوق الجدران الشاهقة لا اعرفها . عدم المعرفة يسلب المتعة والجمال .

وفي متحف اللوفر كدت أحوطه بذراعي . ملامحه المألوفة وراسه الضخم . كتفاه العريضتان الصلبتان . أصابعي تتحسس جسده البرونزي اللامع . وتعود الى انفي رائحة الصحراء والهرم . السـيـاح الاجـانب يرمقونه بعيون زرق مستطلعة . وكلمة « اسفنكس » ترتطم باذني غريبة . اسمه عندي « أبو الهول » ، رقدته في صحراء الجيزة أكثر جمالا من رقدته هنا في متحف اللوفر . عيناه تلتقطان عيني من بين كل العيون الغريبة يستشعر الغربة مثلي ويحن الى العودة . اقتربت منه أكثر ، وحوطته بذراعي كأنما ساحمله فـوق صدري واعود .

قضيت اليوم اتجول في متحف اللوفر . امـر بين التماثيل واللوحات المتعددة ثم اعود الى حيث يرقـد ابو الهول . بالقرب منه أشعر بالالفة ، واوشـك أن أحدثه .

في احدى القاعات رأيت الناس يتجمعون حولها وهي منتصبة بقوامها المشوق الرشيق . « فينوس » آلهة الجمال كما يسمونها . لها ذراع واحدة . احملـق في وجهها لاعرف سر جمالها . ملامحها عادية . الى جوارها تنتصب الآلهة « أثينا » آلهة الحكمة . عيون النـاس منصرفة عنها مع أنها اكثر رشاقة من فينـوس واكثر جمالا . هل الحكمة في المرأة غير مطلوبة وبالتالي غير جذابة ؟

وعند لوحة الجوكندا أو الموناليزا توقفت قليلا .
كانت هى اللوحة الوحيدة التى وضعت داخل اطار
زجاجى . وانعكس الضوء على الزجاج ورأيت صورتى
داخل الاطار ولم ار الجوكندا . حركت رأسي ناحية
اليمين واليسار لاراها دون جدوى . صفوف الناس
تقف أمام الجوكندا فى خشوع . كل ينتظر دوره
ليراها عن قرب . لكن ما أن يقترب حتى ينعكس
الضوء علي الزجاج فيرى وجهه ولا يرى وجه الموناليزا
مع ذلك يستدير تاركا مكانه لمن وراءه وهو يهتف :
عظيمة ! معجزة !

استدرت مبتعدة عن الجوكندا . كلما ابتعدت اراها
أكثر . تشبه العذراء مريم بدون المسيح ، رأسها مائل
قليلا في خضوع الانثى ، وابتسامتها فيها حياء
القديسة . فى أناملها امومة . ليوناردو دافنشي كان
طفلا محروما من الشرعية . ولدته أمه بغير أب ، كما
فعلت العذراء مريم . ولم يستطع ليوناردو دافنشى أن
يتكلم فى المهد ويصبح نبيا . لكنه صنع معجزة أخرى .
أمسك الريشة ورسم أمه كاترينا ، واعطاها اسم
الجوكندا .. جعل ملامحها مقدسة كأم النبى . الناس
يحجون اليها من جميع بلاد العالم ، ويقفون أمام
صورتها فى خشوع . أناملها فيها نبض الحياة وفي
عينيها حركة غريبة تتبعني أينما ذهبت . تنظر لى ، كما
أنظر اليها . وتبتسم لى كما أبتسم لها . مددت يدى
كأنما لامسك يدها . أصابعها تشبه أصابع أمى .
مستديرة ومملوءة بالامومة ، والفضيلة معا . خالية
من الاثم . فى كل حياتى لم أتصور أن أمى عرفت
الخطيئة وأنها انجبتني بقدرة الله الروحية . حتى بعد

أن كبرت وعرفت أن أمي ليست هي العذراء مريم ، وبعد أن درست التشريح والطب ، ظلت أمي في نظري الام العذراء لم يمسسها رجل ، ولا حتى أبي .

مرت ساعة أخرى وأنا لا أزال أحملق في وجه أمي . أدرك بعقلي أنها ماتت ودفنت في مقابر الغفير قرب جبل المقطم وأن الوجه الذى أمامي هو وجه الموناليزا لكن الفاصل بين الماضي والحاضر تلاشى ، وشريط حياتي منذ الطفولة يتتابع أمام عيني الصورة وراء الصورة . كنت وأنا طفلة أحب أبي أكثر من أمي . يغيب نصف النهار خارج البيت ، ولا يؤنبني مثل أمي حين أخرج بدون اذن . ويدفع لي مصاريف المدرسة . لكني بعد أن كبرت أصبحت أحب أمي أكثر من أبي . لا تنام حتى أعود وتقدم لي العشاء وتجلس معي حتى آكل . وفي الليل أحس بها تنهض على أطراف أصابعها وتغطيني .

هل بدأت الفضيلة في العالم بحب الام قبل معرفة الاب ؟ خطوط ليوناردو دافنشي لا تعرف الا حب الام ، وتحول الحب في الانامل الى عبادة . وبالعادة تحولت في القلب الى لذة . لكن الاب المجهول حرم الام وجعل العبادة لنفسه .

حملقت في وجوه الناس الواقفة في خشوع أمام الجوكندا . ماذا يبهرهم في خطوط دافنشي ؟ وماذا يتحرك في أعماقهم ؟ أهي اللذة في أعماق القلب للمحرمات ؟ أم هي الكراهية الخفية للمقدسات ؟

أستكشف بطرف عيني أعماق الناس . لا أحد ينظر لي . راحوا جميعا في غيبوبة الفن أو هكذا بدا لي ، حتى ذلك القسيس الواقف في خشوع بملابسه المقدسة،

يملأ عينيه بسحر الجوكندا ، وجاذبيتها الآثمة .

***

سرت على شاطىء السين أعرض وجهي الساخن للهواء البارد المنعش . الشمس مشرقة والاكشاك الخشبية تعرض اللوحات ، والكتب القديمة . تذكرني بسور الازبكية . الحياة مثألقة تحت الضوء المبهر . الشارع مزدحم بالناس . خطواتهم نشطة مرحة . الفاكهة مرصوصة بعناية فوق الرفوف . والزهور الوانها متعددة . الناس يجلسون في المقاهي وأمامهم صواني تلمع وفناجين وأكواب تبرق تحت الشمس .

ألمح قباب كنيسة نوتردام . النقوش العتيقة والتماثيل منتصبة تحت الضوء . أمام الباب الضخم رجل يبيع النباتات العطرية الجافة داخل أكياس من القماش . قال بالفرنسية :

ثمن الكيس عشرة فرنكات ، وتعيش الرائحة لمدة عام . الى جواره رجل يبيع البالونات الملونة . السياح من مختلف البلاد يملأون المكان . بعضهم افترش الارض وجلس يأكل ويشرب البيرة من علب مثلجة . شاب وشابة يرقدان على دكة خشبية ويتعانقان تحت الشمس .

البهو الواسع داخل الكنيسة رطب مظلم . أضواء الشموع تشيع في الجو رهبة سماوية غامضة لها رائحة كالدخان أو الشمع المحروق . الناس يسيرون بخشوع نحو الهيكل . صورة العذراء مريم تحتضن المسيح . الناس يتأملونها كأنها الجوكندا . الصليب يتدلى من الجسد المقدس . امرأة عجوز راكعة على دكة خشبية ترسم على صدرها علامة الصليب . امرأة اخرى راكعة في الطرف الآخر من الدكة . امرأة ثالثة تقترب من

الصليب وتلمسه بيدها ثم تمسح وجهها بيديها . بداها معروقتان وحركتها تشبه حركة جدتى مبروكة ، والبهو المقدس المعتم له رائحة رطبة تشبه رائحة سيدنا الحسين فى طنطا . كنت لا أزال طفلة وارتبطت فى ذهنى الرطوبة والعتمة بالامكنة المقدسة ، والايادى المعروقة ، والوجوه المليئة بالتجاعيد . والجلاليب السود . والعيون الذابلة المتغضنة تعوم فى الحزن . والاغلبية نساء فقيرات . لماذا يخاف النساء والفقراء عقاب الآلهة أكثر من غيرهم ؟

رفعت راسى نحو الهيكل . رجل وامراة راكعان على ركبتيهما أمام الاله المقدس . الرجل خاشع والمراة خاشعة . لكن خشوع المرأة أشد . راسها مطرق وعيناها الاثنتان مغلقتان . لكن الرجل يغمض عينا ويفتح عينا ، ويرمقنى وانا واقفة بطرف عين .

ضوء الشموع يملأ البهو بالاشباح ، رائحة غريبة كرائحة الموت ، وظلال الاجساد تصنع فوق الارض هياكل سوداء — رجل عجوز له لحية طويلة بيضاء يتمتم وفى يده الكتاب . عيناه صغيرتان غائرتان من تحت النظارة البيضاء . جفنه مسدلة تنفتح وتنغلق بحركة سريعة منتظمة كحركة جفون عمى الشيخ عبد الحميد . كان الاخ الاصغر غير الشقيق لجدتى مبروكة . من بين ثلاثة عشر أخ غير شقيق من زوجات أبيها الاربعة . وكان يجلس فى صحن الدار وفى حجرة القرآن يتمتم بصوت خافت ، وجفونه مسدلة تنفتح وتنغلق بحركة سريعة كحركة راسه ، وحبات السبحة الصفراء بين يديه لاتكف وطرقعة شباشب زوجاته الثلاثة ، وأصواتهن الحادة يتشاجرن حتى غروب الشمس ، ثم ترقد كل واحدة

منهن في غرفتها ، ويدخل هو الى غرفة زوجته الاولى ليلة السبت ، ثم يستريح ليلة الاحد ، ويدخل الى غرفة زوجته الثانية ليلة الاثنين . أما زوجته الثالثة وهي الصغرى فتحظى بليلتي الثلاثاء والاربعاء ، ثم يستريح ليلة الخميس .

وتهمس زوجته الاولى في أذني قائلة : عمك سيذهب الى جهنم ، لا يوزع بالعدل ليالى الاسبوع .

ولم اكن افهم ماذا تعنى . كنت لا ازال طفلة ، ولا اعرف الا أن في الاسبوع سبع ليال ، وعمى الشيخ يعطي زوجاته اربع ليالى ، ويستريح ليلتين ، فأين هي الليلة السابعة ؟

وسألته ذات يوم وهو جالس في صحن الدار يقرأ القرآن ، وقال لي : ليلة الجمعة أعطيها لله فهي ليلة مباركة .

في غرفتي الصغيرة بشارع سان جرمان تمددت على السرير . اغمضت عينى ثم فتحتهما . خيل الى انني ولدت في هذه الغرفة ، وفيها اموت ولم أعرف مكانا غيرها . حركت رأسي ورأيت حقيبة السفر فوق المنضدة ، يتدلى من مقبضها ورقة صغيرة نصفها أحمر ونصفها ابيض كتب عليها بالفرنسية باريس . أتذكر بدهشة انني في باريس . وتبدو لى هذه الحقيقة غريبة شبه مستحيلة . الغرفة لا تختلف كثيرا عن اى غرفة اخرى . دولاب وسرير ونافذة مغلقة . وتعود عيناى تتلمسان الحقيبة بورقتها النصف حمراء لاتأكد انني جئت الى باريس .

ارتديت ملابسي وخرجت الى الشارع . امتلأ صدري بهواء رطب منعش وأشعة الشمس سقطت على وجهي .

ومن حولي الضوء الساطع ، والوجوه المرحة ، ومياه نهر السين تهتز تحت الشمس كملايين الاسماك الفضية على المقاعد الخشبية شباب وشابات يتعانقون . وفي حديقة اللوكسمبورج أطفال يمرحون ويلعبون . وشعرت بالجوع فجأة . فاشتريت رغيفا طويلا دسست فيه شرائح الجبن والمورتاديلا . وجلست على مقعد خشبي تحت الشجر أمضغ الطعام ببطء ، وأرقب الشمس وهي تغرب .

مهرجان من الالوان والاضواء والناس ، سائرون على الاقدام ، أو جالسون على المقاهي يشربون ويأكلون ويتحدثون . أوراق الشجر تلمع وتهتز . السماء تبرق بالانوار . مياه نهر السين تتراقص تحت اللمبات الملونة . نسمة الهواء باردة منعشة خالية من التراب . الوجوه نضرة تبدو عليها الراحة . المقاهي والمطاعم أنيقة تسبح في الضوء . اعمدة الابنية ضخمة تزينها التماثيل . قباب الكنائس والقصور . الحدائق ومساحات الخضرة . الشوارع نظيفة لامعة . الملابس انيقة متعددة الالوان والاشكال . النساء تمشي ببساطة وحرية وتلقائية . لا أحد ينظر الى أحد . ولا رجل يعاكس امرأة . الاتوبيس يقف في المحطة والناس تهبط وتصعد في صفوف منتظمة . لا أحد يدفع أحدا من الخلف . لايجري أحد وراء الاتوبيس . ولا يصعد أحد فوق ظهر الاتوبيس او يركب على السلم . وليس هناك رجل يلتصق بامرأة من الخلف . وليس هناك كمسارى ، ينضغط بين اجساد الناس ويدق على صندوقه الخشبى المعلق على كتفه مناديا : تذاكر ! تذاكر !

كنت ارقبه قبل أن يصل الي وهو يشق الطريق بين

الركاب ، فاذا ما أصبح بينه وبيني مسافة ذراع هبطت بسرعة من الاتوبيس . ولم تكن ذراعه تطولني . مسرة واحدة هبط ورائي بسرعة ، وجعلني أدفع التذكرة . ولم يكن ثمن التذكرة حينئذ الا عشرة مليمات لكنها كانت تبدو لي وانا طفلة كأنها عشرة جنيهات .

***

أمامي فنجان القهوة باللبن ، وأنا جالسة على الرصيف في ذلك المقهى المواجه لحديقة اللوكسمبورج . العالم كله يمر أمام عيني كالنهر المتدفق . وجوه من جميع أنحاء العالم ، وجميع اللغات واللهجات .

أمدد ساقي في ارتخاء وأرشف القهوة ببطء ولذة . منذ الزيارة الاولى لباريس وأنا احب الجلوس في المقاهي على الرصيف . وفي الزيارات الاخرى ظل مقعدى الصغير في المقهى هو مكاني المفضل . والحى اللاتيني هو اجمل الاحياء . وغرفتي في ذلك الفندق الصغير الانيق في بوليفار سان جرمان . والمكتبات والمسارح ودور السينما الصغيرة ، حيث أجلس في المقعد الدافيء المريح وامدد ساقي واتابع المشاهد لأي مؤلف في العالم ، من شكسبير وابسن وبرناردشو وتشيكوف الى مونتيسير وسارتر وجان جينيه .

لازلت أجلس في المقهى . الساعة الثالثة وأمامي ساعتان حتى أذهب الى المطار لاغادر باريس . الشمس ناعمة كالقطيفة . دقات الكعوب فوق الارض مرحة نشطة .

ضحكة تنطلق من حين الى حين ثم تذوب في الهواء . شاب يجلس الى جواري يقرأ في كتاب ويرشف البيرة . رجل عجوز داخل معطف صوفي يحملق في الشارع ويمص

القهوة من فنجان ملون . امرأتان تسيران متعانقتين تضحكان بصوت عال وتقفزان لحظة في الهواء ثم تواصلان السير . أوراق الشجر تهتز مع الهواء وتلمع تحت أشعة الشمس . ومن خلال سور الحديقة أرى أحواض الزهور متعددة الالوان والاشكال .

الساعة الثالثة والربع ولا أزال امامى الوقت . طلبت كوبا كبيرا من البيرة وشرائح رقيقة من البطاطس المحمرة رائحة البيرة وملمسها المثلج في جوفى يملأنى بالانتعاش. اترك جسمى يسترخى أكثر فى المقعد ، واغمض عينى . اشعة الشمس احسها دافئة فوق جفنى . افتح عينى فجاة باندهاش . اين انا ؟ وادرك اننى جالسة فى المقعد على رصيف المقهى . جالسة وحدى وامامى كوب ضخم من البيرة ، والناس تمر ، والرجال يمرون ، ولا أحد يقذفنى بكلمة أو يرمقنى بنظرة .

لم أستمتع بجلسة فى مقاهى الوطن .. فالمقاهى فى بلادنا للرجال . يجلسون على المقاعد ، ويرمقون النساء السائرات ، من الامام ومن الخلف . من الراس حتى الصدر ، ثم تدور عيونهم لتفحص السيقان من الخلف والردفين .

وفى يوم جلست فى المقهى المواجه لوزارة المالية فى ميدان لاظوغلى . كانت لى بعض الاوراق فى الوزارةوتأخر الموظف المسئول وقررت انتظاره فى المقهى . طلبت كوبا من الشاى وجلست . لكن عيون الرجال ظلت ترمقنى ، من داخل المقهى وخارجها . ثم اقترب منى رجل وجلس الى المنضدة المجاورة لى وهمس ببضع كلمات لم أسمعها . وسألته بدهشة : ماذا تريد ؟

ولم أكن أعرف حينئذ أن مثل هذا السؤال يعد فى

نظر الرجال قبولا لفتح الحوار او على الاقل عدم الرقض . فاذا به ينتقل بسرعة الى المقعد المجاور لى ويقول بصوت لزج : تشرب ايه ياجميل ؟ ولم أستطع التخلص منه الا حين رفعت صوتى الغاضب عاليا ، وبدأ الرجال الجالسون فى المقهى يضحكون ويقهقهون ، ووجدتنى اترك كوب الشاى دون أن اكمله وخرجت مسرعة من المقهى والعيون تلاحقنى ومعها النكات والقفشات النابية .

ولم يكن فى امكانى التنزه على شاطىء النيل دون أن يتبعنى رجل يهمس بصوت قبيح كالفحيح ، أو يرفع يده ويلمس ذراعى أو صدرى حين يكون الطريق خاليا من المارة .

ولم أعد أجلس فى المقاهى ، أو اتنزه على الشاطىء . وادركت أن المرأة ليس لها مكان للنزهة فى بلادنا الا اذا سار الى جوارها زوج او أخ أو أى رجل آخر .

ان وجود الرجل الآخر الى جوارها يعنى على الفور انها ليست وحيدة ، وأن هناك رجل يملكها . وليس للرجال الاخرين أن يعتدوا على امرأة مملوكة لرجل آخر .

أما المرأة الوحيدة فهى غير مملوكة لاحد ، وبالتالى تصبح فى نظر الرجال ملكية عامة وليست ملكية خاصة ، والاعتداء عليها غير ممنوع ، سواء بالنظر أو اللمس .

اختفت الشمس وراء سحابة رمادية ، وهب هواء بارد لازال أمامى ساعة ، ويمكننى السير حتى محطة المترو . معى حقيبة صغيرة أجرها خلفى على عجلتين . لا احمل معى ملابس كثيرة فى السفر . اغسل ملابسى بيدى ، واعلقها فى الحمام على الشماعات ، وفى الصباح أجدها جافة .

ظهرت الشمس مرة أخرى ، وامتلأ السكون بالدفء

وتلاشى اللون الرمادى . سرت بحذاء سور حديقة اللوكسمبرج ، ولم اهبط الى محطة المترو ، لازلت راغبة في السير وقد أسير حتى ميدان « البورت مايو » وآخذ الاتوبيس من هناك للمطار . السير فى شوارع باريس له متعة . لكن هل يكفى الوقت ؟ ونظرت فى ساعتى ، وجدتها متوقفة .

وسألت فتاة من المارة : « كم الساعة الآن ؟ كانت تسير بخطوات مسرعة ، وتعلق على كتفها حقيبة جلدية تطل منها بعض الكتب والكشاكيل . طويلة نحيلة ، ترتدي حذاء كاوتش وبنطلون اسود ، وسترة صوفية بيضاء . توقفت عن السير ونظرت فى ساعتها بسرعة ثم قالت : الساعة الرابعة الا ربع . وقلت : اشكرك .

رفعت وجهها نحوى ورايت الزرقة اللامعة فى عينيها . شاهدتها تبتسم وتنظر الى ثم سمعتها تقول قبل أن تمضى فى طريقها بسرعة : « فوزت بيل مدام » « انت جميلة ياسيدتى » .

قبل أن تدرك اذناى كلماتها كانت هى قد اختفت واستدرت ورائى ، فلم ار الا ظهرها وهى تسير بسرعة ونشاط . ظهر مستقيم داخل السترة الصوفية البيضاء وجسم ممشوق وخطوات خفيفة سريعة فوق الارض .

وظل صدى صوتها فى اذنى : انت جميلة ياسيدتى . وفى الاتوبيس الى المطار ظل الصوت ، وعادت الى صورتها ، الزرقة اللامعة في عينيها وهى تبتسم . ظهرها المستقيم وخطواتها السريعة النشطة . صوتها والحروف كما نطقتها الحرف وراء الحرف « انت جميلة يا سيدتى » ، وحركة شفتيها السريعة النشطة كحركة قدميها فوق الارض .

وفي الطائرة جلست وربطت حزام المقعد . طغى صوت الطائرة على صوتها ، فلم أعد أسمعه . لكن بعد الاقلاع فككت الحزام من حولى وسرت فى الممر حتى مؤخـرة الطائرة . ووقفت أطل على باريس من النافذة الخلفية . الانوار كعناقيد اللؤلؤ فوق مربعات حمراء . ومن فوق الانوار زرقة لامعة . ونظرت الى وجهى فى المرآة المعلقة فوق الحوض ، كأنما وجه جديد يطل على . المـلامح تشبه ملامحى القديمة لكنها أصبحت كالملامح الجديدة . البشرة تتألق بلون أكثر حمرة . العينان أكثر اتساعا و « الننى » الاسود أشد بريقا . وهمست للمـرآة : انت جميلة ياسيدتى .

وسمعت صوتى بأذنى : انت جميلة ياسيدتى . لاول مرة أقولها لنفسى بصوت عال . كنت أهمس بها بلا صوت حتى لا يسمعنى أحد . فلم يكن هناك أحد فى الوطـن يرى أننى جميلة الا انا . ولم اعرف لماذا ؟ لكن مقاييس الجمال لم تكن تنطبق على . وفى أعمـاقى كانت لى مقاييس أخرى . وبينى وبين نفسى ادرك أن هذه المقاييس تنطبق على . ادراك فطرى نابع من أعماقى وليس له دليل فى العالم الخارجى . ومع ذلك فهو ادراك كامل يشـبه اليقين ، او هو اليقين ذاته .

الا ان اليقين يشوبه الشك . فلا احد من حولى يقول لى . ومنذ الطفولة لم اسمع أحدا يقول لى أنت جميلة . لا ابى ولا أمى . وجدتى آمنة كانت تمصمص شـفتيها فى حسرة وتقول أننى ورثت بشرة أبى السمراء . وجدتى مبروكة ترمق أسنانى الامامية البارزة وتمط بوزها قائلة « ورثت الضب عن امك » . وفى المدرسة حين تغضب

مني البنات يقلن لى اننى طويلة ونحيفة مثـل عمـود السـوارى .

ولم تكن أمى تعتبر قامتى الطويلة عيبا ، لكنها كانت ترى أختى الاصفر اجمل مني لانها ورثت بشرتها البيضاء وشعرها الناعم .

لم يكن شعري خشنا ، لكنه لم يكن ناعما أيضا ، وكانت فيه تموجات طبيعية ، لكن خالتى كانت تراه خشنا ، وتأخذنى معها الى الحلاق ليكوى شعرى بالمكواه الحديدية بعد أن يحميها على النار . واشم فى انفي رائحة احتراق الشعر ، واختنق بالشياط والدخان . واشد راسي من بين يدى الحلاق فتلسع المكواه اذني ، او طرف انفي .

وحين يدب الخلاف بين خالتى وعمتى تتهمنى خالتى بان شعرى اكرت وبشرتى سوداء مثل جدود ابى . اما عمتى فكانت تقول أن « الضب » جـــاءني من جدود امى .

واشترت لى خالتي علبة بودرة بيضاء أخفى بها بشرتى السمراء . وعمتى كانت تنصحنى بالا أفتح فمى وانا اضحك . اما القامة الطويلة فلم يكن لها من علاج الا ان اسير بظهر محنى .

وشددت عضلات ظهرى وعنقى حتى ارتطمت راسى بسقف الطائرة المنخفض . وغسلت وجهى بماء الكولونيا لافتح مسام البشرة واطهرها من آثار المساحيق .

وفى كل مرة ارفع راسى نحو المرآة فى الطائرة ارى وجهى اجمل . وفى كل رحلة خارج الوطـن كنت اندهش .

وجهى دائما يبدو أجمل فى مرايا الطائرات عنه فى المرايا فى بيتى أو أى مرايا أخرى فى الوطن . ولم اعرف ، هل كانت ملامحى تتغير بمجرد اختراق الحدود ، أم أن أنواع المرايا فى الطائرات كان أجود ؟

***

بعد باريس حملتنى الطائرة الى لندن . ثم ركبت القطار الى بانجيور فى مقاطعة ويلز . ومن هناك ركبت الباخرة الى دبلن عاصمة ايرلندة .

واصبحت أنتقل من بلد الى بلد بسهولة أكثر . وكلما اتجهت نحو الشمال وهنت الشمس وتكاثفت السحب واشتدت برودة الهواء ثم هطلت الامطار كالسيل . والسحب بعد المطر تتباعد قليلا ، وتظهر الشمس مرة أخرى ، لكنها ليست كالشمس فى مصر .

وكنت أظن أن الشمس لا تشرق الا فى مصر . لكن السفر فى البلاد جعلنى أرى شموسا مختلفة عن الشمس عندنا . فالشمس كنت أراها ساطعة دائما فى الصيف والشتاء ، وفى الربيع والخريف . ضوؤها لا يكاد يتغير طول العام . ضوء ساطع قوى يجعل الاشياء تحت عينى مسطحة أو ذات سطح واحد . كالارض المستوية بلا ارتفاع وبلا عمق . مساحات أفقية ممدودة كالصحراء الساطعة . وشدة السطوع تجعل الاشياء بيضاء أو سوداء وتختفى الالوان الاخرى والظلال .

لكن الارض هنا لها ارتفاعات وانخفاضات . استدارات غريبة . منحنيات عميقة . والجبال تلقى الظلال المتعددة على الارض والانهر والتلال الخضراء . والمطر ينهمر من السماء كقطع صغيرة من الثلج الابيض الشفاف يعكس

الاضواء كمثلثات من البللور الدقيقة أو شظايا المرايا متعددة الزوايا . وأشعة الشمس سريعة التغير ، وألوان السماء تتبدل فى اللحظة الواحدة مابين الرمادى والارجوانى مرورا بألوان الطيف السبعة . والغابات كثيفة الخضرة ، واللون الاخضر له كثافة ترى بالعين كطبقات متراكمة متعددة الالوان داخل اللون الاخضر الواحد . والهواء أيضا سريع التغير مابين برودة الشتاء القارص ودفء الربيع الناعم فى اللحظة الواحدة . وحركة السحب واتجاه الريح ورائحة الهواء ولون السماء والارض كلها فى تغير دائم ، والدنيا تبدو متعددة الأبعاد وكأنها ليست دنيا واحدة .

عيناى تدوران حولى ، أو ربما أدور حول نفسى ، ولا اعرف هل أنا أدور أم الدنيا هى التى تدور .

عيناى لم تتعودا بعد على كل هذه الابعاد المتعددة للشىء الواحد . كنت أرى الشىء واضحا ، والدنيا مكشوفة امامى فى خط مستقيم أرى بدايتها ونهايتها فى آن واحد .

وعلى احدى تلال ويلز الخضراء رأيت فوق العشب رجلا عجوزا راقدا يرتدى سترة صوفية قديمة وفى الاكمام ثقوب . وسمعت الشباب يقولون انه السير برتراند راسل . واتسعت عيناى بدهشة . كنت أرى المشهورين فى بلادنا يرتدون ملابس ذات قماش جديد يلمع تحت الضوء الساطع . ليس فى أكمامهم ثقوب ولا يرقدون على الارض .

وفي احد شوارع بانجور رأيت امرأة داخل سيارة ترتدي حلة خضراء والى جوارها رجل . وسمعت أحد المارة يقول : انها الملكة اليزابيث . ورأيت بعض المارة يقفون وينظرون نحوها . لا تصفيق ولا هتاف . ثم واصلوا السير . ومرت سيارة الملكة بهدوء ، ومن خلفها سيارة اخرى . وانتهى الموكب دون أن يتغير شيء في الدنيا .

لا صفارات ولا سيارات بوليس تزأر لتخلي الشوارع من الناس . لا موتسيكلات تجري وتعوي كالضبابر المجنونة وتمنع المرور . لا طوابير العساكر الممدودة بطول الشارع ووجوههم للجدار رافعين بنادقهم . لا حشود بشرية تعبأ في العربات اللوري لتفرغ فوق الأرصفة حناجر تدوي بالتصفيق والهتاف .

حركت رأسي من حولي باندهاش . مر الموكب دون أن يتغير شيء في الدنيا . أهي دنيا غير الدنيا ؟ أم أن دنيانا هي التي غير الدنيا ؟

واكتشفت أن الدنيا في بلاد العالم يمكن أن تختلف عن دنيانا . وطبائع الناس ايضا تختلف . لكن هذا الاكتشاف لم يساعدني على رؤية الاوطان الاخرى وسكانها لاول مرة فحسب ، ولكني رأيت وطني والناس في الوطن لاول مرة ايضا .

وبدأت أدرك أن السفر خارج الوطن ضروري ، ليس فقط لاعرف البلاد الاخرى واهلها ، وانما لاعرف من انا ومن نحن ؟ فان معرفة النفس لا تتحقق الا في ضوء معرفة الآخرين .

واصبحت كلما أسافر ثم أعود الى الوطن ترتطم عيناى أول ما ترتطم بتلك الصورة الضخمة فوق الجدران . وعلى أقواس النصر فى الميادين ، وفوق أعمدة النور فى الشوارع . داخل اطارها المذهب . تحوطها الاعلام ولمبات كهربية . تطارد الانسان منا أينما ذهب . تطل عليه من فوق مكتبه . ومن فوق مائدة الاكل فى أى مطعم . ومن فوق فنجان القهوة فى أى مقهى . ومن فوق سريره وهو نائم الى جوار زوجته : صورة حاكم مصر .

النصف الآخر من الأرض

ورثت عن أبي كراهيته لحاكم مصر والانجليز . ولم اكن أنجذب الا لرجل مثل أبي . وفي كلية الطب كان أول حب لرجل قرر أن يطرد الانجليز من مصر . لكنه لم يطرد الانجليز ، وطاردته الحكومة حتى مات في السجن .

واصبح للسجن في ذهني علاقة بالحب . وكلما اسمع عن رجل مسجون أو دخل السجن يوما احس الخفقات تحت ضلوعي .

حين عدت من السفر وجدت التراب فوق مكتبي . ومن فوق الجدار صورة الحاكم الضخمة داخل اطار ذهبي . واصبح قلبي ثقيل . ولا ادخل مكتبي الا واشعر بالغربة .

وفي ربيع عام ١٩٦٤ التقينا . انا وهو وحدنا . وسألته من اين جاء ، قال من السجن . وضحكنا ، وملأنا صدورنا بهواء المقطم وذرات الغبار . وتزوجنا دون أن اشترى ملابس جديدة واشترينا ثوبا جديدا لطفلتي ارتدته في يوم العيد ، وعدنا الى البيت نحمل كعكة كبيرة .

وفي سكون الليل وضعت رأسي على صدره وانهيت غربتي . لكن الصفارات في الشارع ظلت تنطلق من عربات البوليس ، ورجال بالهراوات يطاردون التلاميذ . وعساكر واقفون على كل شبر من الشارع كالاعمدة

الخشبية . ظهورهم للناس ووجوههم للحائط .

كنا نسير فى الشارع متعانقين ، والعيون ترمقنا بكراهية . علامات الحب بين الناس مكروهة . ولا ينامون الا فى بحر من الشك . وفى ليلة مقمرة اوقفنا السيارة بجوار النيل ،وجلسنا نرقب ضوء القمر وذراعه تحوطنى وفجاة راينا الرجل البوليسى يقتحم السيارة . وقلنا له اننا زوجان . ولم يصدقنا . علامات الحب بين الزوجين غير معروفة . ولابد أن يعيش الزوجان فى بحر من الكراهية . ولم يطمئن الرجل البوليسى حتى راى قسيمة الزواج بتوقيع المأذون ، والشهود .

***

كان صامتا ، ثلاثة عشر عاما فى السجن . بشرته ملوحة بشمس الواحات فى الصحراء الغربية . وجهه نحيل وعيناه مرفوعتان بكبرياء طبيعى ، سوداوان واسعتان ، تتسعان لحزن العالم ، واصرار التحدى ، وعدم اليأس . الرجال من حوله يثرثرون وهو صامت . يتناثر رذاذ لعابهم فى الجو مع كلماتهم الثورية . يلوحون بقبضة اليد فى الهواء ويضربون بها على المنصة وهو صامت . يرمقونه بطرف عين فى وجل . صمته يؤلمهم كوخز الابر . وجوده على ظهر الدنيا يضايقهم ، يكشف عن زيفهم .

حاولوا ازالته من الوجود . لكنه نوع من البشر يظل موجودا رغم كل شيء ، كالظواهر الطبيعية .

وانا أحب الطبيعة وظواهرها . بينى وبين المصنوع عداء . نشأت بين الخضرة ، والزرع يكبر تحت الشمس ، والماء يتدفق فى النهر ، واتطلع نحو الطيور فى السماء واتمنى أن ينمو لى جناحان طبيعيان .

الجناحان أمام عيني . مصنوعان من الفولاذ وليسا طبيعيين . وأنا أحلق فى السماء . قلبى ثقيل . لم يعد للسفر البهجة القديمة . تركت فى الوطن ابنتى وزوجى واخذت معى ابنى الذى لم يولد بعد .

من تحت حزام المقعد أحس حركته ، يدق بيده الصغيرة جدار بطنى . ألف الغطاء الصوفى من حولى لادفئه .

من تحتى الصحراء الشاسعة الصفراء يتوسطها نهر النيل ، والشاطئان الرفيعان كالشريطين السوداوين بامتداد الفرعين ، وبينهما الارض على شكل مثلث أسود .

اسندت رأسى الى ظهر المقعد واغمضت عينى . الوجهان يطلان من وراء الزجاج . يلوحان لى من الشرفة البعيدة ثم يذوبان فى الجو كأنما اختطفتهما يد خرافية غير مرئية . السحب كثيفة وأنا بين السماء والارض ، داخل صندوق حديدى مغلق ، ينطلق نحو عالم مجهول .

اطرافى باردة مثلجة . كمن القت بنفسها فى مياه المحيط دون أن تعرف السباحة .

مرت مضيفة الطائرة بالشاى والقهوة . نكهة الشاى انعشت صدرى ، والسخونة بدأت تسرى فى اطرافى ، وخيالى بدأ يصحو كالمارد النائم ، وامريكا الشمالية تبدو لى مغامرة جديدة ، كالارض البكر وكأنما لم يكتشفها انسان من قبلى ، ولا حتى كريستوف كولومباس .

***

الساعة فى يدى تشير الى العاشرة صباحا . الشمس تلمع فى الافق ومن تحتها بساط أبيض متمسرج من

السحب . أشبه بالتلال الصغيرة من القطن المندوف الابيض .

اجتازت الطائرة الساحل واصبحنا فوق البحر . أغمضت عينى ونمت . بالامس نمت نوما متقطعا كنت اصحو فجأة وانظر في الساعة وقد تصورت أن الطائرة اقلعت بدونى . زوجى الى جوارى نائم . أتأمل ملامحه وهو مغمض العينين . أنفاسه هادئة بلا شخير ، وبلا شارب أسود فوق الشفة العليا . يفتح عينيه ويبتسم : لازال الوقت مبكرا .

واقول : أخشى أن تفوتنى الطائرة .

ويحوطنى بذراعيه هامسا : واذا فاتتك لن يحدث شيء . هناك طائرات أخرى .

لكنى أتصور انه لو فاتتنى هذه الطائرة فلن تكون هناك طائرات أخرى .

فى الغرفة المجاورة ابنتى . فتحت عينيها وابتسمت ثم نامت مرة أخرى .

حملقت فى السماء والسحب . عيناى شاردتان وخلايا عقلى عاجزة عن ادراك الحقيقة . الطائرة تجتاز الارض وراء الارض والبحر وراء البحر وانا لا أحس شيئا . الارض تدور ولا أحس دورانها . أو أننى أدور حول الارض ، والارض لا تحس بى .

منذ ولدت وانا أحاول أن تكون حركتى فوق الارض محسوسة . لا يمكن أن أعيش وأموت ولا يدرى بى أحد لكنى اكتشفت أن ملايين مثلى يتحركون فوق الارض والارض لا تبالى . والسماء أيضا لا تبالى .

جناح الطائرة من خلال الزجاج فولاذى ضخم . يشق السحاب كسكين ، فى نهايته لمبة حمراء تومض كنجم

يظهر ويختفى ثم يظهر . كيانى داخل الطائرة هزيل . خطأ صغير فى ذلك الجناح قادر على اهـــلاكى . كيف اكتشفت الطائرة ؟ لاح لى وجه أبى يحكى قصة رجل عربى أراد أن يقلد الطيور ، فصنع لنفسه جناحين مىن الريش ، واستطاع أن يطير ، لكنه سرعان ما سقط على الارض . واكتشف أنه نسى أن يصنع لنفســه ذيلا من الريش .

حسدت الطيور وأنا طفلة ، لانها تحلق فى السماء ، اما انا فما أن أقفز فى الجو حتي تشدنى الارض .

مياه المحيط لا تزال تحت السحب . الساعة فى يدى تشير الى الثامنة . الشمس غربت منذ أكثر من ســاعة فى الوطن ولابد أن الدنيا أصبحت ليلا .

لكنى أرى قرص الشمس فى وسط السماء . الصوت يعلن أننا سنهبط فى مطار نيويورك بعد دقائق وأن الساعة الواحدة بعد الظهر .

التفت اصابعى حول مسمار الساعة لاحرك العقارب الى الوراء سبع ساعات . هل درت حـــول الارض واصبحت الآن فوق النصف الاخر من الكرة الارضية ؟!

***

فى كل رحلة جديدة يشتعل خيالى ، وتتأجج رغبة الاكتشاف ، ولكن حين أطأ بقدمى على الارض الجديدة تنطفىء الجذوة وتتبدد النشوة . هل كنت أتوقع أرضا غير الارض ؟ أو ناسا غير الناس ؟

قدماى تدبان على الارض ، واختبر بكعب حــذائى صلابتها . ملمسها تحت قدمى كالنصــف الاول مـــن الكرة الارضية . والهواء ساخن رطب يشبه هواء مصر فى الصيف .

عيناي تدوران حولى ، تفتشان بين وجوه الناس عن وجه غريب لونه احمر وعلى راسه الريش . أكنت ابحث عن الهنود الحمر ؟!

مطار نيويورك ضخم يشبه مطار باريس واكثر ضخامة زحام وناس من مختلف الاشكال والالوان . بيض وسود وسمر ومن ذوى الملامح اليابانية والصينية . امـــــرأة سوداء سمينة الردفين ترتدى قبعة عليها ريشة حمراء ، وحذاء احمر لامع تطرقع على الارض بخطوات بطيئة . الى جوارها فتاة بيضاء طويلة نحيفة بلا ردفين داخـل بنطلون ضيق اخضر وحذاء كاوتش تجرى وشعرها الاصفر يتطاير . رجل أبيض جالس على مقعد يشرب من علبة كوكاكولا حمراء شعره أصفر منكوش يرتدى قميصـــا رسمت عليه قطط زرقاء وصفراء . ياقة القميص مثبتة بزراير صغيرة من الامام . وجلان قصيران سمينـــان ملامحهما يابانية يجريان وكل منهما يمسك فى يده حقيبة جلدية سوداء . طفلة سوداء تجرى وترفع ذراعها الى اعلى وفى يدها كوب كرتون ملىء بالايس كريم . رجل صينى يهرش فى راسه وسرواله واسع طـويل يلامس الارض . جريت مع الناس الى باب طائرة الهيلوكبتر . دارت محركات الطائرة بسرعة وارتفعت فى الجو دون أن يغلق الباب . عمارات نيويورك الشاهقة تلامس السحاب وبينها عدد من البحيرات والانهر . الطائرة تســـير بين قمم العمارات وفى كل اهتزازة أمسك فى المقعد امامى . الركاب الآخرون جالسون فى مقاعدهم يقرءون الصحف وكأنهم فى الاتوبيس .

هبطت الهليوكبتر بعد دقائق وسمعت صوت فرامل عجلاتها ثم توقفت فجاة واندفع الناس من الباب .

اندفعت معهم ، واتجهت نحو طائرة متجهة الى الجنوب . اربع ساعات من التحليق ثم سمعت صوت المضيفة يعلن اننا سنهبط في « رالي » . الهواء راكد ساخن ، واشد سخونة من هواء القاهرة في اغسطس . والرطوبة مرتفعة . العرق احسه تحت ملابسي وشعري التصق براسي . كفاي مبللان والحقيبة تنزلق من يدي . اسرعت الى أقرب تاكسي وقلت له : الى المدينة الجامعية . السائق ابيض البشرة ، يتكلم الانجليزية بطريقة غريبة لا افهمها . ينطق نصف الكلمات فقط ، ويبتلع النصف الثاني . لا يفتح فمه وهو يتكلم ، وكأن الحروف تخرج من انفه .

وسالني : من اي بلد انت ؟

وقلت : من مصر .

وصاح بدهشة : اوهوه !

ثم سألني : وماذا تعملين ؟

قلت : طبيبة .

صاح بدهشة : اوهوه ! هل في مصر اطباء ؟

وقلت : طبعا مثل الاطباء عندكم .

وقال : الاطباء عندنا اغنياء جدا . لابد انك غنية .

ورأيته يرمقني بنظرات فاحصة في المرآة أمامه . عيناه زرقاوان ضيقتان وعلى رأسه قبعة صغيرة من القماش وله أنف طويل مدبب مخيف ، وخيل الي أنه سيأخذني الى مكان بعيد ويستولى على ماممعى . لم يكن معى الا حقيبة واحدة ، وثلاثون دولار . وقلت : انا طبيبة ولكني فقيرة .

وصاح بدهشة : كم تكسبين فى العام ؟

ولم اكن حسبت من قبل دخلى في العام . كنت قد

أغلقت عيادتي من سنوات ، واتقاضى من الحكومة في ذلك الوقت أربعين جنيها في الشهر .
وقلت : أقل من خمسمائة جنيه مصري في السنة .
وصاح بدهشة : اوه ! هذا قليل جدا . هنا يكسب الطبيب ثلاثين الف دولار في السنة على الاقل .
ورددت بدهشة : ثلاثين الفا ؟!
وقال : على الاقل . بعضهم يصل الى ضعف هذا واكثر .
وسألته : وانت ؟ كم هو دخلك في الشهر ؟
ومصمص شفتيه : انا ؟ مهما أشتغلت ليل نهار لا اصل الى خمسة آلاف أو ستة آلاف .
وقلت بدهشة : أوهوه ! انت غني جدا .
وقال : ستة آلاف في السنة لا شيء ، وأنا من الفقراء هنا .
وقلت : فقراء ؟ هل في امريكا فقراء ؟
وضحك واهتزت القبعة فوق راسه . واصبع طويل ابيض يكسوه شعر كثيف اصفر أشار الى السوت والشوارع وقال : هذه المدينة كلها يملكها اربعة أشخاص ، من أصحاب الملايين . وفي البيوت الفقيرة نعيش نحن ، وعندي اربعة اولاد وزوجة .
قلت : وزوجتك الا تعمل ؟
وقال : ماذا تعمل ؟ ومن يرعى الاولاد ؟ وعندي ولد مريض بالدرن الرئوي . انه يرقد في مصحة جراقلي ، في الطرف الآخر من « رالى » .
وتذكرت مستشفى الصدر وطابور المرضى . شددت الزجاج الى تحت لافتح نافذة السيارة . لا هواء وصدري مختنق ببخار الماء . الى جواري حقيبة ملابسي ، تتدلى

ورقة نصفها أخضر ، عليها حروف بالانجليزية ، «رالى».
ماهى « رالى » ، وهل أنا فى أمريكا ؟ وما الذى يمكن أن أصفه من غرائب الدنيا حين أعود الى اهـــلى فى الوطن ؟

***

غرفتى بالمدينة الجامعية شديدة الحرارة . والوقت يمر ببطء . أهبط الى الدور السفلى حيث التلفزيون . جونسون يتكلم عن السلام وعن فيتنام . طالبة امريـكية جالسة الى جوارى تبصق على الشاشة وتصيح : كاذب! تختفى صورة جونسون فجأة قبل أن يكمل كلامه وتظهر امرأة نصف عارية ترقص وتغمز بعينها وتشرب مـــن زجاجة كازوزة اسمها « غمزة عين » . تتراقص وتمط شفتيها وتقبل فوهة الزجاجة ثم تغنى « اشربوا غمزة عين » وتختفى المرأة ويعود جونسون الى الظهور يسكمل حديثه عن السلام . مدت الطالبة قدميها فى وجـــه جونسون وهتفت : تتحدث عن السلام ثم ترسل جنودك بالاسلحة الى فيتنام !

ونظرت الى وقالت : من أى بلد ؟

قلت : من مصر .

هتفت بدهشة : أوهوه !

اسمها مارى وترتدى شورتا أبيض قصير ، وحذاء كاوتش ازرق . طويلة ونحيفة وشعرها أصـــفر طـويل ينسدل على كتفيها . عيناها خضراوان فيهما بريق . وفى نهاية الاسبوع أخذتنى الى أسرتها فى « شابل هيل » على بعد خمسين ميلا من « والى » . قادت سيارتها الطويلة الضخمة بين الشوارع الملتوية داخل غابة كثيفة الخضرة ، عالية الاشجار . البيوت متناثرة فى الخضرة . توقفنـــا

امام بيت صغير ابيض تحوطه حديقة واسعة . أمها تزرع الزهور ، وأبوها فوق سقالة يدهن النوافذ بالطلاء . ارتدت « المايوه » وقالت هيا بنا الى حمام السباحة فى النادى . قادت السيارة وهى ترتدى المايوه .

فى دورة المياه فى النادى بابان . كتب على احدهما للبيض ، وكتب على الآخر : للملونين . وتوقفت أمام المرآة أدقق النظر فى لون بشرتى ، ولم اعرف ايهما ادخل . ثم دخلت من باب الملونين .

عادت مارى الى دون أن تسبح وقالت بغضب : تصورى ! حمام السباحة مغلق للتطهير لان اثنان من الزنوج نزلا فيه بالامس . هذه الولاية عنصرية ! وبصقت على الارض .

وفى الليل دعتنى هى وصديقها ديفيد للرقص . القاعة صغيرة مزدحمة بالشباب ، والدخان ورائحة البيرة والموسيقى الراقصة . الرءوس كلها شعرها طويل والاجسام داخل السراويل الضيقة نحيفة طويلةوالحركات منطلقة حرة ولا أكاد افرق بين الولد والبنت .

دعانى ديفيد الرقص لكنى فضلت الجلوس وشرب البيرة . ورقص ديفيد مع مارى ، وعيناى تتابعان حركاتهما الراقصة . سرت الى عدوى الرقص مع سريان البيرة فى عروقى ، ووجدتنى أحرك ذراعى ورأسى وأنا جالسة ، ثم نهضت رقصت مع ديفيد ومارى ، وشباب آخرين انضموا الينا ، وبدانا نغنى معا ونضرب الارض باقدامنا بقوة ايقاع اللحن .

منذ الطفولة وانا أحب الرقص بحركات قوية . ترمقنى العيون بنظرات استنكار . عضلات البنت لابد أن تكون ضعيفة ، وحركاتها فى الرقص رقيقة وديعة . لكن رقص

البنات لم يكن يحركنى . حركات بطيئة ، وعضـــلان مرتخية ، ورجرجة الشحم فوق البطن والردفين . وذلك اللحن البطيء المليء بالنواح والبكاء .

تركت حلبة الرقص وجلست شاردة . احساس مفاجيء بالحزن . واقبلت نحوى مارى وجلست الى جوارى ، وتساءلت بدهشة : ماذا حدث ؟

وقلت : الشباب عندنا وخاصة البنات ليست عندهن هذه الحرية .

وزمت شفتيها ثم قالت : ونحن ايضا ليس عندنا حرية ، فانا احب ديفيد لكن أبى وأمى لا يحبانه لانه اسود .

وقلت : وماذا ستفعلين ؟

قالت : سنتزوج ونسافر الى بلد آخر . اريد لاطفالى أن يعيشوا في مجتمع اكثر حرية .

***

المسئولة عن الادارة فى الجامعة امرأة عجوز . عيناها زرقاوان غائرتان تحت نظارة بيضاء ، لها سلسلة ذهبية تعلقها فى أذنيها ، نظراتها من تحت العدستين البيضاوين فاحصة ، حادة . أحسها فوق وجهى كاللسعات . تدقق النظر الى لون بشرتى السمراء كأنما تقيس درجـــه السمرة ، ودرجة ارتفاع الانف . والصدر والبطن .

وقلت لها : لون بشرتى ومقـايس جسمى مسـألة شخصية .

وفغرت فاها واهتزت النظارة وسقطت فوق انفها ، فأمسكتها بيديها ، وصاحت بدهشة :

ماذا قلت ؟

وتركتها تنظر الى بملء عينيها ، ثم وضعت الاستمارة

تحت نظارتها وقلت : انظرى ، هذه هى خانة الاسم ، واسم الاب ، والجد ، والعنوان ، والجنسية ، وتاريخ الميلاد ، والحالة الاجتماعية ، والديانة ، ولون البشرة والعينان ، والطول ، والشهادات العلمية السابقة ، وشهادة حسن السير والسلوك ، وعدم وجود سوابق او جرائم سياسية او دخول السجن فى اى مرحلة من العمر ، وعدد الجوائز التى تم الحصول عليها ، والخلو من العاهات .

كانت الاستمارة كاملة البيانات ، وأمام كل خانة كتبت المعلومات المطلوبة بدقة وعناية . مثلا أمام خانة الطول دونت ١٧١ر٥ سنتيمتر بعد أن وقفت أمام الحائط . ووضعت علامة بالقلم عند قمة راسى ، ثم قست المسافة بين هذه العلامة والارض وهى طول قامتى بالضبط . وامام خانة السوابق والجرائم ، كتبت لا شىء ، ولم اكن دخلت السجن بعد . وأمام الديانة كتبت مثل ديانة ابى . وامام لون العينين كتبت « سوداوان » ثم أضفت كلمة « لامعتان » من أجل الدقة . ومن أجل الدقة أيضا كتبت امام الخلو من العاهات : توجد حسنة سوداء فى مؤخرة العنق .

ومع كل ذلك ظلت المسئولة عن ادارة الجامعة تنقل عينيها من راسى الى قدمى ثم قالت بصوت أخنف : ولكنك لم تدونى فى الاستمارة انك حامل .

وبحثت بعينى عن خانة خاصة بالحمل فلم أجد ، وقلت لها : ولكن لا يوجد بالاستمارة ... وقاطعتنى قائلة : وهل يمكن لجامعة محترمة أن تخصص فى استماراتها خانة لمثل هذه الاشياء ؟ وقلت بغضب:مثل هذه الاشياء؟

ماذا تعنين بمثل الاشياء ؟ هل الحمل عيبا ؟ ثم اننى حامل بطريقة شرعية !

واخرجت من حقيبتى بسرعة قسيمة الزواج ، بتوقيع المأذون والشهود . واتسعت عيناها الفائرتان الزرقاوان بذهول وهى تحملق فى الحروف العربية التى بدت لها كاللغة الهيروغليفية أو الصينية ، وتوقيع المأذون على شكل شخبطة بالقلم .

وتساءلت بدهشة : اى لغة هذى ؟

وقلت : اللغة العربية .

وصاحت بريبة : أنت مصرية أم عربية ؟

وقلت : أصبح المصريون عربا منذ الفتح العربى لمصر عام ٦٤٠ م على يد عمرو بن العاص !

***

وجدتنى وحقيبتى داخل الاتوبيس الضخم المتجه شمالا . تراجعت بيوت « رالى » وشوارعها الى الوراء ، واصبحت ولاية نورث كارولينا وجامعاتها خلف ظهرى. فتحت زجاج النافذة وملأت صدرى بالهواء المنعش القادم من ولايات الشمال . واحسست كالسجين الذى يطلق سراحه ، أو المختنق الذى يخرج من بطن الارض الى سطح الدنيا .

ليلة الامس قررت السفر الى نيويورك . هل يمكن ان آتى الى امريكا ، فلا ارى منها الا تلك الولاية العنصرية فى الجنوب ؟ .

لكنى فى الصباح سمعت من أحد الطلبة العرب أن مؤتمرا هاما سيعقد فى جامعة الينوى ، ووجدتنى داخل الاتوبيس المتجه الى شيكاجو .

***

وقفت وسط سبعمائة طالب وطالبة ننشد بصــوت واحد باللغة العربية :

نحن الشباب لنا الغد
ومجده المخلد
شعارنا على الزمن
عاش الوطن عاش الوطن
بعنا له يوم المحــن
ارواحنا بلا ثمــن .

على المنصة الرئيسية كان يجلس ممثلو البلاد العربية ، وحاكم ولاية الينوى ، وعميــد الجامعه ، وممثـــلو الاتحادات الطلابية الامريكية والعربية . وكـــان رئيس منظمة الطلبة العرب طالب مصرى اسمه أسامة الباز ، وعدد الطلبة العرب فى الولايات المتحدة حينئذ كـــان سبعة آلاف طالب وطالبة . وكان الدكتور فايز الصايغ احد المحاضرين فى المؤتمر ، هو فلسطينى درس فى أمريكا الفلسفة ، وتولى دائرة الابحاث الفلسطينية فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٥٥ . ثم عين أستاذا لشئـــون الشرق الاوسط بالجامعة الامريكية فى بيروت فى عام ١٩٥٨ . وكلفته منظمة التحرير الفلسطينية بتأسيس مركـــز للأبحاث الفلسطينية فى بيروت . قرأت بعض مؤلفــاته عن الاستعمار الصهيونى فى فلسطين ، والحياد وعــدم الانحياز ، وفلسفة الاشتراكية عند جمال عبــد الناصر وضباب البورقيبة . طرد أكثر من مرة من الجامعــات الامريكية ، الصهيونيون كانوا يحاربونه ويحاولون اقناع المسئولين بطرده بحجة أنه يستغل منبر التدريس للقضية الفلسطينية .

وفى احدى القاعات كان الدكتور عزت طنوس يشرح لبعض الطلبة العرب مشكلة تحويل مجرى نهر الاردن . هو طبيب فلسطيني تخصص فى طب الاطفال عام ١٩٢٠ بعد الاحتلال الصهيوني الفلسطيني سافر الى لندن وأنشأ المركز العربى فى لندن . وغادر لندن عام ١٩٤٠ الى القدس ، وعين أمينا لبيت المال فى الحـــركة الوطنيـــة الفلسطينية بالقدس وفى عام ١٩٦٥ أصبح مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى نيويورك .

ومن الشخصيات العربية الاخرى فى المؤتمر سعادات حسن ، والدكتور محمد المهدى الذى تحدث عن دور البترول فى القضية العربية ، والدكتور برهان حمساد وتكلم عن الخليج العربى ، والدكتور رشاد مراد وكـان رئيسا للوفد الدائم للجامعة العربية لدى الامم المتحدة فى نيويورك .

ومن الرجال الامريكيين المهتمين بقضايا البلاد العربية، « هارولد ماينور » ، المشرف على جمعية أصدقاء الشرق الاوسط فى أمريكا .

وقد عمل قنصلا لامريكا فى القدس ثلاثين عاما . وفى عام ١٩٥٣ أصبح سفيراً لامريكا فى بيروت . لـكنه استقال من منصبه وتفرغ لقضايا العرب فى الجامعات الامريكية .

وكان « هارولد ماينور » هو أول أمريكى اسمعه يتكلم ضد الصهيونية وضد سياسة جونسون . ورنت كلماته فى اذنى غريبة . فلم تكن أذناى قد تعودتا بعد مثـــل هذه العبارات المعارضة لاعلى سلطة فى الدولة . ولم اكن سمعت فى بلادنا رجلا يخطب بصوت عال ضـــد الحكم القائم .

ومددت ساقى فى استرخاء وانا جالسة فى مقعدى ، واحساس بالحرية يسري دافئا فى كيانى كحركة الدم .
هل يمكن أن يكون فى بلادنا شيء اسمه المعارضة ؟!
وصعد على المنصة شاب امريكى طويل نحيل اسمه « جاك شرير » . ممثل اتحاد الطلبة الامريكيين . امسك الميكروفون وأعلن بلغة غربية فصحى أن اتحاد طلاب أمريكا أصدر قرارا يؤيد عودة الفلسطينيين الى وطنهم وتعويضهم عن الخسارات التى لحقت بهم . وهاجم « جاك شرير » سياسة جونسون فى الشرق الاوسط وفى فيتنام ، ووصفها بأنها سياسة فاسدة .
وهبط من فوق المنصة وعيناى تتبعانه حتى جلس فى مقعده . تصورت ان رجال البوليس سوف يحوطونه ويقودونه الى السجن .
وكان أحد الطلبة الامريكيين يجلس الى جوارى ، وسمعنى وانا أقول : لم يأخذه أحد الى السجن .
وقال : لا يذهب الى السجن هنا الا من يمثل خطرا على النظام ، وهذه الخطب والمؤتمرات لا تمثل اى خطورة .
وقلت : عندكم مساجين سياسيين ؟
وقال : كثيرون ، وفى ابريل الماضى مات فى السجن « البيزو كاموز » المناضل البورت ريكى وقد قضى فى السجن ثلاثين عاما .
وتبدد الاسترخاء الطارىء ، وعادت عضلات جسمى مشدودة . وغادرت قاعة الخطب الى قاعة أخرى علقت على جدرانها لوحات الفنانين الفلسطينيين عيسى عبد المجيد ، واسماعيل شموط . مأساة الشعب الفلسطيني تتجسد فى الخطوط . أم تقف فى العراء أمام خيمة

سوداء تضم الى صدرها طفلا وليدا . شيخ عجوز يتكور فوق الارض وطفل وحيد يتامل الطريق الخاوى بعينين خائفتين . شاب يحمل السلاح وعيونه نحو الوطن المسلوب .

انتهت ايام المؤتمر الستة باعلان القرارات وانتخاب الاعضاء السبعة الجدد لمجلس ادارة منظمة الطلبة العرب ورئيسها الجديد .

وخلف أسامة الباز في رئاسة المنظمة طالب مصري آخر اسمه سعد الدين ابراهيم ، وفى نهاية المؤتمر وزعت علينا ورقة مطبوعة عليها القرارات وضعتها فى حقيبتى .

وبينما انا أخرج من الباب رأيت صفوفا من الرجال العجائز الامريكيين يدخلون الى القاعة ذاتها ، يرتدون ملابس عسكرية تشبه ملابس الجنود فى القرن التاسع عشر وعلى رءوسهم قبعات سوداء محلاة بريش النعام الابيض وعلمت انهم فى طريقهم لحضور المؤتمر رقم ١٠٩ للمحاربين القدامى فى ولاية الينوى .

وفى مقعدى داخل الاتوبيس المتجه نحو الساحل الشرقى لامريكا فتحت حقيبتى وبدأت أقرأ الورقة التى وزعت علينا : أصدر المؤتمر الرابع عشر لمنظمة الطلبة العرب فى امريكا عدة قرارات خاصة بمختلف القضايا العربية أوصى فيها بدعم منظمة تحرير فلسطين ماليا وأدبيا ومساعدتها على بناء جيش التحرير الفلسطينى ... ومساندة مقررات مؤتمرات القمة العربية وتأييد اتفاقية جدة ووضع خطة موحدة لاستخدام البترول العربى فى خدمة القضايا العربية . واعلن المؤتمر تأييده للنضال الثورى المسلح لتحرير الجنوب المحتل والمطالبة بتكوين

جبهة موحدة من القوى التقدمية العربية لمواجهة المخططات الاستعمارية وتحرير الخليج العربى وعمان ولتنمية هذه المنطقة اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا عن طريق صندوق التنمية العربى . ومطالبة حكومة الكويت بمنع تسلل غير العرب الى هذه المنطقة . ووجه المؤتمر نداء الى الحكومات والحركات التقدمية العربية لمؤازرة جبهة تحرير عربستان ، وتأييد حكومة السودان للوصول الى حل لمشكلة الجنوب يصون وحدة السودان ويحبط المؤامرة الانفصالية الاستعمارية ضده ، كما أوصى المؤتمر بزيادة النشاط الاعلامى للطلبة العرب فى أمريكا وكندا وخاصة فى مواجهة تطورات السياسة الامريكية نحو الشرق الاوسط .

لا زلت أحتفظ بهذه الورقة فى مكتبى رغم مرور عشرين عاما على صدور هذه القرارات ، لكنها تبدو وكأنها صدرت بالامس .

***

فى نيويورك قابلت عميد جامعة كولومبيا . كان اسمه الدكتور « تراسل » . قدمت له الاستمارة المملوءة بالبيانات . وأضفت من عندى خانة جديدة خاصة بالحمل ، ودونت أمامها : حامل فى الشهر الرابع .

وابتسم الدكتور تراسل وقال : هذه كلها أمور شخصية والجامعة لا تطلب هذه البيانات .

وقلت : ولكن جامعة نورث كارولينا ...

وقال الدكتور تراسل : لا تظنى أن كل الجامعات فى مريكا بهذه العقلية المتخلفة »

***

عشت فى « مانهاتن » فى قلب نيويورك . مسكانى

المفضل دائما هو فى قلب الاشياء . احس بنبض الحياة في تدفقها . واذا كانت « مانهاتن » هي قلب امريكا النابض فان « رالي » كانت القدم ، أو قاع القدم . وذكراها عندي كالحلم البغيض . كالقرية المشوهة المتوارثة من مري العصور الوسطى رغم الابنية الحديثة ؛ والشوارع المرصوفة شبه المهجورة وردهات الجامعة ذات الكآبة .

لكن هنا في « مانهاتن » كل شيء يتحرك بحيوية . والناس خطواتهم سريعة . وفي حى جرينتش فيللدج يجلس الناس على المقاهى فوق الارصفة كأنها باريس . يأكلون ويشربون ، ويتحدثون . والشباب يجلسون على العشب فى ميدان واشنطن قرب جامعة نيويورك . مجموعة من الشباب تعزف على الجيتار وتغنى وترقص . والناس يلتفون حولها ويغنون .

وتحت الاشجار على الدكك الخشبية جلس بعض العجائز ومن حولهم أطفال يلعبون .

فى الطرف الآخر من الميدان حلقة من الشباب يلتفون حول شاب وقف على شيء عال واخذ يخطب . انه « كى مارتن » . كان يلوح بيديه فى الهواء غاضبا قائلا : « مالكوم أكس » قتلوه فى قلب امريكا كما قتلوا لومومبا فى افريقيا ! لماذا لا نكف أيدينا عن آسيا وافريقيا ؟ الا فلنوقف هذا الخداع ؟ الا فلنوقف هذه الاسلحة المتنكرة داخل علب الطعام والمعونات الامريكية !

واقترب منى شاب صغير ، ناولنى مجلة سوداء كتب عليها بخط ابيض عريض : البارتزان ، مجلة جمعية الشباب ضد الحرب والفاشست . وعلى صفحات المجلة صور لجنود صرعى فى فيتنام ، أشلاء ممزقة تختلط فيها اجساد الامريكيين بالفيتناميين .

وفى جامعة كولومبيا تعرفت على زميلة لى اسمها ماريون ، كانت عضوا في جماعة تنظم المظاهرات ضد الحرب في فيتنام . طويلة نحيفة وشعرها رمادى قصير . عيناها زرقاوان واسعتان لامعتان . وما أن تنتهى المحاضرات حتى تدور على الزملاء والزميلات توزع عليهم المنشورات والصور ضد حرب فيتنام .

وفى عطلة نهاية الاسبوع نذهب معا الى السينما ، أو المسرح ، أو نلعب التنس فى النادى . وفى المظاهرات نرفع اللافتات معا ونهتف مع الشباب : أوقفوا الحرب في فيتنام .

فى احدى المظاهرات رأيت ثلاثة من رجال البوليس يحوطون شابا أسود طويلا . ورأيت ماريون تندفع نحوهم وتحاول انتزاع الشاب منهم وهى تضربهم بقدمها بالشلوت وتجمع الشباب حول رجال البوليس يضربونهم بالاقدام . وانطلقت الصفارات من كل مكان وهجمت علينا السيارات المسلحة ووجدت يد ماريون فى يدى ونحن نجرى لنهرب داخل أحد البيوت ، وصوت الصفارات يدوى مع صوت الهتافات : يسقط جونسون !

ومن وراء الجدار حيث اختبأنا كان قلبى يدق بعنف وصدرى يعلو ويهبط فى أنفاس لاهثة متقطعة ، وتعود الى ذاكرتى صورتى منذ خمسة عشر عاما ، وصدرى يلهث وقلبى يدق ، وأنا مختبئة وراء الجدار وطلقات الرصاص تدوى مع هتافات الطلبة : يسقط الملك !

***

وفى يوم آخر أخذتنى ماريون الى اجتماع كبير تحدث فيه الدكتور « ستوتن ليند » وهو أستاذ أمريكى بجامعة « بيل » سحبوا منه جواز سفره لانه ذهب الى

فيتنام فى رحلة لتقصى الحقائق ، وعاد ينظم المظاهرات ضد الحرب فى فيتنام ، قدمتني له ماريون قائلة : هي زميلة معى في جامعة كولومبيا وطبيبة مصرية . واذكر ان ستوتن ليند قال لى يوما أن مشكلة فلسطين لا تقل خطورة عن مشكلة فيتنام لكن القوى الصهيونية فى أمريكا تمتلك البنوك وأجهزة الاعلام ، وقلت له : ولماذا لا تذهب في رحلة لتقصى الحقائق بالشرق الاوسط كما ذهبت الى فيتنام . وضحك قائلا : حين أسترد من الحكومة جواز سفرى .

***

طرف الخطاب يطل من وراء الزجاج داخل صندوق البريد . اجمل منظر فى أمريكا . اجمل من تمثال الحرية فى عرض المحيط ، وأعظم من الافينيو الخامس تطل عليه ناطحات السحاب ، ومنتزه روكفلر الشهير فى قلب نيويورك حيث النافورات ذات الالوان والزهور والناس من كل العالم ، والموسيقى والرقصات العجيبة فوق قباقيب التزحلق .

طرف الخطاب تلمحه عيناى داخل الصندوق ، وطابع البريد عليه صورة الهرم وكلمة مصر ، وفوق المظروف اسمى بحروف كبيرة مستديرة ، وحركة الاصابع النحيلة حول القلم ، فى غرفة مكتبنا المشتركة فى الشقة الصغيرة فى أول شارع الهرم .

فى رسالة طويلة قال أنه اشترى لمبة مكتب جديدة ، وقرأ بعض كتب لم يقرأها من قبل وأن ابنتنا بصحة جيدة ، وتذهب الى المدرسة كل صباح ، وقبل أن تنام يحكى لها قصة جميلة .

أضع الرسالة تحت وسادتى ، وأفتح عينى بالليل

واعيد قراءتها . وفي الصباح اضعها في الحقيبة مع أوراقي وكتبي . واثناء ساعة الغداء أمضغ الطعام ببطء واقرأ الرسالة .

وفي الليل تحت ضوء اللمبة أجلس في سريري تحت الاغطية واقرأها . وعلى الجدار فوق مكتبي تتدلى نتيجة عام ١٩٦٦ بالايام والشهور . واشطب بالقلم قبل ان انام على اليوم الذي انتهى ، واعد الايام الباقية .

ثم اطفيء النور واضع رأسي على الوسادة . واحس النبض تحت اذني كانه قلبي . وحركة ناعمة تضرب جدران بطني كأذرع دقيقة من القطيفة . ترى متى يرى النور ؟

***

على باب الكلية تقدم نحوي احد الطلبة العرب اسمه « سعدون » ، كان يوزع بيانا مطبوعا . وقال لي : ستكون المظاهرة يوم الخميس القادم ولابد ان تشتركي .

البيان بتوقيع الدكتور محمد مهدي ، الامين العام للجمعية العاملة لاصلاح العلاقات العربية الامريكية وجاء البيان هكذا بالحرف الواحد :

بمناسبة يوم وعد بلفور المشئوم قررت الجمعية العاملة لاصلاح العلاقات العربية ــ الامريكية القيام بمظاهرة سلمية يوم الخميس ٤ـ١١ـ١٩٦٥ من الساعة العاشرة صباحا الى الواحدة بعد الظهر .

يجتمع المتظاهرون في العاشرة صباحا امام بناية الامم المتحدة . وبعدئذ تتحرك « مسيرة السلام » حيث يحمل المتظاهرون اللافتات التي تدعو الى السلام في الشرق الاوسط عن طريق اعادة اليهود الى أوطانهم

الاولى أو فتح ابواب الهجرة لادخال مليون يهـــودي اسرائيلى الى أمريكا الشمالية .

والغاية من هذه المظاهرة فى يوم وعد بلفور هى القول بأن ذلك الوعد المشئوم أدى الى المآسي فى الشـرق الاوسط ونحن نريد ازالة المآسي واحلال السـلام الى تلك الربوع والى البلاد المقدسة .

وستدفع الجمعية مبلغ دولارين في الساعة لكل من يشترك فى المظاهرة ، وهو مبلغ ضئيل ، الغـــاية من تقديمه التعويض عن جزء من الوقت الذى تصرفونه .

لاول مرة فى حياتى اسمع عن مظاهرة مدفوعة الاجر.

فى المظاهرات فى بلادنا كنت أسمع طلقات الرصاص واجساد الطلبة تسقط . والدم يسيل فى الشارع . وفوهات البنادق تطل من سيارات البوليس . وتلاميذ تختطفهم العربات المصفحة وتبتلعهم السجون .

وقلت لنفسى : كم دولار تساوى ثلاثة لترات من الدم يسال على الطريق ؟

وكم دولار يمكن أن تدفع من اجل تلميذ يصـبح شهيدا ؟ وكم يمكن ان يكون ثمن حياتى اذا انطلقـت رصاصة فى جزء من الثانية ؟

وجاء يوم الخميس ولم أذهب . لا أحد يمـكن أن يدفع ثمن جزء من الثانية يساوى حياتى . وحيـاتى كلها ادفعها بطلقة رصاص واحدة نظير كرامتى وكرامة الوطن .

***

فى مستشفى « سلون » المجاور لجامعة كولومبيـا ذهبت لمقابلة الدكتور « تود » فحصنى بدقة ثم قال : اتوقع أن تكون الولادة خلال اسبوع واحد . كنـا فى

واثل ديسمبر ، والثلوج البيضاء بدأت تلمـــع فوق النوافذ والشوارع وابتسم قائلا : انت محظوظة فموعد الولادة يجيء مع اجازة الكريسماس والعام الجديد .

واتفقت ماريون معي على أن نذهب معا لشراء ملابس للطفل القادم من شارع برودواى . وصاحت الزميلات الامريكيات في الجامعة : نحن لا نشترى ملابس الطفل الا بعد أن يولد . ودهشت لماذا . وعرفت أن بعض الخرافات لا تزال تعيش في امريكا . شراء ملابس الطفل قبل ولادته فال سيىء قد يعرضه للموت قبل ان يولد أو اثناء الولادة . لكنى رايت أمي تشترى ملابس الطفل قبل أن يولد ، وقد ولدت تسعة أولاد وبنات دون أن يموت أحدهم .

وجدتى أيضا لم تكن تؤمن بهذه الخرافة .

وقالت لي ماريون : هؤلاء النساء الامريكيات لازلن متخلفات .

وسألتها : وانت ؟ الست امريكية ياماريون ؟

قالت : نعم ، ولكنى حررت نفسي من الخزعبـلات واولها كراهية البشرة السوداء .

وقلت : وثانيها ؟

قالت : تبيض الوجه بالمساحيق .

بسيطة وطبيعية تتدفق الحيوية تنتبه للمحـاضرات العلمية بمثل ماتتحمس للمظاهرات السياسية . بشرتها صافية بلا مساحيق وشعرها حر تتركه للهواء والمطر ونجرى معا في الشارع كالاطفال .

لم أشعر معها بالغربة ، وكأنما ولدنا في بلد واحد ، وعشنا طفولة واحدة . الزميلات الامريكيات الاخريات تفصلني عنهن مسافة كبيرة . وأشعر بينهن بالغربة .

لا يعرفن شيئا عن العالم خارج امريكا . لا فلسطين ولا فيتنام ولا أى بلد آخر فى آسيا او افريقيا . وجوهن مدهونة بالمساحيق ، فوق الجفون ، وعلى الرموش ، والخدود ، ولون فضى غريب يلمع فوق الشفاه ، وفوق الاظافر المدببة الطويلة . كالدمى البيض الملونة . كالجوارى فى عهد هارون الرشيد رغم لكنتهن الامريكية ، وبشرتهن البيضاء وقامتهن الطويلة النحيلة، أسيرات المفهوم العبودى لمعنى الانوثة والجمال . يكشفن عن الشق بين النهدين ويرقصن داخل سراويل ضيقة وعيونهن على الرجل . ينشدن الزواج رغم كل شيء . واذا تزوجن تبخرت طموحاتهن الاخرى ، وانقطعن عن الدراسة أو العمل ، وتفرغن لشئون البيت والاطفال . الى أن يكبر الاطفال ، فتعود اليهن طموحاتهن القديمة ويصبحن تلميذات من جديد وهن فى الخمسين أو الستين من العمر ، وفى ساعة الغداء يجلسن معا ويثرثرن فى أمور الازواج والاولاد .

***

هذه الليلة اذكرها رغم مرور السنين . كانت السبت ٩ ديسمبر ١٩٦٥ . وقد دعتنى ماريون فى الصباح الى متحف جوجنهايم ، ودعوتها فى المساء لرؤية مسرحية مشهد من الجسر لآرثر ميللر .

سرنا على الاقدام حتى تقاطع شارع ٨٨ مع الافينيو الخامس حيث متحف جوجنهايم . وهو متحف حديث افتتح عام ١٩٥٩ . صممه المهندس فرانك رايت على النمط الهندسى العضوى . ربما هو نمط جديد فى المعمار . ولابد انه دراسة للمكان فى علاقته بالانسان . وكيف يمكن استخدام المساحة لتبدو للانسان اكثر

اتساعا ، واكثر راحة للعين .

الادوار تمتد أمام عينى فى خطوط دائرية . كل شيء دائرى . الجدران ، والسلالم ، والطوابق . والدائرة تبدو للعين أكثر امتدادا ، كأنما بلا بداية أو نهـاية . وهى توحى أيضا بالحركة ، كالشيء الحى ، والمـكان يتحول الى مايشبه الجسم العضوى ، يشع نوعا غامضا من الدفء والراحة .

وصعدنا من طابق الى طابق . ثلاثة آلاف اوحـة تصور الفن التشكيلى الحديث فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين . وأسماء متعددة فى عالم الفن الحديث من بول سيزان الى بابلو بيكاسو ومارك شـــاجال وموندريال ثم جاكسون بولوك وكينزو أوكادا واخـيرا جان دوبوفيه وسيرج بولياكوف وغيرهم .

لوحة ضخمة تتصدر البهو الفسيح . لوحة بيضاء تماما . ليس بها الا خط واحد متعرج بالقلم الفحـم الاسود . وفى الركن بقعة على شكل دائرة ســوداء غير منتظمة داخلها نقطتان حمراوان . تشبه خطـوطى وانا طفلة في كراسة الرسم . كانت ترمقها المدرسـة بعينين ضيقتين ثم تمط شفتيها وتعطينى صفرا .

رجل أمريكى الى جوارى ، شعره طويل ينســدل فوق كتفيه ، ولحيته طويلة غزيرة ، يحملق فى اللوحة ولا يتركها . ترى ماذا يرى فى ذلك الخط المتعـرج الاسود ، وتلك البقعة شبه العشوائية ؟ هل يرى فيها تلقائية الفن الشجاع بكسر القوالب المألوفة ؟ أم يرى العبث واللاعقل فى نظام الكون ؟

أحملق فى الخط المتعرج الشبيه بخطى . كـانت خطوطى فوق الورقة وانا طفلة تهزنى ، لكنها لم تكن

تبهر احدا غيري ، وكان مصيرها دائما صندوق القمامة لكن هذا الخط يحتل المساحة الكبيرة فى هذا المتحف الضخم والعيون ترمقه بانبهار .

اهو الفن العظيم ام أن أى شيء داخل اى متحف يبدو مبهرا ؟ وهذه الحركة التلقائية فوق الورقة أهى قمة الثقة بالنفس أم ذروة الفشـــل فى ادراك العـــالم الخارجى ؟

وظللت احَملق في اللوحة . يبدو لى الغموض واضحا والخط تماما كخطى وأكاد أرى نفسى ثم لا يلبث ان يغرق كل شيء فى اللون الاسود فلا أعرف شيئا ، ولا حتى من انا .. وأين أكون ؟

دوار فى راسى والم فى العمود الفقـرى وانا لاازال واقفة امام اللوحة . اهي حالة من الارهاق ادخـل فيها بعد مجهود اليوم الطويل ام أن الفن التشـكيلى يدخل مرحلة جديدة ؟ وما هذه المرحلة ؟ رفض الكون القديم والوجود ؟ اكتشـاف جديد للذات والوعى ؟ علاقة جديدة للوعى بالوجود ؟ انا افكر اذن أنا موجود كما قال ديكارت ؟ أم انا موجود اذن أنا أفكر كما حاول ماركس أن يقول ؟

لكن لماذا يطرح السؤال بهذا الشكل . ولماذا لا نسأل سؤالا آخر ، فنقول مثلا : لماذا لا يكون الوعى والوجود شيئا واحدا وليس شيئين منفصلين يسـبق احدهمـا الآخر ؟

لماذا لا اقول : انا موجود وافكر فى آن واحد . اذن انا وجود فكرى . او انا جسم مفكر ؟

منذ الطفولة أدركت اننى افكر بجسمى . ثم كبرت أكثر وبدأت أتساءل . اذا كان الفكر هو الجسم فلماذا

يمتد فكري خارج حدود جسمي وخارج حـدود الزمان والمكان ؟ يمتد في الماضي آلاف السنوات ، ويعبر البحار والسماوات والمحيطات لآلاف الملايين من الكيلومترات؟!

عيناي شاخصتان نحو الدائرة فوق اللوحة . بقعة اللون سوداء بلون الارض وكروية ولها حركة خفية رغم السكون كحركة الارض . والكون يبدو ضخما بلا نهاية وعقلي يتسع للمساحة لكنه يبحث عن النهاية . أين ينتهى الكون وأين يبدأ ؟ وكيف بدأت الحيـاة البشرية ومتى تنتهى ؟ لا أذكر متى ولدت ولا اتصـور انني سأموت .

الامتداد اللانهائي للزمان والمكان يبدو كالمسـتحيل امام عقلي . فكيف يمكن الا تكون هناك نهاية لاى شيء ؟ الخط المستقيم له بداية ونهاية ، لكن الدائرة ليس لها نقطة تبدأ بها ، ولا تنتهى ايضا عند نقطة .. وأى نقطة فوق الدائرة يمكن أن تكون هي البداية أو النهـاية ، لا فرق . واذا أصبحت البداية هي النهاية فلا وجود لكليهما ، فلماذا لا أتعامل مع الكون ، على أنه دائرى الشكل بلا بداية وبلا نهاية ؟

واذا كان الشكل دائريا فلماذا لا يكون المعنى أيضا دائريا ؟ بلا نقطة بداية أو نهاية . ويظل السـؤال بلا جواب واحد محدد ، ويصبح للحقيقة الواحدة أبعـاد متعددة . واذا تعددت الحقيقة فليس هناك حقيقـة واحدة . واذا تعدد الكون فليس هناك كون واحد .

لكل انسان حقيقة ؟ ولكل انسان الكون الذي يراه ؟ وما يراه جاكسون بولوك ليس هو الكـون الذى رآه بول سيزان ؟ والكون في عيني بول سيزان لم يكن هو الكون الذى رآه اساتذة الرسم في المدرسة العليـا

للفنون الجميلة فى باريس . كانوا يتصورون أن الكون واحد . وكان الفن لا يزال محدودا بالتصور القديم للكون الواحد كما ورد فى الكتاب المقدس . والصراع بين المقدس والحقيقى كان واضحا فى خطوط بول سيزان ونجح كل التلاميذ فى امتحان القبول الا هو . لم يدخل مدرسة ، ولم يقتل المدرسون فى فنه الصراع . أعطوه صفرا فى الامتحان ، ونجت خطوطه من الموت فى سجون الاكاديمية . وخلف كونا جديدا .ولم يعد الفن من بعده مقلدا للطبيعة . أصبح ذا طبيعة جديدة .

وعلى احدى اللوحات نقشت حروف جاكسون بولوك: اللوحة صراع .

وافقت على صوت ماريون يقول : أتفهمين شيئا من هذه الخطوط ؟

وقلت : لا أظن ، ولكنى أحاول .

ومرت لحظة صمت ثم سألتها : وما هى مادة الصراع ؟ .

وقالت ماريون : أى صراع ؟

قلت : مادة الفن الحديث ، انها فلسفة جديدة ، وليست خامات أو أدوات حديثة

قالت : وماهى الفلسفة الجديدة فى هذه الخطوط العشوائية بلا شكل وبلا معنى ، أنا لا أفهم شيئا من هذا العبث ! . وسكتنا لحظة نتأمل الخطوط .

ثم قالت ماريون : على أى حال الفن يحس ولا يفهم

وتساءلت : وهل هناك فاصل بين الاحساس والفهم ؟

وقالت : ماذا تعنين ؟

قلت : الاحساس هو الفهم ، وانا احس اذن انا افهم .

وضحكت : وانا افهم اذن انا احس .

وسألتها : وماذا تحسين ؟

قالت : بالجوع .

وضحكنا ، وخرجنا من متحف جوجنهايم الى مطعم صغير حيث اكلنا اللحم المشوى . وبعد الغداء ذهبنا الى المسرح فى شارع برودواى حيث كانت تعرض مسرحية مشهد من الجسر لارثر ميللر .

كان المسرح مزدحما ، ولم نحصل الا مقاعد خلفية . كنت أمد راسى الى الامام لاسمع صوت الممثلين ، لكنى لم التقط الا انصاف الجمل ، ولكنة امريكية سريعة ، ونكات يضحك عليها الجمهور ولا أسمعها . وحين رايت ماريون تشارك الجمهور الضحك ، سالتها : أسمعت النكتة ؟

وقالت : لا ، ولكن الضحك يعدى . وضحكنا .

وخرجنا من المسرحية قبل نهايتها .

سرنا نتمشى فى الافينو الخامس ، أكبر شوارع نيويورك . برودة الجو منعشة . نوافذ المحلات الضخمة تتألق تحت الاضواء والشموع . الاستعداد لاعياد الكريسماس والعام الجديد . من وراء الزجاج نافورات ملونة ، وتماثيل تتحرك وترقص تحت الاضواء ، ومعروضات جديدة تدور مع دوران النوافذ المتحركة . معاطف فرو ، قبعات ، مجوهرات . اجهزة الكترونية من كل نوع وصنف . وزحام من الناس من جميع بلاد العالم .

أمام احدى النوافذ الزجاجية الضخمة راينا جمعا

كبيرا من الناس يتزاحمون ويتنافسون على الرؤية
الاطفال يصعدون على اكتاف آبائهم وامهاتهم ليروا ماذ
هناك .

وقلت لماريون : ربما هو حاوي وراء الزجاج !

وبدانا نشق الطريق ، ورأينا تحت الضوء الملون
جهازا كبيرا كالفرن الكهربي ، داخله بيض كبير كبيض
البط . تتحرك البيضة وحدها ثم تنكسر فجأة ويخرج
منها كتكوتا حيا يجرى على أرجل رفيعة .

الاطفال يضحكون ويصفقون بأيديهم ، والشباب
والشابات يتعانقون ويتراقصون . والعجائز يحملقون
بدهشة ورجل يهمس فى أذن زوجته : هذا زمن
عجيب وكل شيء يصنع الآلات حتى الكتاكيت !

وقالت ماريون : بعد قليل سنصنع الاطفال في
الانابيب ، وتتحرر النساء من الحمل والولادة .
وضحك الجميع .

فى الطريق الى البيت احسست بدوار خفيف .
كانت ماريون تقود سيارتها ، ورأتني صامتة فقالت :
أتشعرين بتعب ؟

وقلت : لا .

وقالت : كان يوما مرهقا لكن بديعا .

عند باب بيتي تمنت لي ليلة طيبة ثم انطلقت بسيارتها
الى بيتها .

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف حين خلعت
ملابسى لارتدى قميص النوم . وفجاة احسست بالالام
هل هى آلام الولادة ؟!

كنت وحدي تماما . وتلفت حولى فى حيرة ثم
جلست على طرف السرير . هدات الآلام فترة ثم عادت

بسرعة .. وادركت انها الولادة . التليفون علي المنضدة الى جوار السرير . هل أطلب ماريون ؟ لكننا قضـينا يوما طويلا مرهقا ؛ وهي بحاجة الى النوم ، ونحن فى منتصف الليل ولا يمكن أن أطلب أحدا في مثل تلك الساعة وان كانت أمي .

مستشفى « سلون » على بعد عشر دقائق من بيتى سيرا على الاقدام . ارتديت المعطف الصوفى السميك ودسست ملابس الطفل الجديدة في الحقيبة وخرجت الى الشارع .

كان الهواء باردا كالصقيع ، والظلمة حالكة والشارع خال من البشر . سرت بخطوات سريعة ثم بدأت اجرى اطراف مثلجة ، ترتجف بالبرد والخوف معا . شبح طويل أسود يتبعني ، وكعب حذائه يدب على الارض وتوقفت لحظة ثم استدرت خلفي . لم يكن هناك أحد . ثم ادركت انه ليس الا ظلى فوق الارض ، وقدماى تدبان على الاسفلت القدم وراء القدم . ثم توقف الدبيب لحظة . الم حاد فى العمود الفقرى اوقفنى عن السير ، وجسمى يتراخى وينثنى نحو الارض . هل اجلس على الرصيف ؟ واذا جلست فهل يمكن أن يولد الطفل في الطريق ؟

أنوار المستشفى تلوح لى من بعيد ، أبعد مما هى ، وقد لا أصلها أبدا .

وشددت عضلات ظهرى بقوة وقلت لنفسي : سأكمل الطريق ولن أتوقف الا بعد أن أدخل المستشفى . ولا أدرى كيف عادت قدماى تدبان فوق الارض وكيف قطعت المسافة الباقية بتلك الخطوات المتعاقبة المنتظمة القوية لكن ارادة عجيبة من نوع غريب كالعضو الجديد ينبت

فى الجسد فجأة أو كالجسد الجديد يحل بالجسد القديم ، وساقان جديدتان تحملان جسمى بسرعة وخفة والى جوارى ارى ظل جسمى يصاحبنى بالحركة ذاتها ، النشيطة يبدد السكون الوحش ويؤنسنى فى الظلمة كالرفيق .

وما ان وصلت المستشفى حتى اختفت هذه الطاقة الطارئة أو الجسد الجديد لا أدرى كيف اختفى . لكنى احسست بجسدي القديم يظهر فجأة ثم يتهاوى ويسقط على أقرب مقعد ، ولم أتحرك بعد ذلك الا فوق نقالة ، دفعتها الممرضة امامها بكلتا يديها حتى غرفة الولادة ، وملأتنى رائحة اليود والاثير واللون الابيض للجدران وملابس الممرضات بالراحة العميقة كالبهجة .

ورأيت وجه الدكتور « تود » أمامى . كان يبتسم ويقول لى أننى ساضع طفلا جميلا . وحاول أن يضع قناع التخدير فوق وجهى . لكنى رفضت وصممت على أن ألد طفلى وانا فى كامل الوعى . كنت أعرف انهم يأخذون المولود بعد الوضع مباشرة ، ويضعونه فى الغرفة الزجاجية حيث عشرات المواليد الآخرين .

واستولى على شعور مفزع . ان طفلى اختلط بالاخرين .

لكن الآلام اشتدت ، وخيل الى أننى سأموت من شدة الالم ، فاذا بى أطلب التخدير .

وقبل أن يضع الدكتور « ترد » القناع فوق وجهى .

قلت له : أعطنى مخدرا خفيفا حيث يمكنك أن تنبهنى حين يولد الطفل لاراه قبل أن يأخذوه الى غرفة المواليد .

وابتسم الدكتور تود قائلا : أعدك بذلك ، لكن هذا يتوقف عليك ايضا وقدرتك على الافاقة السريعة من المخدر .

وملأت انفى وفمى رائحة الاثير ، وسرت فى جسدى برودة غريبة انتقلت بسرعة من راسى الى صدرى ثم الى ساقى وقدمى . واحسست كأنما اسقط فى بئر مظلم عميق بلا هواء ، وافتح فمى لاستغيث دون جدوى لقد تحولت الى جسد ميت لا يتحرك ، وثقل غريب كثقل الكرة الارضية فوق جفنى .

ورأيت أمى امامى فجأة . كانت ترتدى الثوب الاصفر الحريرى والايشارب الشفاف الابيض حول عنقها . عيناها العسليتان فى عينى وأنا ممدودة فوق السرير ، وبركة الدم من تحتى . وقلت بدهشة : كيف عرفت وكيف جئت من البلد البعيد .

كنت أخفى عنها كل آلامى ، حتى آلام الولادة . وكل شيء مؤلم كنت افعله وحدى ، بدون أمى ، وبدون ابى . اما الفرح فلم أكن احسه وحدى ، ولابد أن تكون معى أمى أو أبى . وكنت افاجئهما دائما بأفراحى، ولكن آلامى كانت تحسها أمى قبلى ، ومهما ابتعدت ، واختفيت ، تعرف مكانى وتأتى . وكنت وحدى بالبيت تلك الليلة فى ربيع عام ١٩٥٦ حين فاجأتنى الالام . لم أعرف أنها الولادة . نزفت دما غزيرا . كان راس ابنتى كبيرا لا يريد أن يهبط ، وعضلاتى صلبة لا تلين . وكان يمكن أن انزف الدم حتى اموت . ثم دق جرس الباب فجأة . ورأيت امى . لم اعرف كيف عرفت وكيف جاءت ومن فتح لها الباب ، وكل ما اذكره أننى كنت وحدى بالبيت ، وأمى فى بيت آخر بعيد ،

ولا احد غيري يعرف انني انزف ، بل انا نفسي لم اكن اعرف .
وتلاشى الثقل من فوق جفني ، وفتحت عيني بذهول ورأيت وجه امي غريبا . ولاول مرة اراها ترتدي نظارة بيضاء ، وعيناها زرقاوان وليستا عسليتين . وقلت لنفسي : ربما تغير وجهها لانها ماتت منذ سنين . لكني سمعت صوت رجل يرن في أذني بلغة ليست عربية
انظري ! انه صبي جميل !
وانقشع الضباب ورأيت الضـــوء قويا أبيض ، والجدران بيضاء ومعطف الدكتور أبيض ناصع البياض ، وعيناه زرقاوان شديدتا الزرقة تلمعان مـــن تحت النظارة البيضاء بابتسامة واسعة أسنانه لامعة وصوته يرن في أذني كرنين الفضة المجلوة :
انظري ! انه صبي جميل !
حملقت في الوجه الصغير بدهشة . بشرته حمراء بلون دمي . والشعر الاسود الغزير ، والانف الدقيق والعينين مغلقتين والفم مفتوح يلهث . ثم مالبث أن اغلق فمه وفتح عينيه . وثبتت عيناي على المقلتين السوداوين اللامعتين ، وانحفرت الصورة في ذهني أصبحت جزءا مني . وسمعت صوت الدكتور « تود » يقول ضاحكا : هل حفظت ملامحه ؟
وحملته الممرضة بين ذراعيها وهو يبكي ويرفس بذراعيه وساقيه ثم وضعته على منضدة بيضاء ولفت حول معصمه الصغير اسورة من النايلون الابيض تحمل رقم ٩٥٧٨ ، وممرضة أخرى امسكت يدي ، ولفت حول معصمي اسورة من النايلون الابيض تحمل الرقم نفسه .

واغمضت عيني ونمت وليس فى ذاكرتى الا المقلتين السوداوين ، ورقم ٩٥٧٨ فوق المعصم .

***

فتحت عينى فى الصباح ، ورايت صينية الى جوارى ، عليها ابريق الشاى ، وبيضة مسلوقة ، وزبدة وخبز « توست » . أكلت بشهية ، ثم هبطت من السرير وسرت فى الممر الطويل حتى وصلت الى الغرفة الزجاجية والصقت وجهى بالزجاج وعيناى تبحثان عن المقلتين السوداوين بين المواليد المتشابهة والتقطتهما من بين العيون . دقات قلبى تتصاعد ، ويدى ترتفع لألوح له من وراء الزجاج . لكنه كان راقدا فى سريره الصغير الابيض ، شاخصا الى السقف واصبعه فى فمه .

وأقبلت الممرضة نحوى تجرى وتقول بدهشة : وضعت طفلك الساعة الواحدة صباحا ، والساعة الآن الثامنة صباحا . لم يمض على الولادة الا سبع ساعات وتسيرين هكذا فى الممر ؟ ... وقلت لها : الحركة بعد الولادة مفيدة . ثم ان طفلى جائع ولابد أن أرضعه الآن .

وعدت الى سريرى ، وبعد لحظات رايتها مقبلة نحوى تجر سريرا زجاجيا صغيرا داخله طفلى . وامتدت ذراعاى لتحوطه ووضعته فوق صدرى ورأيت الفم الصغير يلهث ، وحين دسست الحلمة السوداء بين الشفتين الصغيرتين قبض عليها بفكيه واخذ يرضع اللبن بشهية واصابعه الخمسة الرقيقة تلتف بقوة حول اصبعى ، واحساس جارف بالامومة يسرى فى كيانى دافئا كتدفق الدم فى الشرايين .

***

طلبت الخروج من المستشفى بعد ثلاثة أيام . لا ارى طفلى الا فى أوقات الرضاعة ، وينام فى غرفة بعيدة عنى . واريد أن أضمه بين ذراعي ، وتضمنى أنا وهو غرفة واحدة . ثم ان رائحة المستشفى فقدت بهجتها ولم يعد بقائي يعنى الا مزيدا من النفقات .

قدمت لهم شيكا بالمبلغ ، وقدموا لى شهادة ميلاد ابني . ووجدت انهم أعطوه لقب أبى . ودهشت . هل يسمى الطفل هنا باسم الام ؟ وتساءلت رئيسة الممرضات بدهشة وكان اسمها مسز سيلفرمان : الا تحملين اسم زوجك ؟

وقلت : لا . انا احمل اسم أبى .

وتصورت مسز سيلفرمان أننى أم غير متزوجة ، لان الام المتزوجة تحمل اسم زوجها بالقانون الامريكى ، ولا تحتفظ باسم ابيها الا الام غير المتزوجة ، والطفل فى هذه الحالة يحمل اسم الام ، وينظر اليه كطفل شرعي تماما .

وقلت : أنا متزوجة ولكنى احمل اسم أبى ، وهذا هو القانون فى مصر .

وشهقت مسز سيلفرمان بدهشة : هذا عجيب ! الا تحمل المراة عندكم اسم زوجها .

وقلت : لا .

ورددت مسز سيلفرمان : هذا عجيب ! ثم فكرت لحظة وقالت : الزوجة المصرية اكثر حظا من المراة الامريكية ، فهى تحمل اسما واحدا طول حياتها ، اما المراة هنا فهى تغير اسمها ، بعد الزواج . وقد تغير اسمها اكثر من مرة اذا تزوجت اكثر من مرة .

وحكت لى قصتها الغريبة مع اسمائها الثلاثة . كان

اسمها قبل الزواج مس سيلفرمان . وتزوجت من رجل اسمه براون فأصبح اسمها السيدة براون وحصلت على شهادة التمريض بهذا الاسم . ثم طلقت من براون بعد عامين وتزوجت مورجان . وبعد الزواج حصلت على درجة الماجستير فى التمريض باسم السيدة مورجان . ثم انفصلت عن زوجها مورجان بعد ثلاث أعوام وأصبح اسمها السيدة سلفرمان وهو اسم أبيها . وحصلت على الدكتوراه فى التمريض العام الماضى باسم مسز سيلفرمان .

وقالت فى ختام قصتها بأسى : وهكذا فأنا أحمل ثلاث شهادات من الجامعة وعلى كل شهادة اسم مختلف

وقلت لنفسي : أي امتهان لشخصية المرأة !

لكن ذلك كان فى نهاية عام ١٩٦٥ ، ولم تكن حركات تحرير المرأة قد سمع بها أحد فى امريكا بعد . ولم يخطر ببالى حينئذ انه لن تمر سنوات قليلة حتى تخرج النساء الامريكيات الى الشوارع فى مظاهرات ضد سيادة الرجل ، وضد القوانين التى تجعل المرأة أقل من الرجل ، ومنها القانون الذى يفرض على الزوجة أن تحمل اسم زوجها . وامتدت الثورة النسائية أيضا لتشمل القاء مساحيق الوجه فى صناديق القمامة ، ومشدات الصدر وغيرها من أدوات الزينة . رموز القهر الجنسى للمرأة .

***

عدت الى الكلية بعد اربعة أيام . وانتشر الخبر فى الجامعة . وبدأ الاساتذة والزملاء والزميلات يفدون الى بيتى للتهنئة ، وكل يحمل هدية للطفل . احدى الهدايا كانت عربة صغيرة لها كبوت أحمر جميل . وفى

الايام الدافئة حين تسطع الشمس أخرج الى المتنزه على شاطىء نهر هدسون ، أدفع بالعربة أمامى ، ومن تحت الكبوت الاحمر يطل وجهه الصغير ، تتوسطه المقلتان السوداوان اللامعتان . تتسعان بالدهشة لاي صوت وحركة . وتنفرج الشفتان الصغيرتان عن ابتسامة سعيدة . وقد يضحك بصوت عال كزقزقة عصفور . وتتوقف النساء وهن سائرات ليحملقن فى العينين السوداوين ذات البريق ، وتنطلق الاصوات هاتفة : كيوت ! كم هو طفل جميل !

وتتسع عيناه بالدهشة . وعيناى أيضا تتسعان . النساء فى بلادنا لا يتوقفن فى الطريق ، ولا يظهرن اعجابهن بالطفل مهما كان جميلا . بل تهتف الواحدة منهن قائلة : كم هو طفل قبيح ! وتبتسم الام فى سعادة وقد اطمأنت الى أن العين لم تحسده .

كان طفلا وديعا هادئا . ينام طول النهار والليل . ولا يصحو الا للرضاعة . وكنت أتركه بعد رضعة الصباح نائما واذهب الى الكلية . المسافة بين البيت والكلية سبع دقائق سيرا على الاقدام بالخطوة السريعة . واعود الى البيت جريا كل ثلاث ساعات لارضعه .

وفى أيام الاجازات تساعدنى ماريون فى تنظيف البيت وغسل ملابس الطفل وشراء لوازم البيت . وفى نهاية كل أسبوع تلتقط له صورة ملونة . ارسلها بالبريد الى زوجى وابنتى .

وأصبح رفيقى . يؤنسنى بالنهار بضحكاته المسرحة كالشهقات المتقطعة ، وحركة يديه وهو يهز السكرات الملونة المثبتة امام مقعده . واصابعه الصغيرة حين تلامس اصبعى تلتف حوله بقوة لا تريد أن تتركه .

وفى ظلمة الليل الموحش بالغربة ، وصفير الرياح من المحيط ، وهدير المطر فوق زجاج ناطحات السحب ، وصرير الاعمدة السوداء الضخمة فوق الكبارى الحديدية . فى ظلمة الليل فى قلب تلك المدينة الامريكية الضخمة على بعد آلاف الاميال عن الاهل والوطن ، افتح عينى فى الظلام وانا راقدة تحت الغطاء ، اطرافى باردة بالغربة ، وقلبى ثقيل بالوحدة والوحشة .

وأرفع رأسى من فوق الوسادة فأراه نائما فى سريره الصغير ، بشرته من لون بشرتى . وملامحه تشبه ملامحى . وأنفاسه ساخنة لها رائحة الاهل والوطن .

احوطه بذراعى ، وأغمض عينى ، لاحس الدفء يسرى فى أطرافى ، والريح تكف عن الصفير ، والليل لا يعود غريبا ولا موحشا ، وانام حتى أصحو على صوته فى الصباح . عصفور يفرد ، يحرك ذراعيه وقدميه فى الهواء . يحاول أن يرفع رأسه ويطل على من بين أعمدة السرير الملونة .

كان ينمو بسرعة ، ويأكل بشهية . وطعام الاطفال داخل علب زجاجية صغيرة . مطهى جاهز ولذيذ الطعم . على الرفوف فى المحلات والاسواق تطل العلب بالوانها وأشكالها المتعددة . فواكه ، وخضر ولحوم وأسماك وبيض وبقول من كل نوع . على علبة التفاح ترسم تفاحة حمراء ، وعلى علبة السمك سمكة ملونة فى يد طفل يلعب . وعلى علبة الارز باللبن وعاء أبيض مملوء بالمهلبية .

كم من الوقت كانت تقف أمى أمام الموقد تقلب اللبن مع مسحوق الارز لتصنع المهلبية ؟ وكم من الوقت كنت انفقه لاصنع لابنتى طعامها وهى طفلة ؟ لكنى هنا امد

يدي واسحب من علب طعام الاطفال ما اشاء .

وتآلفت مع حياتى الجديدة . اصبحت احب الكلية والمحاضرات . وصداقات جديدة تربطنى بالزميسلات والزملاء . والاساتذة يندهشون حين يرون أننى اقدم البحوث في موعدها . واحصل فى الامتحانات على اعلى الدرجات . واننى لم أتغيب طوال العام الا أربعة أيام .

احد الابحاث التى قدمتها كانت عن مستشفى « هارلم » ، وهارلم هو حى الزنوج في نيويورك . زرت المستشفى عدة مرات مع ماريون . قاعة انتظار المرضى تذكرنى بقاعات الانتظار فى مستشفى القصر العينى . والطابور يشبه الطابور الذى كان يقف امامى كل صباح . الوجوه الشاحبة الذابلة . عيون ضامرة حزينة . ينتظرون اللحظة التى تناديهم فيها الممرضة ليمثلوا بين يدى الطبيب أو الطبيبة . بعضهم ينزف . بعضهم فى شبه غيبوبة أو اغماءة . مكدسون في القاعة منذ ساعات طويلة .

وتساءلت : لماذا ينتظرون كل هذه الساعات ؟

قالت ماريون : نقص فى عدد الاطباء ، والطبيب الواحد يكشف على مائة مريض فى اليوم .

فى مفكرتى ، عام ١٩٥٦ ، حين كنت طبيبة امتياز بالقصر العينى كنت أدون عدد المرضى الذين أفحصهم فى العيادة الخارجية فى اليوم الواحد . بلغ الرقم فى أحد الايام مائة وثلاثة وعشرين مريضا . وحين انتقلت للعمل بوزارة الصحة لم تعد هناك وسيلة لمعرفة عدد الطابور الممتد بامتداد البصر .

عنابر المرضى فى مستشفى هارلم تشبه عنابر القصر العينى . لكن الطرقات فى القصر العينى كانت خالية ، وهنا ارى المرضى يرقدون على أسرة اضافية في الطرقات

والممرات الضيقة في المستشفي . والرائحة هي الرائحة التى كنت اشمها وانا امر على المرضي . عفــونة الدم والصديد والجروح المتقيحة . ودورات الميـــاه تفــوح منها رائحة نتنة كالمجارى الطافحة وصراصير حمـــراء وسوداء ، كبيرة وصغيرة ، تجرى حول البالوعات .

وضعت ماريون على أنفها منديلها الابيض وهى تقول : يلقون الفائض من علب الطعام فى مياه المحيط وهؤلاء الناس يمرضون من الجوع .

وسألتها : ولماذا يحدث هذا ؟ أمريكا بلد غنية ؟

قالت ماريون : نعم ، وعندنا مشكلة السمنة ، وهى مشكلة ثراء ، ٢٥ ٪ من الامريكيين مصابون بتضخم الجسم من الزيادة فى الاكل . لكن الاقتصاد الراسمالى يقتضى وجود الفقراء . انهم هم الذين يشترون من السوق ، واذا وزع عليهم الفائض لم يذهبوا للشراء ، وتنخفض بذلك القوة الشرائية ، وتتكدس البضائع ، ويخســر أصحاب المصانع والشركات .

كنت أعرف أشياء جديدة كل يوم . واختار لأبحـاثى الموضوعات الشائكة الصعبة . علاقة الاقتصاد بالطـب والصحة والمرض . أسباب الفقر فى أمريكا . أحــوال الزنوج فى هارلم وأصحاب الملايين فى مانهاتن . نسبة مرض الدرن فى حى بروكلين . علاقة العدالة الاجتماعية بالصحة .

موضوعات أبحاث جديدة ، وعـــلاقات جديدة بين السياسة والطب ، وبين الفرد والمجتمع ، وبين الجسد والنفس والعقل .

ولم تكن هناك محظورات فى البحث . أختار ما أشاء من الموضوعات . وليس هناك مكتب أمن فى الجامعــة

ولا حرس من رجال البوليس .

والاساتذة لا يعلمون فحسب ، ولكنهم يتعلمون أيضا . والمحـــاضرة لا تلقي والطلبة يســـتمعون ويدونون فى الكشاكيل ، ولكن الحوار يدور بين الاساتذة والطلبـة والطالبات . حوار مفتوح ، ومناقشـــات . والاستاذ يعترف بأخطائه ، ويعرف كل طالب وطالبة معرفة وثيقة ونوع غريب من الانسانية وروح الزمالة تشيع فى الجامعة كلها .

***

اصبح للهواء في الصباح برودة منعشة تملأني حماسا ونشاطا وانا ذاهبة الى الكلية . احرك قدمى فوق الارض اللامعة بخطوات سهلة خفيفة . فأنني ولدت هنا وسأموت هنا ولم أعرف مكانا آخر . صوت العجلات المسرعة فوق الكوبرى الحديدى أصبحت مألوفة . والبخار يتصـــاعد من ثقوب الارض . واصطكاك الكعوب القوية النشــــطة باسفلت الشارع ، والقطارات تجري تحـــت الارض . وطائرات الهيلوكوبتر تمرق كالطيور بين ناطحات السحاب ورائحة مياه المحيط ، وقراءة صحف الصباح ، وهدير المظاهرات والهتافات .

أمطار الليل غسلت الارض والهواء والبيوت ، وكـل شيء يلمع تحت الشمس .

وعينا ماريون الزرقاوان تلمعان وهي تستقبلني على الباب : اليوم مظاهرة !

منذ الطفولة وانا أحب المظاهرات . عشق خفى لكل مظاهر التمرد على النظام . لهفة وانتظار غامض لوقوع خلل فى الكون ، اي خلل ، وان كان سقوط نجم مـن السماء او ارتجاج الارض بصوت الرعد والبرق .

اصوات الطلبة في المظاهرات كهدير الشلال ، وفوق جسدي تسرى قشعريرة كاللذة الغامضة . هل يمكن حقا أن يسقط النظام ؟

ماريون توزع علينا منشورات طويلة صفراء . صورة لطفلة في فيتنام احترق وجهها بالنابالم . وصورة اخرى لجندي أمريكي يرقد على الارض بذراع واحدة والدم يسيل من رأسه ، وجندي فيتنامي يحاول أن يحمله .

الشوارع امتلأت بالشباب والرجال والنساء . أمهات يدفعن بعربات الاطفال أمامهن ويحملن اللافتات ويهتفن : نريد السلام لا الحرية . مظاهرة من النساء والرجال العجائز يحملون لافتة كبيرة كتب عليها : أعيدوا ابناءنا من فيتنام !

ميدان كولومبس الفسيح يرتج تحت أصوات الهتاف . شمس مارس تتألق في السماء مع بشائر الربيع الاولى . الحماس يسرى في كياني كالدم الساخن . أصوات الهتاف ترن في أذني مألوفة كهتافات الطلبة في الوطن . والوجوه تشبه وجوه الناس من أهلي . بيضاء وسوداء وسمراء كلها متشابهة ، متلاصقة في جسد بشرى واحد وأنا جزء من هذا الجسد . أنفاسهم من أنفاسي ، وحرارتهم من حرارتي ، والذوبان النهائي لآخر قطرة من قطرات الغربة أو الوحشة في دمي .

***

في اليوم الاخير من العام الدراسي وزعوا علينا الشهادات في حفل كبير . الدكتور « تراسل » يقف بملامح الاب وسط الاساتذة . يقدم لي شهادة التفوق مكتوبة على الورق المصقول . وشهادة أخرى غير مكتوبة على الورق ، ترن في الجو بصوته الهادىء ، وتنحفر

الكلمات في ذهني . تصبح جزءا مني ، وتظل حيـة كخلايا المخ .

في قاع مكتبي رقدت الشهادات المكتوبة على الورق عشرين عاما . أصبح الورق باليا والحروف بليت وأكلها الزمن والعتة . لكن الشهادات غير المكتوبة ظلت حيـة في خلايا المخ ، تعيش معي ، وتموت معي . ولازلت اذكر عبارة قالتها لي مدرسة الطبيعة في المدرسة الابتدائيـة عام ١٩٤٢ . اذكر الحروف ، حرفا حرفا ، وحـركة الشفتين وهي تنطق الكلمات ، وحركة « النني » في العينين ، وصوتها يلامس أذني ، ثم يسري في القنوات العميقة داخل الرأس ، ويمشي في الخلايا دافئا متدفقا كشحنة من الدم الجديد .

عينا ماريون الزرقاوان فيهما دموع . تلوح لي بيدها من وراء الزجاج ، ثم تذوب في الجو . عيناى تتسعان بالدهشة ، وزجاج النافذة تكسوه عتامة وقطـرات ماء دقيقة كرذاذ المطر . تسقط قطرة على ظهر يدي ساخنة . وأدرك أنها دموع ، وأن قلبي ثقيل .

لكن الصوت ينبعث فجأة من سقف الطائرة معلنـا الاقلاع خلال دقائق الى « القاهرة » . ترن كلمـة « القاهرة » فجأة ، وتحدث من حول راسي انتفاضـة في الهواء ، كالمس الكهربي . ويلوح لي الوجهان تحت الضوء ، في بيتنا الصغير أول شارع الهرم ، والشجرة الخضراء تطل من السور أمام البيت ، وعم أحمد البواب جالس على الدكة ، وكشك الصحف على ناصية الشارع، وبائع الفول يدس المغرفة الطويلة داخل الفوهة يتصاعد منها البخار ، وبائع الروبابيكيا يدفع بالعربة امامه وراسه الى أعلى مناديا بصوت حاد : بيكيا !

يزحف الحنين على جسدى كقشعريرة برد . انتفاضة تشملنى من راسى لقدمى ، كرجفة بدايات الحمى ، وعيناى تدوران من حولى تفتشان عن الملامح الاليفة ، واذناى تتشممان اللهجة والصوت ، وحنين جارف كالمرض الكامن ينفجر فجاة ، فاذا بى أشتاق لكل شيء وأى شيء حتى ذرات الغبار السابحة فى الهواء تحت شعاع الشمس ، ورائحة المجارى تحملها نسمة الربيع فى اول الصباح .

***

عيناى تسبقان العجلات السريعة فوق الارض . وخفقات قلبى تطغى على كل الاصوات . أخترق الزجاج بأنفى لاطل على الرءوس الكثيرة فى شرفة المطار . وجوه كثيرة غريبة وعيناى تقفزان من وجه الى وجه ، تبحثان عن العلامات المميزة . الوجه النحيل والعينان السوداوان العميقتان . الوجه الصغير المستدير تتوسطه العينان العسليتان .

ورايتهما فجأة . كأنما تكثفت ذرات الهواء وتجمعت لتجسدهما امام عينى . زوجى يرتدى قميصا ابيض ويلوح لى بحركته الهادئة الواثقة . أبنتى تقفز الى جواره وتتقدم نحوى غير عابئة بحزام الشرطة . الرجل الشرطى يدفعها الى الوراء .

ارفع يدى فى الهواء كأنما لامسكها ، لكن المسافة لا تزال بعيدة . وعلى اللوح الخشبى أمام موظف الجمرك تبعثرت ملابسى ، وملابس الطفل . واصابع الموظف تعبث بأوراقى وكتبى . ولم يكن معى شيء . لعب أطفال وطائرة زرقاء لابنتى تحوطها أجنحة رقيقة بيضاء .

شد الموظف الطائرة من علبتها الكرتون المربوطة بشريط ملون ، وهزها بقوة ليتأكد أن ليس داخلهـــا شيء ، فانزلقت من يده ، وسقطت على الارض ، وتنـــاثرت الاجنحة الرقيقة كالفراشة البيضاء فوق الاسفلت .

وفى العناق أغرق الفرح الاحزان الصغيرة . وخرجت من المطار والاذرع تحوطنى . زوجى وابنتى واخـــوتى والاصدقاء . وبين ذراعى أحمل ابنى . عضو جديد فى الاسرة الصغيرة .

الأغوار وحافة النهر

في يونيو ١٩٦٦ عدت الى الوطن ، وفي يونيو ١٩٦٧. وقعت الهزيمة . عام واحد مضى كأنه عشرة أعـــوام ، والهزيمة في الهواء اتنفسها قبل أن تقع .

الاعلام وأقواس النصر ترتفع فوق كل شبر من الارض الاناشيد الوطنية في الميكروفونات والاذاعات ليل نهار . لكن خلايا جسمي وعقلي تحس الهزيمة في انحناءات أقواس النصر لاى نسمة تهب ، ونبرات الاصوات تصيبها البحة كالنشيج في نهاية كل نشيد . وزوايا العيـون تحت الجفون المسدلة فوق المنصات . وفتحات الانف تتشمم من تحت الكراسي والموائد .

ثم جاء ذلك اليوم الخامس من يونيو . ورأيت العصافير والطيور ترفرف مذعورة في السماء ثم تختفي هاربة كأنه يوم شتاء والبرق والرعد ينذر بالمطر .

كنا في عز الصيف ولا برق ولا رعد ولا مطر . لكن السماء تغيرت فجأة ، ودوى الطائرات الخاطف اشد سرعة من الضوء . وانفجارات بعيدة مكتومة . ثم عادت السماء كما كانت بعد بضع دقائق .

كنا في أول الصباح ولم أعرف ماذا حدث . وذهبت كعادتي كل يوم الى مستشفى الدرن . ولاول مرة لا أرى طابور المرضي واقفا ممدودا بامتداد البصر . كـــانوا جالسين في فناء المستشفى وبينهم راديو صغير . يقربون

آذانهم من الراديو ثم يهللون ويصفقون . واستقبلتنى المرضة وهى تهتف بالحماس : اسقطنا حتى الآن أربع عشرة طائرة للعدو !

لم اكن أصدق الاذاعات ولا الصحف ولا البيسانات الرسمية ، لكنى صدقتها ، كنت مرهقة ، اتنفس كل يوم انفاس مرضى الدرن دون العازل الواقى ، وفى المثلث تحت الضلوع الم يلازمنى كل صباح كالغثيان يبدد حاستى السادسة ، ويضعف حواسى الاخرى الخمس ، فلا أشم رائحة المجارى فى البركة أمام المستشفى ، ولا اسمع الانين ينبعث من الطوابير ، وجلدى أيضا يفقد حاسة اللمس ، وعدسة العين تكسوها غشاوة ، وخلايا المخ تصيبها عتامة .

وصدقتها على الفور ، وتلاشي الالم المزمن تحت الضلوع وانقشع الغثيان ومعه العتامة . وهتفت بالفرح : انه اذن النصر وليس الهزيمة ! ووجهت لنفسى اللوم والتأنيب على احاسيسى السوداوية والعجز عن التنبؤ الا بالفشل لكنها لم تكن الا نصف دقيقة استعدت فيها حواسى . ورأيت الطابور الطويل يعود بالوجوه الشاحبة ، والرءوس المنكسة ، والعيون المنكسرة . وتجمدت الابتسامة على وجه المرضة وانسحب منه الدم وبدأنا نعسرف أن طائراتنا كلها ضربت على الارض وهى نائمة . وقالت المرضة كالمعتذرة : لم اكذب عليك يادكتورة ، ولكنى صدقت الراديو .

وبدأت الهزيمة تتجسد على شكل الحقيقة . والحقيقة تتجسد على شكل وجه طويل شاحب ، وانف طويل شاحب . وعينان شاحبتان واسعتان تتسعان لكل هزائم العالم .

واصبح الوطن كالمأتم . نصحو على صــوت يتلو الآيات وننام على التلاوة نفسها الرتيبة . والميت لم يدفن بعد ولازال يمشي على الارض . يطل علينا كل يوم بعينين مقتولتين . والقاتل عيناه تلمعان بالنصر . يحمل سلاحا لازال يقطر دما ، ويدوس على أرض الوطن فى الضــفة الغربية والجولان وسيناء . وجبهة القتال أصبحت ثلاث جبهات وأكثر .

***

الطائرة تحملنى الى جبهة القتال فى الاردن . فى حقيبتى ادوات الطب وليست أدوات الحرب . لكن فى رأسى قرار . أن أتدرب على اطلاق الرصاص والقتل . العالم من حولى اما قاتل أو مقتول ، ولن أكــون أبدا المقتول . تدربت على السلاح فى عام ١٩٥٦ ، بعــد العدوان الثلاثي ، « الانجليزى الفرنسى الاسرائيلى » على بور سعيد . كنت طبيبة فى الريف فى قــريتى طحلة ، وتحولت الوحدة الطبيــة الى معسكر للتدريب علي السلاح والتمريض . الرجال يحملون الســـلاح ويقتلون والنساء يضمدن الجروح . تقسيم العمل على اساس الجنس فى الحرب والسلم . وقلت : سأحمــل السلاح وأقتل ولن اضمد الجروح !

وتدربت على اطلاق النار ، واصابة الهدف . اثبت البندقية على كتفى وأركز عينى على نقطة الوســط ثم اضغط على الزناد . ويندهش المدرب العسكرى كيف لامرأة ان تصيب الهدف من أول مرة . واصبح يطلــق على اسم « الكابتن » بلغة المذكر كنوع من المكافأة على الامتياز فى الرماية . لكنى رفضت اسم الرجـــل ، وتمسكت باسمى . وصاح بدهشة : هذا تكريم لك حين

نعطيكَ اسم الرجل . وناديته باسم المرأة فغضب ،وقلت بدهشة : هذا تكريم لك حين نعطيك اسم المرأة .

ورأيته يرفع بندقيته ويصوبها نحو رأسي . ورفعت بندقيتي وصوبتها نحو رأسه .

وتراجع على الفور وأدركت منذ تلك اللحظة ان الرجل لا يفهم الا السلاح والسلاح لا يهزمه الا السلاح . واصبح يحترم اسمي ولم يعد يناديني باسم الرجل . وبقى معنا شهرا ثم سافر . واقامت له الوحدة الطبية حفل وداع صغير . والقيت كلمة قصيرة ، شكرته فيها لانه بذل جهودا في تدريب الناس على القتال . ورد بـكلمة شكر في نهاية الحفل وقال : من السهل أن نتعلم كيف نطلق النار ونقتل ، لكن من الصعب أن نتعلم كيف نحترم المرأة .

أكره ملمس السلاح فى يدى ، واكره منظر الدم . لكن كراهيتي للاغتصاب أشد . اغتصاب حق المرأة أو اغتصاب أرض الوطن .

كلاهما اغتصاب . وكلاهما وجهان لعملة واحدة . العبودية أو القهر بالقوة المسلحة .

فى مطار عمان رأيت عددا من الشباب الفدائيين . ركبت معهم السيارة الجيب الى مركز القيادة . شوارع عمان واسعة نظيفة . والجبال من كل ناحية . وعيون الفدائيين فيها بريق خاطف ، يعكس لون الجبل ، يذكرنى بالملامح الجبلية فى الجزائر . وصوت لازال فى أذنى : الثورة تجعل الملامح جذابة .

العيون فى الوطن كانت شاحبة مليئة بالهزيمة . والهزيمة تجعل الملامح خالية من الجمال . حركة الجسم تصبح بطيئة ، ونظرة العين جانبية ، لا تواجهك

من الامام . لا ترتفع وتثبت فى عينك . والذراعان يتهدلان الى جوار الجسم فى مشية متعرجة . وعضلات البطن مرتخية . وخلايا العقل مرتخية . منذ الطفولة وانا أكره منظر الوجوه المهزومة . وجه خالتى نعمات بعد أن طلقها زوجها ، وخالى يحيى حين فشل فى الدراسة . ووجه عبد الناصر بعد الهزيمة . كالاسد الجريح مكسور العينين . والاسد المكسور قبيح الشكل ، وأجمل منه الاسد المقتول .

فى مركز القيادة فى عمان التقيت بالقيادات . رجال كلهم ، و « النني » داخل عيونهم يتحرك فى كل الاتجاهات بلا توقف . يتكلمون أيضا بلا توقف ولا يسمعون الا انفسهم . احدهم يرتدى زى الصاعقة ومن حول وسطه حزام عريض مزركش يتدلى منه السلاح . اصابعه ناعمة واظافره شفافة نظيفة لم تعرف ملمس التراب . بشرته بيضاء لم تلوحها شمس الصيف ولا حرارة الارض . صوته له رنين معدنى ، دوى فى الاذن كأصوات الآلهة الخفية ويتحول الصوت دون أن يحرك شفتيه الى اوامر عليا .

أشعر بالاختناق حين تقودني الظروف التعيسة الى الجلوس وسط الآلهة فى مركز قيادة ، أو مكتب رئاسة او وزارة أو حيثما تكون القيادة . فالقيادة فى بلادنا سلطة ، والسلطة امتيازات . وقد تركت مصر مهبط السلطة مركزية ذات السيادة وامتيازات فى الدنيا والآخرة ، وجئت الى مركز الثورة الجديدة وجبهة لقتال . لكن يبدو ان القيادات هي القيادات ، فى السلم فى الحرب ، وفى الثورة . عجينة واحدة هذا النوع من لرجال رغم اختلاف الملامح ، واللهجة ، والازياء وحركة

الذراعين أثناء السير ، والعين لا تثبت أبدا فى العين .
والتقت عيناى وانا جالسة فى مركز القيادة بعينى شاب فدائى . أدركت من عينيه أنه فدائى وليس من سلالة القيادات . النظرة المباشرة الصريحة ، والعين تثبت فى العين فى خط مستقيم ، واليد أيضا تصافح والذراع ممدود مستقيم .
كانت له ذراع واحدة ، والذراع الثانية فقدها فى فلسطين . وساق واحدة ، والساق الثانية بترت فوق الركبة بعد معركة الكرامة فى ٢١ مارس ١٩٦٨ .
لم أكن حتى ذلك الحين أعرف معنى الحرب . لم اشهد فى حياتى حربا الا فوق شاشة السينما . مفرقعات وانفجارات وأجساد تسقط وأجساد تجرى وسيارات تنقلب وتحترق وطلقات رصاص ودوى مدافع ثم بنقشع الدخان وتسطع الشمس ويخرج الناس من بيوتهم الى الحدائق يرقصون ويغنون رافعين رايات النصر . وفى طفولتى لم أعرف عن الحرب الا صوت صفارة الانذار . صفارة غليظة متقطعة كبوق السيارة العتيقة ، وأمى تجرى فى غرفات البيت تطفىء الانوار وأبى يغلق شيش النوافذ ويترك الزجاج مفتوحا ، ومن باب المطبخ أتسلل الى الفناء الخلفى ، وتتعلق عيناى بكشافات الانوار تتحرك فى السماء السوداء وتملأ الكون بأشباح ضوئية بيضاء كالآلهة المسحورة ، وأصوات تدوى من بعيد كالرعد ، وأضواء تلمع وتختفى كالبرق ، بيضاء وصفراء وحمراء تشبه صواريخ العيد . ثم تدوى صفارة الامان . صفارة طويلة حادة غير متقطعة كصفارة القطار . ويعم ضوء الكهرباء فى بيتنا وكل البيوت ، وصوت الراديو يرتفع بالغناء . كنت لاأزال

صغيرة والعالم كبيرا ، واسمع ابى يقول ان الحـرب بين الانجليز والالمان . ولم اكن اعرف الفرق بين الانجليز والالمان ، واذا مات الانجليز فى الحرب أو مات الالمان كلاهما عندى سيان مادمت أفتح عينى فى الصـــباح فأجد امى وابى وجميع اخوتى أحياء ولم يموتوا .

وحين كبرت وبدأت أفهم أكثر عرفت أسم اسرائيل ، وتدوى صفارة الانذار بالصوت الغليظ المتقطع ، ويعم الظلام الدامس ، وزجاج النوافذ طلاؤه ازرق داكـن وضوء السيارات أزرق ، ووجوه الناس من حولى تشوبها زرقة . ولاول مرة في حياتي أسمع كلمة الموت ، مجرد كلمة سمعتها ، ارتبطت فى ذهنى بالزرقة الداكنة فوق الوجوه والجدران والنوافذ ومصابيح النور ، وبـكلمة اخرى اسمها اسرائيل .

لكنها ظلت مجرد كلمة « اسرائيل » أو « الحرب » أو « الموت » . وظل الموت بعيدا عن ذهنى لا أكــاد أذكره واظن انه غير موجود ، حتى دخلت كلية الطب وعلى منضدة التشريح رأيت لاول مرة وجه انســان ميت .

***

لازلت أحملق فى وجه الشــاب الفدائى . عينــاه مرفوعتان الى أعلى وفيهما بريق . يتطلع نحو الطريق . وهو جالس الى جوار السائق وفى يده السلاح ، ويده الثانية مبتورة ، والسيارة مصفحة من النوع «الجيب» . اجلس خلف السائق والى جوارى ثلاثة من الفـدائيين المسلحين منهم فتاة فدائية اسمها « أسماء » . عينـاها كعيون الشباب . البريق والعين المرفوعة تثبت فى العين ولا تتذبذب . وخلفى تجلس « أم يوسف » ، امــرأة

متوسطة العمر ، ملامحها ريفية تشبه ملامح عمتي بهية، تلف رأسها بمنديل أبيض يسمونها ام الفدائيين . وصلت بنا السيارة الى الكرامة ، خراب وحطام ، والصمت كالهواء الثقيل الراكد يتحرك من حين الى حين على صوت انفجار مكتوم . البيوت كلهـا متهدمة والاسلاك مقطوعة وعربات كقطع الفحم الاسود ، ولا أحد من السكان . لا شيء الا الاحجار ، بقايا بيوت متناثرة ، وبقايا أثاث ، وفردة حذاء طفل ورائحة دم جف ، وشجرة محترقة .

سرت مع الفدائيين بين الركام ، ثم انشقت الارض فجأة عن شاب طويل نحيف يلف رأسه بكوفية بيضاء فيها دوائر سوداء . عيناه سوداوان فيهما البريق والنظرة المباشرة ، والعين تنفذ فى العين وتظل ثابتة . قادنا الى مغارة قريبة من حافة النهر فى بطن الارض ومجموعة من الشباب المسلحين في وضع الاستعداد ، عيونهم نحو الضفة الغربية شاخصة ، وحنين الى الارض التى ولدوا عليها ثم طردوا منها بقوة السلاح . تطل الارض عليهم من وراء نهر الاردن . الضفة العالية الخضراء . الوطن والاهل والام الممزقة بين الضفتين . الام المقتولة تحت الجدار . والاب المطعون فى الصدر والبطن والظهر . والطفل الذى لم يبق منه الا فردة حذاء . ومن أرض الوطن حيث اسرائيل الآن تنطلق مدافع الهاون تقذفهم بالدانات ، وطائرات امريكية الصنع تلقى الصواريخ وقنابل النابالم .

تلقى أحد الشباب الاشارة ، واختفينا جميعا داخل المغارة . صوت المدافع والقذائف يرج جدران المغارة . غبار يتساقط من السقف . اتطلع بعينى فوق راسى .

السقف أسود بلون الارض ، خشن ومشقق كالارض ، وحروف محفورة فوق الجدار بخط متعرج كشقوق النمل ، واسم محمود درويش :

انني مندوب جرح لا يساوم .
علمتني ضربة الجلاد أن أمشي وامشي واقاوم ،
ربما أعرض للبيع ثيابي وفراشي ،
ربما اعمل حجارا وعتالا وكناس شوارع
ربما ابحث في روث المواشي عن حبوب
ربما أحيا عريان وجائع
ياعدو الشمس ، لكن ، لن أساوم
والى آخر نبض في عروقي سأقاوم .

« أسماء » الى جوارى قابعة عند فوهة المغارة ، سلاحها في يدها ، وعيناها تخترقان الارض والسماء حتى رام الله ، الارض التي ولدت عليها ، ورات اباها يذبح أمام عينيها .

وفى الليل تسللت وفوق صدرها قنبلة ، القتها على ثلاثة من جنود اسرائيل ، مات اثنان وجرح الثالث . وعادت الى بيتها . وفى يوم آخر حملت قنبلة أخرى والقت بها على سينما صهيون . وفى المرة الثالثة امسكوها وهى تحمل المتفجرات فحبسوها وعذبوها لتعترف بأسماء زملائها ولم تعترف . اعتدوا عليها جنسيا حتى أغمى عليها ولم تعترف . أطفأوا في جسدها السجائر وخلعوا اظافرها وظلت مطبقة بأسنانها على شفتيها دون أن تنطق . ولما يئسوا منها القوا بها على الجسر وسارت حافية حتى الضفة الشرقية . دخلت المستشفى في السلط ثم خرجت بعد ثلاثة شهور وعلى جسدها آثار جروح وفى يدها سلاح

خندق ، قابعة عند فوهة المغارة ، وعيناها على الضفة الغربية ، واذناها مرهفتان لصوت المدافع . تعرف نوع المدفع من صوته ، وتعرف أيضا من أى مسافة يضرب : هذه ضربة مدفع ماية وخمسين من مسافة خمستاشر كيلومترا .

وعلى باب المغارة رايتها جالسة ، « أم يوسف » براسها المربوط بالمنديل الابيض ، وبشرتها المحروقة بالشمس كعمتى بهية . عيناها شاخصتان نحو الضفة . عينان واسعتان غائرتان تغطيهما طبقة متجمدة من الدمع وتحت حاجبها الايسر ندبة . جفناها مفتوحان لا يرمشان والمدافع تدوى ، والسماء والارض تمتزج فى كتلة نار واحدة يلفها الغبار .

ظلت جالسة تنتظر ، ثم رايتها تنتفض واقفة ثم تجرى بلا توقف حتى تصل الى حافة النهر . ظلت واقفة على الحافة تروح وتجىء فى قلق كأم ضاع منها طفلها الوحيد . ثم رأيت النهر ينشق فجأة عن ثلاثة من الشباب يحملون شابا جريحا ، اندفعت نحوهم تحمل معهم الجريح ، وبأربطة الشاش والقطن ضمدت الجروح ثم حملته معهم الى السيارة الجيب ، التى انطلقت كالسهم الى مستشفى السلط . وفى المستشفى رايتها تمر على المصابين واحدا واحدا تفك الرباط المتسخ وتضع الرباط النظيف . سمعتهم ينادونها « امنا » كما ينادون الارض والوطن . وهى تناديهم « أطفالى » كما تنادى الارض نبتها الاخضر . لم تتزوج ولم يكن لها بيت ولا رجل لكن البيوت كلها بيتها ، والرجال كلهم رجالها ، والنساء نساؤها والشباب شبابها . واسمها

الاصلى « أم يوسف » وفى ذاكرتها منذ ثلاثين عاما قصة حب كبير ، وطفل اسمه يوسف لا تذكر الا اسمه ، كأنه مجرد خيال وحلم ، أو جنين لم تلده أبدا ، أو ولدته وضاع فى الضفة .

كانت عربة الاسعاف قد حملت الجريح من جوار النهر وانطلقت بنا فى الاغوار تشق طريقها نحو السلط حينما رأيت شبحا يجرى خلفنا وكأنما انشقت عنه الارض . واتضح لى بعض لحظاته انه امراة تجرى وراء العربة . وطلبت من السائق ان يتوقف ، فاندفعت المرأة نحو العربة دون أن تحدثنا أو تلتفت الينا ، ونظرت متفرسة فى وجه الجريح ثم بأصابعها النحيلة راحت تقلب فى يديه وقدميه . وأمسكها الفدائى برفق وأبعدها عن الجريح ، وهمس فى أذنى بصوت حزين : انها لا تسمع احدا ولا ترد على أحد ، بالنهار تتجول بين الخيام تتلفت حولها ، وفى الليل نرى جسمها مرتخيا ممدودا بحذاء النهر ، وحينما تلمح جريحا أو غريقا تهب واقفة وتجرى اليه ، تفتش فى ملامحه وفى يديه وقدميه كأنما تبحث عن شخص تعرفه .

رأيت هذه المرأة كثيرا خلال الفترة التى عشتها فى السلط . كانت تندفع أحيانا وراء عربة الاسعاف . وفى أحيان أخرى أراها راكعة بين الصخور فى الاغوار تنبش الارض وتأكل التراب . والتقيت بها مرة وهى تتجول بين الخيام وجها لوجه ، ورفعت الى عينين واسعتين تغطيهما طبقة متجمدة من الدمع ، وجرح عميق تحت العين كالندبة . تشبه « أم يوسف » لكنها لم تكن أم يوسف . وتشبه عمتى بهية لكنها ليست

عمتى بهية . ملامح وجهها مؤكدة لكن جسدها يذوب في الضوء مع العناصر الاخرى فيما يشبه الضياع . ولا أحد يعرف اسمها الحقيقي وينادونها « عين الحياة » .

وحين عدت الى مصر ظلت هذه المرأة تلوح لى فى منامى بعينيها الغائرتين ، تؤرقنى وتوقظنى من عز النوم وفى ليلة مؤرقة أمسكت ألقلم ورسمتها فوق الورق على شكل قصة اسمها « عين الحياة » .

مؤتمر النساء فى هلسنكى

كانت هى اول رحلة الى تلك المنطقة الباردة ـ القريبة من القطب الشمالى ، والتى يطلق عليها اسم البلاد الاسكندنافية ، تلك البلاد المحصورة بين المعسكرين الكبيرين الشرقى والغربى ، تفصل بينهما كحاجز من مادة عازلة لا توصل الحرارة ، باردة وهادئة وساكنة كنقطة فى حبل طرفاه مشدودان بقوتين متعادلتين .

هذا السكون هو الصفة الغالبة على تلك البلاد وأهلها ، حتى الطبيعة تبدو ساكنة فلا الليل يعقب النهار ولا النهار ينتهى بقدوم الليل ، وانما تظل الشمس فى السماء ساكنة بغير حراك لا تغرب ولا تسقط وراء الافق ، ويظل لون شفقها الاحمر ثابتا فى السماء ، ويكاد يختلط الامر على العين فلا تكاد تعرف أهى سماء حقيقية أم لوحة لفنان .

وبعد منتصف الليل أعود الى حجرتى الصغيرة فى فندق « غالى » فى هلسنكى . الشمس وراء الغابة الكبيرة معلقة فى السماء ولا أكاد أعرف الليل من النهار لولا التعب الطبيعى يصيب اجسامنا ساعة النوم فأسدل الستارة الكثيفة على زجاج النافذة لاخفى ضوء الشمس ولأصنع داخل غرفتى ليلا صناعيا فأستطيع أن أنام . كنا فى يونيو عام ١٩٦٩ ، وهذه الليالى البيضاء فى فنلنده تستمر تسعون ليلة فى فصل الصيف ويقابلها فى الشتاء الايام السوداء حيث لا نهار

ولا شمس وانما ليل دائم طوال الاربع وعشرين ساعة .

وشوارع هلسنكى نظيفة هادئة ، ووجوه النـــاس نظيفة هادئة ، لا يكاد يبدو عليها انفعال . سكون غريب فى العيون كسكون البئر فيه صفاء ولكنه صفاء بارد برودة الماء المخزون فى بطن الارض .

وكل شيء فى هلسنكى بارد وساكن ، حتى شـمس الصيف وعيون النساء وعيون الرجال أيضا ولعل ذلك انعكاس الطبيعة الباردة أو انعكاس السياسة المحايدة الصامدة بغير انفعال نحو شرق أو غرب ، أو يســار او يمين .

ولكن هذا هو سطح هلسنكى الخارجى .. هــذه هى الطبقة الثلجية المتجمدة على سطح بحر فنلنــده اذا ماكسرت بالسفن الفنلندية الحديثة أو ذابت تحت شمس الصيف انبثق الماء من تحتها غزيرا ودافئا .. وكشفت القلوب الفنلندية عن طبيعتها الانسانية التى لا تختلف عن الطبيعة الانسانية فى أى مكان وزمان .. وحتى فى السياسة ... تحت تلك الطبقة الحيــادية الباردة بغير انفعال صراع دائم بين ثمـــانية أحــزاب سياسية ...

المحافظين ـ الاحرار ـ الوسط ـ الفـــلاحين ـ « الاشتراكيين الديمقراطيين » ـ حزب المعارضـــة ـ « الفنلنديون الديمقراطيون » ـ الاقلية السويدية .

ويقابل الحزب الاشتراكى الديمقراطى حزب العمال فى بريطانيا ويمثل حزب الفنلنديين الديمقراطيين أقصى اليسار .. وهذان الحزبان يفوزان وحدهما بنصــف مقاعد البرلمان ويفوز بالنصف الباقى ممثلين عن الاحزاب الستة الاخرى .. ولم يحدث أن فاز حزب واحـــد

بالاغلبية .. ورغم الصراع الدائم بين ممثلى اليسار وممثلى اليمين الا أن حالة التوازن تكاد تكون دائمة والحكومة تمثل مجموعة من الاحزاب وليس حزبا واحدا .

حصلت فنلنده على استقلالها وأعلنت جمهوريتها المستقلة وخرجت من تحت سيطرة روسيا القيصرية سنة ١٩١٧ وهى نفس السنة التى تحررت فيها روسيا نفسها من قبضة القيصر وتكونت أول دولة اشتراكية فى الاتحاد السوفياتى برئاسة لينين .

ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية وتوقيع معاهدة السلام فى باريس سنة ١٩٤٧ أعلنت فنلنده تصميمها على الوقوف على الحياد وبقائها خارج صراع القوى الكبيرة فى العالم ..

وفى سنة ١٩٥٢ تكون مجلس الدول الاسكندنافية الذى يضم الدول الخمسة : السويد . النرويج . الدانمارك . ايسلانده . فنلنده . وأصبح يسود هذه المنطقة الشمالية من أوربا نظام أجتماعى وسياسى واحد وجواز سفر واحد وموقف واحد داخل هيئة الامم المتحدة .. هو الموقف الحيادى الدائم البارد بغير انفعال مهما انفعل العالم ومهما بلغ الصراع ذروته بين مايطلق عليها بالقوى الكبيرة فى العالم .

هذا هو الموقف الحكومى .. أما الشعب فهو كأى شعب آخر فى العالم لا يمكن أن يكون حياديا فى عالم يغلى والحروب تشتعل هنا وهناك ويقتل بعضه بعضا ...

قالت لى احدى السيدات الفنلنديات : قرانا كثيرا عن كفاح شعب فيتنام .. وعن الحروب الدائرة

فى الشرق الاوسط .. وشعب فلسطين الذى طرد من وطنه .. الاستعمار والامبريالية الامريكية هى التى وراء كل هذا !! وضاعت القشرة الخارجية الساكنة وبدأ الانفعال والنقاش .

كان المؤتمر ضخما ، وكله من النساء . نظمه الاتحاد النسائى الديمقراطى العالمى . أكثر من ألف امرأة يمثلن ٩٢ دولة ، ثم ممثلات المنظمات الدولية وعددها ثلاثون أو أكثر . ولاول مرة فى حياتى أعيش خمسة أيام كاملة فى مجتمع نسائى من كل الجنسيات .

وكنا مجموعة من النساء المصريات والعربيات . عددنا يبلغ المائة وكل دولة عربية أرسلت وفدا من خمس نساء أو أكثر ، يمثلن الحكومات العربية . ولكل وفد رئيسة تجلس فى الوسط ومن أمامها لافتة بيضاء كتب عليها اسم الدولة ، وعلى صدر كل واحدة دبوس ولافتة بيضاء كتب عليها اسمها ولقبها .

وجلست فى أحد المقاعد المخصصة لوفد مصر ، ولم أعلق الدبوس فوق صدرى . منذ الطفولة وأنا أكره الدبابيس المعلقة فوق صدور النساء . ومنذ أول مؤتمر حضرته فى كلية الطب وأنا أكره منظر اللافتات فوق الصدور ، وحروف الاسم واللقب معلقة فوق جسم الانسان ، كما تعلق الماركة والسعر واسم الدكان فوق الاحذية والملابس وعلب السردين . ومن حولى الف امرأة مكدسات فى القاعة ، والنوافذ مغلقة ، والهواء الصناعى المكيف يختلط فى صدرى برائحة العطور الانثوية ، وكلمات رئيسات الوفود من فوق المنصة ترن فى رأسى كضربات المطرقة .

عطست بصوت عال وأنا جالسة لاطرد الهواء الصناعى

والكلمات المصنوعة ، وسمعتنى رئيسة الوفد المصرى
وانا أعطس فرشقتنى بنظرة حادة من فوق المنصة ،
ولمحت صدرى الخالى من الدبوس فاعتبرتنى ضد
النظام ، وجاءت جلستها بعد أن هبطت من فوق المنصة
الى جوار امرأة من اسرائيل فانتفضت مذعورة ولملمت
أوراقها واسرعت فى الممر بين المقاعد لتجلس فى مكان
آخر ، وعضوات الوفد الاخريات يتبعنها حيث تذهب ،
يتأرجحن على كعوبهن العالية الرفيعة من خلفها كسرب
بطىء من البط .

منذ الطفولة وانا أكره احذية امى ذات الكعب العالى .
لكن أكثر ما كرهته هو دور التابع ، ومنظر الخادم وهو
يسير خلف أبى أو أمى .

وظللت جالسة فى مكانى ، وكان بينى وبين المرأة
الاسرائيلية مسافة تزيد عن المترين . وظهرى ناحيتها
وعيناى ناحية المنصة ، لكن رئيسة الوفد اعتبرتنى وكأنما
عقدت صلحا مع اسرائيل .

وحظيت قضية فيتنام بالصدارة فى كلمات الوفود ،
اشتركت جميع الوفود فى ادانة السياسة الامريكية
واعتدائها على شعب فيتنام ، ووقفت على المنصة فتاة
فدائية من فيتنام اسمها ونتوانتو ، بملابسها الكاكى ،
وعيناها الطويلتان المسحوبتان الى أعلى . لم تتجاوز
الاربعة وعشرين عاما وتقود سرية فى جنوب فيتنام .
فقدت أختها فى الحرب ، وأسر أخوها ومنذ تسع
سنوات وهى تحارب ، استطاعت سريتها تحت قيادتها
ان تسقط طائرة امريكية وتحرق سفينة وتقتل مائتى
جندى أمريكى . هى وحدها قتلت ٣٥ جنديا أمريكيا .
جسمها صغير كالطفلة ، وضفائرها طويلة كتلميذات

المدارس ، وابتسامتها رقيقة كالام ، وهى نفسها أم لطفل عمره ثمانية شهور ، لكن النظـرة الثاقبة فى عينيهـــا وخطوتها السريعة كوثبات الفهد تؤكد لى انهـــا يمـكن ان تقتل .

وجاءت قضية فلسطين بعد فيتنام ، ووقفت مندوبة فلسطين على المنصة . حكت تاريخ نشأة اسرائيـل أ، وآلة الحرب الاسرائيلية والانجليزية ثم الامريـسـكية ، والشعب الفلسطينى الذى قتل بالآلاف ، وطـرد من ارضه ، واصبح يعيش الخيام خارج وطنــه ، والقهر والاذلال فى الارض المحتلة داخل اسرائيل .

وحظيت القضية الفلسطينية بتأييد الوفود كلها الا وفدى رومانيا واسرائيل .

***

رأيتها لاول مرة وهى جالسة وسط مجموعة مـــن النساء وقلت لنفسى هذا الوجه مألوف اين رايته وفى لحظة عرفتها .. انها فالنتينا التى طالعتنا صورها فى الصحف بعد أن طارت فى سفينة الفضاء ثم عادت الى الارض لتحمل على صدرها النجمة الذهبية . جاءت فالنتينا الى هلسنكى رئيسة لوفد الاتحاد السوفيتى فى المؤتمر . شابة نحيفة الجسم دقيقة الملامح لهـــا انف مستقيم مدبب وعينان زرقاوان عميقتان ، وشـــفتان دقيقتان مطبقتان لا تعرفان الثرثرة وقلمـا تنفرجان رغم البسمة الطبيعية الهادئة تكسو ملامح وجهها الصغير . والتفت حول فالنتينا النساء من مختلف الوفود يعانقنها ... وتوالت عليها كلمات الاعجاب وكثير من الاسئلة .. كيف صعدت الى السماء ؟ هل شعرت بخوف ؟ العالم كله يعترف ببطولتك . فهل تشعرين انك عظيمـة ؟

وانت جميلة ايضا ورقيقة . فكيف قمت بهذه الرحلة العجيبة ؟ وعانقتها احدى السيدات وهى تلهث قائلة لم أتصور أننى سأراك بعينى فى يوم من الايام ... لم اتصور أنك امراة مثلنا من لحم ودم ..

ورغم هذا الجو المفعم بالاعجاب لم يبد على فالنتينا اى زهو بنفسها وظلت ملامحها هادئة باسمة ولم تنس فى غمرة الاعجاب بها بقية عضوات الوفـد الســوفيتى فقدمتهن واحدة واحدة الى النساء وقالت بصــوت هادىء : لست وحدى .. عندنا بطلات من النساء فى كل مكان من الاتحاد السوفيتى يكافحن كل يوم من اجل بناء المجتمع .

ولم تتكلم فالنتينا كثيرا بل تكلمت بضع دقائق قليلة ثم اعطت الكلمة لزميلاتها عضوات الوفد وبدأ الجميع يشترك فى الحديث والمناقشة .

وفى اليوم الاخير من المؤتمر صدرت القرارات والبيان الختامى فى ورقة وزعت علينا على النحو التالى :

الى كل نساء وامهات العالم :

جئنا الى هلسنكى مندوبات عن ملايين النســاء من مختلف البلاد لندرس دور المراة فى عالمنا الحاضر . كانت النساء فى الماضى يهبن حياتهن لاعمــال البيت اليومية واليوم أصبحن يشاركن فى كل ما يجــرى فى العالم وفى كل مايتعلق بمشاكل بلادهن ، وادركن أن حل هذه المشاكل يرتبط ارتباطا وثيقا بتحقيق الاستقلال الوطنى والحرية والسلام كما يرتبط بحصولهن عــلى حقوقهن السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ... وأن النساء فى كفاحهن من أجل التحــرير ومن أجل المساواة بالرجل ومن أجل تحقيق حياة افضل

في الاسرة وفي المجتمع وفي العمل يمثلن قوة تقدمية ضد التخلف وضد الاستغلال . اننا نمثل بلادا مختلفة في سياساتها وننتمي الى مجتمعات ومعتقدات مختلفة الا اننا نتفق جميعا على أن العالم يواجه الآن خطرا يقتضي منا كل جهودنا وتضامننا .

اننا ندين الاستعمار العالمي والامبريالية العالمية في حربها الوحشية ضد شعب فيتنام ، وفي لاوس وفي كوريا وفي الشرق الاوسط . اننا ندين اسرائيل ومن ورائها الامبريالية العالمية في عدوانها على البلاد العربية. ان اكثر من مليوني لاجيء فلسطيني قد طردوا من وطنهم ... اننا نؤيدهم في حقهم لمقاومة العدوان وحقهم في العودة الى وطنهم .. اننا نطالب بحقوق الشعب الفلسطيني التي أهدرت ونؤيد بقوة كفاح الشعوب العربية ضد العدوان ونطالب بانسحاب كل القوات الإسرائيلية من الاراضي العربية المحتلة ونطالب بتنفيذ قرارات مجلس الامن الصادرة في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٧ .

اننا نؤيد كفاح الشعوب الافريقية في حربها ضد الاستعمار القديم والجديد ونؤيد كفاح شعب أنجولا وموزمبيق وغينيا البرتغالية ضد الاستعمار البرتغالي ونؤيد كفاح شعب جنوب افريقيا وروديسيا ضد نظم التفرقة العنصرية والفاشستية في بلديهما .

واننا نؤيد كفاح الشعب الكوبي ضد اي ضغوط اقتصادية وسياسية وعسكرية . واننا نؤيد كفاح أي شعوب في العالم من أجل الاستقلال والحرية والسلام . ونؤيد شعب اليونان وأسبانيا والبرتغال وشعوب أمريكا اللاتينية ضد اي قوى فاشستية ديكتاتورية .

اننا نؤيد اى حركة تناضل من أجل القضاء على التفرقة العنصرية فى امريكا وفى أى مكان من العالم . اننا ندين الامبرياليه الامريكية لانها هى القوة وراء كل العدوان والحروب فى العالم أنها القوة المؤسسة للأحلاف العسكرية وأن قواعدها تنتشر فى العالم من جوانتانامو الى قبرص وفى آسيا وافريقيا واستراليا واوروبا . انها المسئولة الاساسية عن التسابق الى التسلح الذى يبتلع ملايين الدولارات ويبتلع الامكانيات البشرية الطائلة التى يحتاجها العالم اشد الاحتياج للقضاء على الجوع والمرض والفقر والجهل .

***

دعتنى احدى السيدات الفنلنديات لتناول العشاء فى بيتها .. وفى سيارتها الصغيرة تجولنا فى شوارع هلسنكي النظيفة ومررنا بالغابات الخضراء والبحيرات الصافية كالماء المقطر .. ووصلنا أخيرا الى بيتها الصغير وسط الشجر والماء ، ومن الشرفة وقفت اتطلع وهواء الليل كان باردا منعشا ، وأشعة الليل تسقط على سطح البحيرة الساكن ، اشعة بيضاء غريبة تختلط على العين فلا تكاد تعرف أشمس أم قمر هذا الذى يضىء الكون . لكنها الشمس المعلقة فى السماء بالليل .

تجولت فى أنحاء الشقة الفسيحة الغارقة فى الصمت والهدوء ..

ــ تعيشين وحدك ؟

ــ معى ابنى .

ــ وزوجك ؟

ــ لم أتزوج .

وسكت لحظة ثم قلت :

ـ أهذا شيء عادى هنا ؟
ـ نعم .
ـ وابنك ؟ ما نظرة المجتمع اليه ؟
ـ كأي ابن آخر . انه يحمل اسمى وهذا شرف له لانى امرأة لى عمل ناجح .
ـ الا توجد عندكم مشكلة اسمها أطفال غير شرعيين ؟
ـ نحن لا نعرف هذه التسمية .. كل طفل يولد هو طفل شرعى .
ـ ولماذا لم تتزوجى ؟
ـ كنت احبه واريد أن أتزوجه ولكنه لم يرغب فى الزواج منى .
ـ الم تقابلى رجلا يرغب فى الزواج منك ؟
ـ قابلت بعضا منهم .. ولكنى لم أحبهم .
ـ كأنك لا توافقين على الزواج الا بعد الحب ؟
ـ هذا شيء طبيعى .
ـ وهل تعيشين الحب الآن ؟
ونظرت الى وقالت :
ـ هل وجدت تناقضا بين شخصيتى التى عرفتيها فى المؤتمر وبين حياتى الخاصة ؟ اننا هنا نفصل بين العمل وبين الحياة الخاصة . فى ساعات العمل انا اعطى كل نفسى للعمل وفى ساعات الراحة والاستمتاع بالحياة أعطى كل نفسى للراحة والاستمتاع بالحياة . أما مسألة الزواج أو لا زواج فهذا شيء لا أحدده وحدى وانما يحدده معى الرجل .. والآن دعينى أسألك سؤالا صريحا .. ماذا تفعلين لو احببت رجلا ثم رفض الزواج منك ؟ الا يحدث ذلك أحيانا عندكم ؟
ـ يحدث كثيرا .

ـ وماذا تفعل المرأة عندكم فى هذه الحالة ؟
ـ هذا موضوع يطول شرحه .. ولكن هذه الحريا موجودة فى كل البلاد الاسكندنافية ؟
ـ بالطبع . ولكنى اعتقد أن المرأة الفنلنـدية أكثر تقدما من غيرها .. وربما يكون هذا تحضرا ولـكن التاريخ يثبت ذلك فقد كانت المرأة الفنلندية أول امرأة فى اوروبا تحصل على حقوقها السياسية وكان ذلك فى سنة ١٩٠٦ .

كان اسمها « ناتاشا » وهى عضو فى جمعية الصداقة العربية الفنلندية . دعتنى اليها ، والتقيت هناك برجل فنلندى طويل ضخم اسمه : ارماس صالنن ، وهـو رئيس الجمعية ، وصديق العرب ، يتكلم اللغة العربية الفصحي ، ويقول أنها أصعب لغة فى العالم ، ومن بعدها تأتى اللغة اليونانية الفصحى ثم اللغـة الهنـدية القديمة . وأسهل لغة فى رأيه هى اللغة التركية .

وفى الليلة الاخيرة فى هلسنكى لم انم . ظللت أطل علي الكون من نافذة غرفتى .

الضوء ينتشر فى الغرفة طول الليل كضوء النهار .

قبل الفجر اعددت حقيبتى . سأغادر بعد ساعة فنلندة مع مجموعة من النساء ، فى أول رحلة لى للاتحاد السوفياتى . كان المفروض أن أعود الى القاهـرة بعد انتهاء مؤتمر هلسنكي ، لكن فالنتينا رائدة الفضـاء دعتنا لزيارة بلدها . ولم اكن رأيت روسيا من قبل الا فى الروايات ، وافلام السينما . وفي ذهني للاتحـاد السوفياتى صور متناقضة بعضـها مشرق كضـوء الشمس ، وبعضها غامض مظلم كالوجه الآخـر مـن القمر .

سمعت كلمة « الاشتراكية » لاول مرة من أبى وانا فى العاشرة من عمرى . وحين دخلت المدرسة الثانوية التقيت بفتاة سمراء نحيلة اسمها « سعاد » ناولتنى جريدة اسمها « الجماهير » . وفى كلية الطب التقيت بطالب اسمه « يسرى » ناولنى جريدة اسمها « الجميع» وكان الطلبة يطلقون على « يسرى » اسم « الطالب الاحمر » .

وقبل أن أتخرج فى كلية الطب قرأت تولستوى ودوستيوفسكى وماركس وانجلز ولينين وكروبسكايا وبوشكين وجوركى وترجنيف .

وكان دوستيوفسكى أقرب الى من تولستوى ، وفردريك انجلز وكروبسكايا أقرب الى من كارل ماركس ولينين .

ومن شرفتى ظللت أطل على الليلة الاخيرة البيضاء وهى تنتهى . دهشتى لا تزال كأول ليلة فى فنلندة ، والليل الابيض ينحسر عن نهار أبيض ولا أكاد أعرف الليل من النهار الا بحركة السيارات وظهور الناس فى الشارع .

وفى خيالى صورة للاتحاد السوفياتى مضيئة وبيضاء كليالى الصيف فى فنلندة ، لكنها أيضا كالليل الصامت لا تزال غارقة فى السكون الغامض .

أول رحلة الى العالم الاحمر

ركبنا القطار من هلسنكى الى لينندجراد . كل أربع نساء فى حجرة ، وكل حجرة بها أربعة أسرة ، اثنان منهما فى الدور العلوى ، لا يمكن للمرأة السمينة أن تقفز الى السرير العلوى ، وقفزت بهيجة الافغانستانية الى السرير العلوى وقفزت الى السرير المقـــابل وقالت بهيجة : أنت رشيقة جدا ، هل تزوجت ؟ قلت : نعم ثلاث مرات ، وعندى طفلان ، وأنت ؟ قالت : عنـــدى سبع أولاد من زوجين . وضحكت ، ثم صمتت طـويلا وقالت بعد فترة وفى صوتها حزن : لازلنا نهدم القيم البالية فى مجتمعنا لنبنى مجتمعا جديدا يتمتع فيـــه الناس بالعدالة . لا يمكن أن يهدأ الناس اذا حـــكموا بالقوة ، قد يبدو عليهم الهدوء ولكن اذا ما نبشت السطح وجدت الثورة .

وسمعنا ضجة بممر القطار فقفزنا الى الخارج ورأينا « روزا » الارجنتينية تحتضن الجيتار وتغنى بالاسبانية: أنا سجين أكسر قيودى واخرج الى الهواء . وافترشت أرض القطار من حولها نساء أمريكا اللاتينية وراحـوا يرددون معها مقاطع الاغنية .

وسرت عدوى الغناء الى النساء وبدأت كل مجموعة تغنى أغنية بلغتها الشعبية . غنت النساء العـــربيات والله زمان ياسلاحى . وغنت النساء الســـوفيتات كاتيوشا . وغنت أوكيتا وونتى انتو نشيد شعب فيتنام

وغنت تشارلى الزنجية الامريكية : وجهى أسود ولكن قلبى أبيض .

وعلا صوت النساء على صوت القطار وارتفعت فى الجو أصوات ونغمات بمختلف اللغات واللهجات ، واختلطت الالحان العربية بالروسية بالافريقية بالامريكية بالاسبانية ، بالانجليزية ، بالفرنسية ، بالفيتنامية ، ووجدت نفسى أردد مع النساء لحنا لا أعرف كلماته ولا أعرف لغته ، وأصبحنا مجموعة واحدة من بلد واحد وتلاشت الفروق الصناعية التى تفصل الانسان عن الانسان .

وكانت فالنتينا رائدة الفضاء تجلس وسطنا ولها سرير صغير كسرير النساء وفى الدرجة الثانية بالقطار ، انظر الى وجهها وادهش للبساطة الطبيعية تكسو الملامح الهادئة .

ثم سمعنا صوتا يعلن من ميكرفون القطار اننا اجتزنا حدود فنلندة وأصبحنا فى أرض الاتحاد السوفيتى

اخرجت راسى من نافذة القطار فى استطلاع ، وفى لهذا البلد صور كثيرة ، بعضها من القراءات وانتشر وبعضها اقوال سمعتها .. الاقوال المتضاربة تصيب من يسمعها بتساؤل عن الحقيقة ورغبة فى أن يذهب بنفسه ليرى بعينيه ويحكم على الواقع .

وادرت عينى فى كل مكان خارج نافذة القطار ، انظر الى الشجر والارض والبيوت والتقط اى شخص يظهر فى شارع أو حقل أو بيت ، أدقق اليه النظر رغم حركة القطار .. وانظر الى ملابسه وحذائه ، لماذا الحذاء بالذات ؟ ولكن كم سمعت من اشاعات !

وكان كل شىء يبدو كما كان . الارض هى الارض

والاشجار هي الاشجار والناس هم الناس ولولا ذلك الصوت الذى أعلن اجتياز الحدود لظننت أننا لازلنا في فنلنده .

وعدت لسريرى لانام قليلا ثم استيقظت فجأة على صوت القطار وهو يقف . وهنا بدأت احس أننا في الاتحاد السوفييتى . كان رصيف المحطة مزدحما بالرجال والنساء والاطفال يحملون الزهور ويرحبون بوفود النساء ويلتفون حول فالنتينا . واخذت أدقق النظر في الناس ، كانوا يرتدون ملابس جميلة أنيقة وفي وجوههم نضارة وفي عيونهم بريق ، وجذبتني وجوه الاطفال النضرة . هؤلاء هم أهالى قرية «لوجيكا» أول قرية سوفيتية على الحدود . وسارت وفود النساء تتقبل التحيات والزهور الى استراحة المحطة الفسيحة حيث صفت الموائد . وجلست فالنتينا وسطنا وبدأت سدادات زجاجات الشمبانيا تتطاير مفرقعة في الهواء وتطايرت معها الضحكات والقفشات ، وأكلت النساء من كل بلاد العالم الكافيار الروسي واللحم والفراخ وشربن معا انخاب الصداقة والحرية والسلام .

دخل بنا القطار لينينجراد في منتصف الليل لكن قرص الشمس كان لا يزال في السماء يضيء المدينة الكبيرة بنور ابيض كالنهار ، ولمعت في الضوء الابيض القباب النحاسية الحمراء وانعكست المباني الضخمة المتشابهة على صفحة نهر نيفا ينساب تحت الكبارى ليصب في خليج فنلندة .

ومن خلف النهر تلمع قبة نحاسية من فوق مبنى ضخم غارق في الصمت والنسيان . أحد السجون القديمة وفي احدى زنزانات هذا السجن عاش

دستوفسكى فترة من حياته ، ومكسيم جوركى أيضـــا دخل هذا السجن قبل الثورة الاشتراكية وعاش وراء جدرانه يكتب .

ويواجه السجن على الضفة القريبة من النهر يلمع تمثال مكسيم جوركى منتصبا بقامته الطويلة فى الفضاء وقبعته فى يده . وعلى مسافة غير بعيدة ينتصـــب لينين بملامحه الدقيقة وقامته المتوسطة ويده المرفوعة نحو القاعة البيضاء . أول قاعة فى روسيا تشهد ثورة الفلاحين والعمال ، وعلى كراسيها الخشبية وعلى جانبى الكراسى وعلى النوافذ جلس العمال والفلاحون الثائرون فى يوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٧ ثم دخل لينين القاعـة بخطواته السريعة وأعلن أول دولة اشتراكية فى تاريخ روسيا .

وأخذونا فى زيارات للمصانع . أحدها مصنع العلم الاحمر . قالوا أنه من أكبر مصانع النسيج فى الاتحـاد السوفييتى . يعمل به عشرة آلاف عامـل منهـم ٨٥٪ نساء . ومديرة المصنع شابة أنيقة قدمت لنا مجموعة من السيدات قائلة : هذه سكرتيرة لجنة الحـزب فى المصنع ، وهذه مقررة لجنة الشباب ، وهذه رئيسة اللجنة النقابية ، كلهن شابات جلسن معنا حول مـائدة محلاة بالزهور وزجاجات المياه المعدنية والشمبانيـا وأطباق الكافيار الاسود والاحمر والسمك واللحـوم ، ولابد لنا أن نشرب الانخاب فى صحة المصنع والعاملات وفى صحة الصداقة والحرية والسلام .

وطفنا بأنحاء المصنع الضخم ، واستقبلتنا العاملات بابتسامات ووضعن على صدورنا الشارات والنجوم ، العمل عندهن ثمانى ساعات فى اليوم والاجازة الاسبوعية

يومان . الحد الادنى للاجور للعمال والعاملات ١١٠ روبل في الشهر والحد الاقصى ٢٠٠ روبل حسب الانتاج والمهارات . مديرة المصنع تأخذ ٣٠٠ روبل فى الشهر بالمصنع ست دور حضانة لجميع أطفال العاملات من سن شهرين حتى السابعة . من حق المراة العاملة أن تحصل على اجازة وضع لمدة سنة كاملة منها اربعة شهور بمرتب كامل ، شهران قبل الوضع وشهران بعد الوضع . بالمصنع مصيف خاص للاطفال ومعسكرات صيفية للأشبال والشباب فى مراحل عمرهم المختلفة من سبع سنوات الى ٢٨ سنة . بالمصنع مصحة خاصة للراحة ومستشفى . اجر الطبيب ١٨٠ روبلا فى الشهر واجر الممرضة ١٠٠ روبل فى الشهر .

ثم خرجنا الى ساحة كبيرة تتوسطها شعلة ومن خلفها نصب الجندى المجهول ومقابر ٧٠٠,٠٠٠ شهيد . اصطفت وفود النساء ومن خلفهن مئات السياح من بلاد العالم يحملون الزهور ويسيرون على أنغام موسيقى تشايكوفسكى ، تنبعث هادئة ، فيها قليل من الحزن وكثير من القوة ، وتتراكم الزهور البيضاء والحمراء عند قدمى الجندى المجهول حيث تلك الكلمات بالروسية :

« لن ننسى شجاعتكم وصبركم . لن ننسى الشتاء المظلم وقنابل سنة ١٩٤٣ .

لن ننساكم ولن نستسلم » .

وقالت لى صديقتى الروسية « نينا » : اهل لينينجراد صمدوا كالابطال ولمدة ٩٠٠ يوم فى وجه الحصار النازى . عاشت لينينجراد الحرب ضد الالمان نازيين من سنة ١٩٤١ الى سنة ١٩٤٥ ومات منها

مليون شهيد وقصفت المدينة بأكملها بالقنابل والمدافع ولكن انظرى .. كيف بعثت لينينجراد من جديد ! هذا هو اصرار الشعب على الحرية !

***

لم ار بلدا مولعا بالمتاحف كالاتحاد السوفييتى . لينينجراد وحدها بها خمسون متحفا . وكل شيء هنا له علاقة بالتاريخ أو الفنانين يمكن أن يتحول الى متحف والفنانون يحظون بتقدير يشبه التقديس . والادباء والشعراء تتحول بيوتهم الى متاحف وتقام لهم التماثيل وتسمى المدن بأسمائهم . وبالقرب من لينينجراد مدينة ـ بوشكين وتمثال بوشكين أمامنا وأصغر طفل يعرف أشعار بوشكين .

وكان لابد من قضاء يوم كامل بمتحف «الهيرميتاج» ولا يمكن أن ترى لوحات الهيرميتاج فى يوم واحد ، ولكن يمكنك أن ترى كل لوحات الهيرميتاج فى ثمانين عاما اذا مادخلت المتحف كل يوم بانتظام ولمدة سبع ساعات فى اليوم الواحد . حينئذ فقط تستطيع أن ترى كل لوحات المتحف لو وقفت أمام كل لوحة دقيقة واحدة . فكم عدد اللوحات ؟

ولم أحاول أن أبدأ بالتجربة ، فقد وقفت ساعة كاملة اتأمل تمثال « الولد المنحنى » لمايكل انجلو ، وساعة أخرى امام لوحة حب الاب ، لوحة غريبة ، فتاة ترضع اباها ، كان أبوها مسجونا وذهبت لتزوره فى زنزانته ، ولم يسمح لها أن تأخذ له طعاما ، واشفقت الابنة على أبيها من شدة الجوع ولم تجد أمامها الا لبن ثدييها فأرضعته .

واحتدم النقاش بين النساء حول اللوحة ... اليس

هذا حراما ؟ وماهو الحرام ؟! حبس الاب حتى الموت جوعا ؟! ام ارضاع الابنة لابيها ؟! ولماذا لا يتحول الاب الى ابن اذا دعت الظروف ؟!

ولم اشهد احتفالا كهذا الأحتفال ، حديقة القصر الصيفى فى ليننجراد تحولت صباح يوم ٢٢ يونيو الى كرنفال . والقصر الصيفى ، متحف الآن ، أحد قصور قيصر روسيا قبل الثورة . وقد رأيت قصورا فى مختلف بلاد العالم . ولكن ما أن دخلت قصر قيصر روسيا حتى ايقنت السبب وراء الثورة الاشتراكية فى روسيا ...

حديقة القصر بدت لى كالحلم ، أشجار وخضرة وزهور ورياحين واعناب تجرى من تحتها الجداول والنهيرات .. تماثيل من الذهب ، قباب ذهبية تنبثق من قممها المدببة نافورات مياه لايمكن عدها ولا يمكن معرفة ارتفاع مياهها ، مسرح من الرخام وسط النافورات ترقص عليه فرقة باليه ليننجراد رقصة بحيرة البجع .. راقصات الباليه بملابسهن البيضاء يرقصن بين نافورات المياه كحوريات الجنة أو جنيات فى الاساطير والحكايات تمثال لشمشون فى احد اركان الحديقة ومن حوله نافورات .. وتمثال آدم والتفاحة ومن حوله عرائس الجنة ، والاف من الرجال والنساء والاطفال جاءوا من كل انحاء الاتحاد السوفييتى ومن كل بلاد العالم لمشاهدة كرنفال الليلة البيضاء في ليننجراد ، يحملون الزهور ويرقصون على نغمات الموسيقى تنبعث من كل ارجاء الحديقة ، ووجوه تتألق بالحيوية وتنقل عدوى الحيوية الى كل من ينظر اليها ، والتفت حولى فى دهشة: احلم هذا أم علم ؟! ولا احاول أن اعرف الجواب فقد

اندفعت مع الراقصين على الانغام .

السفينة اسمها « ترجنيف » باسم الكاتب الروسى المعروف ، والنهر هو الفولجا أشهر أنهار الاتحاد السوفييتى ، يسمونه نهر الثورة والحب والالحان ، فهو النهر الذى يشق الجمهورية التتارية ، حيث نشأ لينين ، وكانت أسرة لينين تعيش فى تلك المدينة التتارية الصغيرة على نهر الفولجا والتى سميت الآن باسم أسرته « أوليانوس » .

وحينما وصلت بنا السفينة الى « أوليانوس » كان نهر الفولجا قد اتسع فلم نعد نرى الضفة الاخرى ، وقالوا ان اتساعه فى هذه المنطقة اربعون كيلومترا . وكان المطر ينهمر بشدة وتغير الجو فجأة فأصبح باردا شديد البرودة ، ورغم ذلك رأينا أهل أوليانوس ينتظروننا على شاطىء النهر يحملون الشماسى والزهور ، والموسيقى تعزف الاناشيد .

ونزل موكب النساء من السفينة وانهالت علينا الزهور والورود والتحيات والقبلات . لم أكن أتصور أن الشعب السوفييتى ينطوى على هذه الحرارة والعواطف ، او ان النساء لهن كل هذه المنزلة عند أهل التتار .

وكما يحدث فى كل استقبال ذهبنا الى حيث الموائد، وطارت سدادات الشمبانيا مفرقعة فى الهواء ، واكلت النساء الكافيار والسمك واللحوم ، وشرب الجميع نخب الصداقة والحرية والسلام . ثم ارتفعت الكئوس مرة أخرى وشرب الجميع نخب رئيس الطباخين الذى صنع مع زملائه الطباخين الاطعمة التى أكلناها . «يونس أحمد » وهذا هو اسم رئيس الطباخين « أهل التتار مسلمون وأسماؤهم عربية » رفع كأسه ورد على التحية

بكلمة شكر ثم جلس الى مائدته بجوار نائبة رئيس الوزراء التتارية والوزراء وأعضاء الحزب ، وبعد الطعام وقف الجميع وأنشدوا انشودة الوطن ، ثم بدات الموسيقى تعزف الالحان الراقصة وانخرط الجميع فى الرقص والغناء . رأيت نائبة رئيس الوزراء تعزف على البيانو ، ووزيرة التضامن الاجتماعى ترقص ، ووزير التعليم يشترك فى حلقة الرقص مع النساء . ولا شيء يبدو غير طبيعى . ولا احد يبدو أنه يختلف عن الآخرين . الكل مرح وعلى الوجوه تعبير بالاطمئنان .

ثم سرنا فى شوارع « أوليانوس » حتى دخلنا بيتا صغيرا من الخشب ، وجعلونا نرتدى فوق أحذيتنا احذية خفيفة مصنوعة من القماش ، وهذا نظام يتبع قبل دخول أى متحف للمحافظة على الارض من ملايين الكعوب المدببة وغير المدببة التى تفد من انحاء العالم . وبيت لينين فى أوليانوس أصبح متحفا يزوره كل يوم آلاف السياح ، وصعدت السلم الخشبى الصغير الذى يقود الى حجرة نوم لينين . حجرة صغيرة بغير باب يفصلها عن السلم ، وسرير معدنى صغير الى جواره منضدة عليها كتب محفوظة وراء الزجاج . وقرأت عناوين الكتب : راس المال لماركس ــ تاريخ الماركسية فى روسيا لباروفسكى ــ أصل العائلة لفردريك انجلز وكتب اخرى فى القانون والاقتصاد والفلسفة ، ولمبة جاز فوق المنضدة لها سلك كهربى ، تعمل بالكهرباء واذا انقطع الكهرباء تعمل بالجاز . وبعد حجرة لينين حجرة أخيه الكسندر الذى أعدم شنقا وهو فى الحادى والعشرين من عمره لاشتراكه فى مؤامرة لقتل القيصر ، وحجرة أمه والبيانو كانت تعزف عليه لاطفالها الستة ؛

وحجرة اخته « أنا » التي حبست ونفيت ، والكرة الارضية « اللعبة » التى كانت تلعب بهـا أختـاه الصغيرتان .

ونطوف بالبيت الصغير نستمع الى شرح المترجمة الروسية . كل ركن فى البيت له قصة وكل قطعة اثاث لها دور فى حياة اسرة لينين . وانظر من خلال نافذة حجرته الزجاجية فأرى فروع شجرة صغيرة تتدلى على الحائط ، أتخيله واقفا وراء النافذة نفسها يطل على الشجرة نفسها وذهنه شارد ، مشغول بالافكار التي دخلت رءوس العمال والفلاحين فى روسيا وأشعلت اول ثورة اشتراكية . ومات لينين سنة ١٩٢٤ لكنه ظل حيا فى كل مكان بالاتحاد السوفييتي . تماثيله فى كل قرية وكل مدينة ، وكلماته محفورة على الحجر ، وكتبه واقواله تكاد تكون محفوظة ، حتى جسده الميت لم يدفن ولم يتحول الى تراب ككل اجسام البشر وانما ظل جسدا محفوظا فى مقبرته فى الميدان الاحمر بموسكو .

وهذا هو شارع مكسيم جوركى ، وهذا هو متحف جوركى ، ودخلنا بيتا صغيرا من الخشب فى أحد شوارع اوليانوس ، وارتدينا الاحذية القماش ، وهبطنا بضع درجات مظلمة فأصبحنا فى البدروم ، وهو المخبز الذى عمل فيه جوركى فترة من حياته . ورأينا الفرن والمنضدة الخشبية التى يوضع عليها الخبز ، وتحت الطاولة على الارض الاسمنت كان ينام جوركى ويثنى جسمه الطويل تحتها . وفى الحائط علقت لمبة جاز كان يقرأ على ضوئها الكتب كان يحصل عليها من صاحب المخبز . وصعدنا الى صالة واسعة على جدرانها

لوحات كثيرة تصور حياة جوركي . كان حمالا وهـذه صورته وهو يحمل الاثقال ، واشتغل عند امـرأة في حانة ، وحرضته المرأة على السرقة فضربها وخرج . وهذه صورته وهو يبيع الخبز ، وهذا تمثال لخنازير تأكل الخبز وجوركي لا يأكله . رفضته جامعة كازان لفقره ، وانضم الى خلية واحدة مع لينين ، وتتـوالى اللوحات والتماثيل تحكى قصة كفاحه .

ثم ركبنا السفينة الكبيرة ، سبحت بنا على نهـر الفولجا واللحن السوفييتي « بحار الفولجا » تدندن به « زوبا » عضو الاتحاد النسائي السوفييتي ، يشـبه في بعض مقاطعه لحن النيل نجاشي « هيلا هوب هيلا » واشتركنا كلنا في الغناء ، وكان الجو قد بدأ يصفو وسطعت الشمس وخلعت النساء المعاطف وملابس الشتاء وارتدين ملابس الصيف والربيع .

وفي مدينة كازان استقبلنا بالموسيقى والزهور وموائد الطعام والشراب . وقيل لنا انه لم يحدث من قبـل ان زار الاتحاد السوفييتي كل هذه الوفود من النساء . كان الاستقبال حارا والاحتفاء بنا اكثر من تصوراتنا ، وكما يحدث في كل بلد طفنا بالمتاحف والمسارح ووضعنا الزهور على النصب التذكاري للجندي المجهول ، وزرعنا شجرة في طريق الصداقة ، ووقفنا أمـام تمـثال « عبد الله تقي » شاعر التتار ، وتمثال « موسى جليل » بطل التتار المقيد بالحبال ، وبرج سيومبيكى المائل . وفي متحف كازان رأينا العربة الحنطور التي ركبتهـا كاترين الثانية والقرآن باللغة العربية داخل برواز زجاج وملابس التتار الشعبية مطرزة بشكل يشبه مـلابس نساء فلسطين . وطاقية الرجال كطواقي العـرب .

واللغة التتارية القديمة تشبه فى حروفها اللغة العربية وأسماء التتار تشبه أسماء العرب ودينهم الاسلام أيضا .

وفى قسم من المتحف رأينا أنواع سمك الفولجا . سمك « بيروجا » ويستخرج منه الكافيار الاحمر ، وسمك اميوترا ويستخرج منه الكافيار الاسود . وقسم لصناعات التتار والبترول . وأجهزتهم الحديثة وخاصة فى مجال الطب . جهاز الكلى الصناعية واجهزة جراحة الرئة الحديثة .

وجامعة كازان لها تاريخ طويل . درس بها تولستوى . وفى كلية الحقوق درس لينين . ودخلت النساء الى القاعة التى كان يدرس بها لينين ، وتنافسن على الجلوس على المقعد الخشبى الذى كان يجلس عليه فى مؤخرة الفصل . وأمام الجامعة تمثال لينين وعمره سبعة عشر عاما .

وقضينا اليوم الاخير فى كازان مع الاطفال . والاطفال فى الاتحاد السوفييتى طبقة مميزة تحظى بالاهتمام . زرنا مركزا لرعاية صحة الطفل ، وقالت لنا طبيبة المركز بعد أن طفنا بأنحاء المكان : وفيات الاطفال هنا ٢ فى الالف وكانت قبل الثورة ٣٤٢ فى الالف والنساء هنا يلدن بالمستشفيات وقبل الثورة كان ٤٪ فقط من النساء يلدن بالمستشفيات .

وزرنا دار الحضانة واستقبلنا الاطفال بالزهور والاناشيد . وفى معسكر الاشبال استقبلنا بالعيش والملح وأكلنا العيش والملح كرمز للصداقة والحب . وقبل أن نودع الاطفال وقفوا فى حديقة معسكرهم الواسعة وانشدوا انشودة الاطفال السعداء . ومسحت

بعض النساء دموعهن وهن يودعن الأطفال ويطبعن على خدودهم الحمراء قبلة الوداع .

***

حين وصلنا الى القاعة الفسيحة في فندق «روسيا» في موسكو التقيت بعدد من الادباء العرب والمصريين ، وكانوا في طريقهم الى مؤتمر الكتاب في طشقند .

وفي الصباح وصلتني باقة ورد ورسالة تدعوني لحضور مؤتمر الكتاب في طشقند . انفصلت عن وفود النساء ووجدتني وحقيبتي داخل طائرة الادباء . قطعنا المسافة بالطائرة بين موسكو والماتا « عاصمة كازاخستان» في خمس ساعات ونصف ساعة . هبطنا الى مطار الماتا ولفحت وجوهنا نسمة الصيف الحار يشبه صيف مصر ، وطالعتنا وجوه أهل كازاخستان بأنوفهم الفطساء وعيونهم المستطيلة المسحوبة الى أعلى كعيون أهل الصين ، لا يفصلهم عن الصين الا الجبل العالى تغطى قمته الثلوج البيضاء وتنمو على سفحه الاشجار والخضر والفواكه ، يزرعون الجبل هنا ، ويصنعون من الثلوج الذائبة فوق القمة انهارا وبحيرات صناعية ، ويحولون مجرى الانهار الطبيعية في سدود عالية ، تصنع الكهرباء ، وهؤلاء هم أهل كازاخستان الذين أرسلوا خبراءهم الى أسوان واشتركوا مع المصريين في بناء السد العالى ..

وكان رئيس اتحاد الادباء يتقدم ألوفد الذى استقبلنا في المطار بالزهور . ومن المطار الى الاستراحة الى المائدة رصت عليها زجاجات الفودكا والكونياك والشمبانيا والنبيذ ، واطباق الكافيار والسمك والفراخ واللحوم ، وعلى المائدة تلقى كلمات الترحيب ، ونشرب نخب

الصداقة بين شعوب آسيا وافريقية ، ونخب أولادنا الذين ولدوا والذين لم يجيئوا بعد ، يحبـــون الاولاد ولا يحددون النسل بل يمنحون مكافآت للأم التى تلد أطفالا من بعد الطفل الرابع ، وشربنا مرة أخــرى نخب أطفالنا الذين لم يولدوا بعد .

وارتفعت الضحكات والقهقهات ، وزالت الكلفة بين الكاتب الهندى والمصرى والجزائرى والسودانى والروسى والافريقى واصبحنا جميعا أهل وطن واحد . وطـن الادب والفن .

ورايت على المائدة دورقا كبيرا مليئا باللبن ، وصب لى « يورى برزوفيتش » « رئيس اتحـــاد الادباء فى موسكو » كأسا من اللبن ، ما أن أخذت منها رشـفة حتى لسعت حلقى بالحامض وضحك يورى قائلا :

ـ لبن حصان .. مفيد للصحـة وبه ٥ فى المائة كحول .

وسألت . اتشربون لبن الحصان ؟

وسألنى : اتشربون لبن البقر ؟

ما الفرق بين لبن الحصان ولبن البقر ؟.

ومددت يدى الى طبق به قطع مشوية من اللحم ، واكلت بشهية قطعة لحم وجدت لها طعما لذيذا وقلت لجارتى « لاريسا » المترجمة الروســية : « لحم لذيذ » .

وقالت لاريسا : جدا ، انه لحم الحصان .

واخفيت دهشتى وارتفعت مرة أخرى الايدى بكئوس لبن الحصان يشربون نخب الفن والصداقة فرفعت كأسى معهم وشربت لبن الحصان .

***

صعدت بنا السيارة الطرق المتعرجة فوق الجبـــل ويسمونه هنا باسم « القمة الخضراء » الاشـــجار والخضروات تتخللها جـداول الماء الذائب من فوق القمة ووقفت السيارات في مكان من الجبل . واقبل علينا جمع من المزارعين يتقدمهم رئيس المزرعة الجماعية . رجال يرتدون البدل . وقادونا الى داخل المزرعة حيث رأينا مائدة طويلة عليها الاطعمة كالعادة ، والى جوارها حمام سباحة . وكان أغراء الماء شديدا فى ذلك الجو الحار فنزل بعض الكتاب وسبحوا فى الماء ثم تمددوا تحت الشمس .

وتجولنا فى المزرعة مع المزارعين ومعنا مرشد يقول : لتكون مزرعتنا من ثلاث قرى يبلغ تعـــدادها ٦٥٠٠ شخص من قوميات مختلفة عددها ٢٩ قومية . مساحة الزرعة ٨٠٠٠ هيكتار « ٣٢٫٠٠٠ فدان » يربى بهـــا ٢٨٠٠٠ من الماشية منها ٧٥٠٠ حصان ، عنـــدنا آلات الزراعة الحديثة وماكينات ومصانع مرتبطة بالانتاج ، وثلاث مستشفيات ، واربع مدارس وثلاثة دور حضانة ومعامل كيماوية وأبحاث ، ربح المزرعة يوزع على المزارعين بعد دفع حصة الحكومة ، والدولة هى التى تدفع أجور الاطباء والمرضين والمدرسين والاخصائيين الزراعيـــين والكيماويين

اجور المزارعين تتفاوت حسب عملهم وانتاجهم ، لكل أسرة بيت وحديقة يزرعها رب الاسرة لنفسه وأولاده ، العمل فى مزرعتنا ثماني ساعات فى اليوم ، واجـــر المزارع العادى ٩٠ روبلا فى الشهر الذى يربى الحيوانات يحصل على ١٢٠ روبلا فى الشهر والذى يعمل على الآلات يحصل على ٣٠٠ روبل في الشهر ، نجحت فكرة

المزرعة الجماعية عندنا بعد أن تدرب الفلاحون على العمل الزراعي الجماعي وبعد أن تغيرت القيم وتخلصوا من نزعة الملكية ، الحديقة والبيت والسيارة ملكية خاصة ولكنها ملكية لا تستغل أحدا . الانانية والطمع يزدادان بازدياد الملكية . نحن نبنى انسانا اشتراكيا له قيم جديدة اساسها العمل الجماعي والتعاون مع الآخرين والحصول على الرزق بقدر العمل والانتاج . الفرد منا يطمئن الى مستقبله ومستقبل أولاده ، لا نشعر بقلق أو خوف من مرض أو عجز أو شيخوخة . الدولة ترعى كل هذا . لا نحمل هموم تربية أولادنا والانفاق عليهم فالدولة رفعت عنا هذا العبء . كل شيء متوفر لاطفالنا بالتساوى ، والمراة عندنا كالرجل ، تعمل فى اى عمل وتقود الجرار وآلات الزراعة وتأخذ حقها فى الاجر ولها حقوقها الاجتماعية والسياسية كالرجل ، لا توجد عندنا مشكلة اسمها أطفال غير شرعيين . كل طفل يولد هو طفل شرعى . يأخذ اسم الاب أو اسم الام وله كل الحقوق . الناس عندنا يتزوجون عن حب ، وروابط الاسرة قوية والطلاق ليس سهلا وله اجراءات ونظام معين ، لينين هو مؤسس الاشتراكية فى بلدنا ولكنه لم يكن وحده . كان معه أبطال كثيرون من شعبنا . نحن لا نحب الطقوس التى تقدس اى فرد مهما كان ونكره من يقدسون لينين أو ماركس . نريد أن نحرر الناس من طقوس العبودية . عندنا حرية رأى فى اطار الماركسية اللينينية . ولا نريد أن يكون للفكر الحر أى اطار مهما كان . قضينا على الجهل والخرافات والامية ، اصبحنا ثانى دولة فى العالم بعد خمسين سنة فقط ، حققنا الاشتراكية فى مجتمعنا اما الشيوعية فلا نزال

بعيدين عنها كثيرا وبيننا وبينها سنوآت طـويلة . لـن نصل الى الشيوعية الا بعد أن نحقق وفرة فى امكانياتنا المادية وتغير تفكير الناس بحيث يمكن تطبيق ميدأ « من كل حسب طاقته الى كل حسب حاجته » . تغيير تفكير الناس هو أصعب شيء .

***

على باب الجامع طلبوا منا أن نخلع أحذيتنا . وضعت حذائى بجانب أحذية الرجال المتراصة أمام الباب . لم يطلب احد منى أن أغطي شعرى او أرتدى الحجاب . خطوت داخل الجامع وأنا رافعة راسى كالرجال .

منذ الطفولة وأنا أكره التفرقة بين انسان وانسان . أو بين البنت والولد . وعلمنى أبى الصلاة وانا طفلة فى السابعة ، وحين أرى أخى يصلى دون أن يغطى شعره مثلى أتساءل لماذا يفرض الحجاب على البنت ؟ ويقول أبى أن الحجاب يخفى مفاتن المرأة عن أعـين الرجال . واسأل أبى : ولكنى أصلى فى الغرفة وحدى ولا يرانى الا الله ، وهل من المفروض أن أخفى مفـاتن شعرى عن الله وهو يرانى فى كل لحظة حتى وانا داخل الحمام ؟

ويقول أبى : تغطية شعرك اثناء الصلاة احترام لله وليس اخفاء للمفاتن .

وأسأل أبى : ولماذا لا يغطى أخي شعره أثناء الصلاة، وانت أيضا لا تغطى شعرك ، فهل احترام الله أثنـاء الصلاة مفروض على البنات والنساء وليس مفروضا على الرجال ؟!

ولم يكن أبى يجد الاجابة على أسئلتى وأنا طفلة . ولم أكن أكف عن الاسئلة ، ولم يكن أبى يمنعني عـن

التساؤل عن أي شيء . ولكنه كان حين يعجز عن الإجابة يقول لي :
هناك حكمة في هذا لا يعلمها الا الله . . .
ولم يكن عقلي وانا طفلة يقتنع بهذا الرد من أبي .
.. ورأيت عددا من الرجال راكعين يصلون وسمعت صوت الامام يرتل القرآن باللغة العربية كأي فقيه عربي : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول »
وبعد انتهاء الصلاة نظر الى الرجال بدهشة ، فالجامع لا تدخله النساء ، وذهبت الى الامام الكازاكي وقلت له : الدين الاسلامي لم يمنع النساء من دخول الجوامع.
وقال : ونحن لا نمنع ولكننا غير متعودين على ذلك .
ـ انت تعرف اللغة العربية .
ـ لا اعرفها .
ـ ولكني سمعتك ترتل القرآن باللغة العربية ..
ـ انني أحفظ بعض الآيات فقط .
ـ الم تدرس القرآن باللغة العربية ؟
ـ لا . لا يوجد عندنا القرآن الا باللغة التركية .
ـ أيأتي الى الجامع كثير من الناس ؟
ـ لا ، ولكن معظم أهل كازاخستان مسلمون واسماؤهم عربية .
ـ هل يتزوج الرجال المسلمون هنا بأكثر من واحدة؟
ـ لا . الاسلام في نظري لا يبيح الزواج بأربع .. قال الله سبحانه وتعالى : « وان لم تعدلوا فواحدة . ولن تعدلوا » .. لقد اقر الاسلام استحالة العدل وبالتالي فقد اقر عدم الزواج بأكثر من واحدة .

***

الفنانون في كازاخستان طبقة مميزة كالاطفال والعلماء ورجال الحزب . وفى الساعة السابعة مساء ينطلق الناس من بيوتهم الى المسارح وقاعات الموسيقى وعروض الباليه والرقص الشعبى والغناء . وفى الليلة الاخيرة فى « الماتا » جلسنا نستمع الى بلبل كازاخستان « ببى بول » وهى شابة جذابة لها عينان سوداوان وشعر أسود وملامحها تشبه المصريات . وغنت ببى بول على نغمات « الدرمبرا » وهى آلة موسيقية شعبية تشبه العود فى شكلها وانغامها وطريقة العزف عليها .

وبعد الغناء قدمنا الزهور كعادة السوفييت الى المغنية . وجلست معنا ببى بول الى المائدة وشربنا نخب صوتها الجميل . وكانت تتقبل الإعجاب والتهانى ببريق خاطف فى عينيها يشبه الدموع وسألتها : هل رايت القاهرة ؟

وقالت بلغتها الكازاكية بضع كلمات لم أفهمها .

وترجم « عبد الكريم » « أحد كتاب كازاخستان » كلماتها من الكازاكية الى الروسية ، وترجمت «ناتاشا» الكلمات الروسية الى الانجليزية واخيرا استطعت أن افهم ما الذى قالته . قالت أنها رأت القاهرة وقابلت أم كلثوم وانها أحبت صوتها حبا شديدا .

سافرنا بالطائرة ذات الاربعة محركات من الماتا الى طشقند « عاصمة ازبكستان » .. وكان الجو صحوا ودافئا والشمس كشمس مصر والملامح ايضا تشبه ملامح مصر ، ولهم عادات المسلمين وبعض طباعهم . والفلاحون فى المزارع الجماعية يرتدون طاقية تشبه طاقية العرب ، ولولا اختلاف اللغة لظننت اننى فى مصر وطفنا بمتاحف المدينة وتماثيلها ودخلنا قاعات الموسيقى

والمكتبات والمسارح ومعاهد الابحاث والمصـــانع ودور الحضانة والمستشفيات ومعسكرات الاشبال والشباب.
وقال لنا المرشد انهم زرعوا الجبل بالغابات ،واستخرجوا المعادن من باطن الارض ، وبعد سنتين فقط ستنتج أزبكستان وحولها ٧٠٪ من ذهب الاتحاد السوفييتي ، وأحدثوا طرقا جديدة في الزراعة ، انزلوا المطـــر الصناعي في بعض المزارع الجماعية ، وانتجوا أنواعـا جديدة من الفواكه ، عندهم الآن ١٢٠٠ نوع من العنب فقط ، وعندهم ٢٦ معهدا لابحاث الفـــواكه فقط ، وينتجون كل انواع المشروبات والنبيذ .

ثم اخذونا الى مائدة طعام نصبت بجوار البحـــر . يشبه بحر الاسكندرية لا ارى الشاطىء الآخر ، وان اطلت التحديق . لكنه بحر بلا أمواج كبحيرة قارون في الفيوم وقالوا لنا انه إحدى البحيرات الصناعية في أزبكستان.

وارتدى بعض الادباء بدل السباحة وقفزوا الى الماء . واتكأ الاديب السوفييتي « سوفرونوف » على كتف زوجته وراحا يغنيان معا أغاني موسكو ، ورقصت « ناتاشا » رقصة طشقند الشعبية .

وامسك الاديب الهندي « ملك راج أناند » بيـــد « لاريسا » وراح يقرأ لها الكف ، واستطعت أن التقط جزءا من الحوار الذي دار بينهما .

لاريسا : ماذا ترى في كفي يادكتر ملك ؟

دكتر ملك : لك زوج تحبينه وطفلان .

لاريسا : قلت لك ذلك من قبل عدة مرات .

دكتر ملك : على العموم خطوط كفك تؤكد لي أنك قلت الصدق .

لاريسا : وماذا عن مستقبلي في الادب ؟

ودقق دكترملك في كفها لحظة .
دكترملك : خط القلب يدل على أن قلبك نقي .
وسكت لحظة يفكر بعمق .
دكترملك : قلبك نقي يالاريسا ، أنقى من أن يدرك شرور الحياة ، ولذلك لن تصبحى كاتبة أبدا في يوم من الايام .

وكان الكاتب السوداني « محمد سليمان » يتحدث بحماس الى المترجم الروسى عن ثورة السودان .
والاديب الجزائرى « مواود مامرى » قد نسى « المايوه » في الفندق وراح يحملق في الماء طويلا ، ثم القى بنفسه في البحر بملابسه ، أما « يورى بتروفيش » فقد أمسك بأسياخ الكباب الساخن وراح يأكل بشهية وحماس ثم وقف على رأس المائدة وطلب ان يشرب الجميع نخب الصداقة السوفيتية العربية ، وتسابق الجميع الى رفع الكئوس وأنشد شاعر طشقند باللغة الازباكية أبياتا من الشعر .

وفى طريق العودة كان هناك لحن خافت ينبعث من مكان ما رعلى جانبى الطريق أشجار وجداول مياه وبحيرات يستحم فيها أطفال ، ومبان تنشأ ، وطرق ، وقبل أن تنحرف بنا السيارة الى داخل المدينة رأيت امرأة تقود وابور زلط وترصف الطريق ولوحت لها من وراء الزجاج فاقتربت من السيارة وهي تقود وابور الزلط . رأيت وجها مرهقا ملوحا بالشمس وغارقا في العرق . وسمعتها تقول شيئا بصوت غاضب . وترجمت لاريسا كلماتها . كانت المرأة تقول أيها السياح لا تنظروا الى كالثور فى حديقة الحيوان ولا تصدقوا

ان المرأة تساوت هنا مع الرجل ، فانا أعمل فى الشارع وفى البيت .

***

ركبت الطائرة الى موسكو . لم أر موسكو بعد . وربما يكون ذلك أمرا معكوسا . فالناس تدخل البيوت من ابوابها وتدخل البلاد من عواصمها ، ولكن قد يدخل الانسان الى البيت من النافذة .

وأزحت الستارة الشفافة عن النافذة الزجاجية العالية ، فى أعلى طابق فى فندق « روسيا » الضخم ، فاذا بالميدان الاحمر يمتد فسيحا تحت عينى ، وقباب الكرملين الذهبية تعلوها النجمة الحمراء اللامعة ، والكنيسة المهجورة القديمة تحوطها السقالات حيث تجرى الترميمات استعدادا للاحتفال بمرور مائة عام على مولد لينين ، وفى مواجهة الكنيسة ترقد مقبرة لينين المربعة الحمراء ، ومن خلفها مقابر الشهداء ملاصقة لجوار الكرملين ، ومن وراء سور الكرملين العالى يجرى نهر موسكو صامتا الا من لحن خافت لا أكاد أسمعه ، وكنت مرهقة ، ولكنى شعرت برغبة فى أن أتجول فى شوارع موسكو بالليل . ولبت رغبتى فى السير صديقة روسية اسمها « فيرا » تعرفت عليها .

اخترقنا الميدان الاحمر وسرنا بحذاء النهر ، كان الليل دافئا ، وأسراب الشباب تنساب مع لحن الليل الهادىء ، ثنائية او على شكل مجموعات صغيرة ، تدندن أو تغنى أو تلتف بعضها حول البعض وترقص على اللحن الروسى القديم : « تلك كانت الايام يا أصدقائى التى ظننا أنها لن تنتهى ، كنا نرقص ونغنى الى الابد ، ونحارب وننتصر ، لاننا كنا فى شباب العمر ، تلك كانت

هى الايام يا أصدقائى » .

وعلى المقاعد الخشبية بحذاء النهر كان هناك فتيان وفتيات يتبادلون العناق والقبل ، الشباب هم الشباب فى كل أنحاء العالم لا شىء يحول بينهم وبين تبادل العناق والقبل .

ثم عدنا الى الفندق وجلسنا فى البهو الكبير المزدحم بالناس . فندق « روسيا » هو ملتقى الوفود والمؤتمرات العالمية . وجوه كثيرة متعددة الجنسيات . وأصوات بمختلف اللهجات واللغات ، وملابس وأزياء من كل نوع . أمواج من البشر . رجال يحملون الحقائب الجلدية وأوراق المؤتمر الاقتصادى . شباب يعلقون شارات المؤتمر الرياضى . ممثلات ونجوم سينما تحوطهم العدسات والاضواء . وفود النساء وطرقعات الكعوب الرفيعة . مندوبو الصحافة يهرولون وراء الشخصيات المعروفة .

وهذه مجموعة من المشايخ يرتدون القفاطين والعمم، يسيرون بخطوات بطيئة ، حاملين فى أيديهم السبح والكتب السماوية . واستطعت أن أشق طريقى الى شيخ معمم سمعته يتكلم اللغة العربية . اسمه الشيخ ضياء الدين ويسمونه فى الاتحاد السوفيتى باسم باباخانوف ، وهو مفتى المسلمين بآسيا الوسطى وكازكستان . درس الاسلام فى طشقند على يد والده ، ودرس بالازهر بالقاهرة منذ سنين .

وسألته الى اين تذهب ؟ قال : الى مؤتمر الاديان الذى يعقد الآن ، ويحضره رجال الاديان من الاتحاد السوفييتى ومن جميع أنحاء العالم ، مسلمون ومسيحيون وبوذيون وغيرهم . سيعقد المؤتمر فى

مدينة زافورنسك ويشرف عليه صاحب القداسة بطرق موسكو وعموم روسيا ، وانا ايضــــا بصفتى مفتى المسلمين بآسيا الوسطى وكازكستان . قانون الحكومة عندنا ينص على حرية الاديان وممارسة الشعائر الدينية سأقدم بحثا فى المؤتمر عن مشكلة النزاع فى الشرق الاوسط .

وجاء اليوم الاخير فى الرحلة ، واقترحت « فيرا » ان ازور مقبرة لينين . كنت ارى الطابور الطويل كل يوم فى الميدان الاحمر ، وحرس المقبرة بزيهم الرسمى يسيرون بخطى بطيئة ، وعند كل دقة ساعة يؤدون التحية .

منذ الطفولة وانا اكره الطقوس العسكرية والدينية، وحركات الجسم تبدو لى ميكانيكية : واكثر ماكنت اكره منظر الجنود وهم واقفون بغير حراك كأعمدة النور .

لكنى هبطت ذلك الصباح من غرفتى الى البهــو الكبير ثم سرت نحو الميدان الاحمر . كان الطابور امام المقبرة طويلا . وفكرت فى العودة الى الفنــدق ، لكن الاستطلاع جعلنى انتظر . لابد ان هناك شيئا يستحق الرؤية طالما ان هذه الامواج من البشر تأتى كل يوم وتنتظر بالساعات لحظة الدخول .

كان الطابور يتقدم ببطء شديد ، وشمس يوليـــو فوق الرءوس ، والعرق فى الملابس . ولا احد يتخلى عن مكانه فى الصف . كطابور يوم القيامة والسـير على الصراط المستقيم ، لكن نار جهنم ليست تحت اقدامنا ، وانما هى فوق رءوسنا ، ومن فوقها قبـاب الـكرملين تعلوها النجمة الحمراء .

اخيرا وجدت نفسى على عتبة المقبرة ، ولفحت وجهى

نسمة باردة مكيفة . سرت بخطوات بطيئة وراء السائرين ورأيت لينين راقدا داخل غرفة زجاجية ، يسقط على وجهه ضوء أحمر خافت يخفى شحوب البشرة ويكسبها لونا ورديا صناعيا . العيون شاخصة نحوه فى خشوع كالصلاة الصامتة .

قشعريرة كالموت تزحف على جسمى ، كأول مرة دخلت مشرحة كلية الطب ورأيت جسدا ميتا . كأول مرة رأيت المومياء المحنطة فى التابوت القديم .

وقلت : التحنيط علم عرفه قدماء المصريين منذ خمسة آلاف عام .

وقالت « فيرا » : كان « لينين » عظيما .

وقلت : نعم ، ولكنى اكره الوثنية وعبادة الاجساد المحنطة .

إيران قبل الثورة

كانت رحلتي الاولى لايران « فى نوفمبر ١٩٦٨ » رحلة علمية طبية ، محصورة داخل جامعة طهران . اجلس وسط أعضاء المؤتمر الاطباء ، أسماؤهم والقابهم معلقة فوق صدورهم ، أستمع الى أوراق طويلة مكررة من الصحة والمرض ، ثم أخرج من الجامعة لتحملنى عربة خاصة تسير بي فى طريق واحد مستقيم يصلنى الى حجرتى الصغيرة بالفندق . وهذه الحياة العلمية البحتة لا أطيقها خاصة وانا خارج الوطن ، فالعلم ليس هدفي الوحيد حين أسافر ، فالعلم يمكن أن يحصل فى الجامعات المصرية أو فى المكتبات أو فى البيت وليس من الضرورى أن يسافر الانسان الى بلد اخرى ليقبع بين جدران جامعتها ويتلقى العلم .. أما المعرفة وهى شيء آخر غير العلم فتقتضى أول ماتقتضى الفرار من بين جدران الجامعات والمكتبات الى الحياة والناس والشوارع ومن هنا تكون للسفر أهمية كبيرة .

ورغم انحصار مهمتي داخل جامعة طهران ورغم ادراكى الشديد لانعدام الرغبة فى كثرة الحركة والتنقل هنا وهناك ، ورغم تلك المحاولات التى تحدث فى كل بلد تقريبا ، والتى تشد الاجانب والسياح شدا الى الواجهة المطلية من البلد سواء كانت احجارا أو اشخاصا تحجروا فى الوضع الذى صنع لهم ، يرددون صدى الاصوات كالقباب الاثرية الخاوية .

رغم كل ذلك استطعت أن أجد طريقا للهروب ، وكان ذلك هو طريق الادب . والادب فى حياتى ليس كالادب فى حياة الادباء الشرعيين الذين يمارسون الكتابة والذين يتقاضون رواتب ويأكلون ويشربون ويسافرون الى الخارج من أجل أن يكتبوا أدبا ، لكن الادب فى حياتى شيء غير رسمى ، شيء غير معترف به وسط الاطباء كالطفل اللقيط ، أمارسه فى الليل بعد أن انتهى من مهامى الرسمية كما يمارس الحب الآثم ، أنفس به عن نفسى من وطأة حياتى الشرعية التى تموج فى جو مشبع بالامراض والجراثيم .

هكذا وجدتنى فجأة اجمع أقلامى وكتبى وكراريسى وأغادر قاعة المحاضرات فى هدوء شديد . وخرجت الى فناء الجامعة . كانت شمس نوفمبر دافئـة رقيقة ، والشباب الايرانى الجامعى ينتشر فى الفناء . وجوه لا تختلف كثيراً عن وجوهنا ، الملامح الشرقية بارزة فى الوجه ومدببة ، فيها خشونة ورجولة شرقية تتناقض مع الشعر الطويل المسدل فوق الرقبة وأمام الأذنين . والفتيات ببشرتهن القمحية الفاتحة وعيونهن الواسعة كعيون المها تتعثر فيها نظرات وجلة خجلة لم تتحرر بعد من عقدة الانثى الأمة ، رغم المساحيق الامريكية التى تظلل الجفون والرموش ورغم « المينى جيب » التى تكشف عن أفخاذ شرقية ممتلئة حياء وخفراً .

وفى وسط الفناء حديقة جميلة منسقة تتوسطها نافورة تملأ حوضا واسعا يشبه حمام السباحة يعكس الشمس الذهبية ، ويجلس من حوله الشباب والشابات يتهامسن ويتناجين ، والعيون تبرق متأججة بعنفوان الحب والرغبة ، لكن التقاليد لا تزال تمنع العنـاق

والقبل امام الآخرين . وفى مواجهة هذه الحديقة الحالمة جامع رصين ضخم البناء حليت جوانبه البيضاء بآيات من القرآن ومن مأذنته ينبعث صوت عربى يؤذن لصلاة الظهر محييا على الفلاح ومصليا على محمد عليه السلام وعلى بن ابى طالب امير المؤمنين .

لم اكن اعرف تماما الى اين انا ذاهبة ، لكنى رأيت بناء كبيرا مواجها لهذا الجامع كتب على بابه بالفارسية « دانشكدة ادبيات » ومعناها كلية الآداب ، وقلت لنفسي لعل هذا هو الباب الى الادب الفارسى ، ودخلت ، وسألت عن افضل اديب فى ايران فقالوا لى انه عميد الكلية . فاشتريت كراسة جديدة وذهبت للقائه فى مكتبه الفاخر ، وجلست معه نصف ساعة لم ادون فى الكراسة كلمة واحدة عن الادب ثم خرجت مسرعة من الباب الخلفى للجامعة وبهذا تفاديت باب العربة الذى يتصيدنى بعد انتهاء المحاضرات لاحمل كالوديعة الثمينة الى الفندق .

كان المطر قد بدأ ينهمر فدخلت الى مطعم صغير تفوح منه رائحة « الشيلوكباب » وكانت الموائد مكتظة برجال ونساء امامهم اطباق كبيرة كالصوانى عليها اسياخ الكفتة المصنوعة من اصناف متعددة من البقول والخضر ولحم الخروف . فالخبز الايرانى الكبير كالفطير المشلتت والبصل واللفت الاحمر . وجلست الى جوار مجموعة من الشباب يختلف عن الشباب الذى رايته داخل الجامعة ، فالملامح اكثر خشونة ، والشعر مقصوص ، وفى عيونهم نظرة متحفزة ، فيها سخط وفيها غضب ، وانا احب هذه النظرات فى الانسان ،

فكأنما خلق الانسان فى نظرى ليثور ويغضب ، ولعلها نظرة خلفها لى عمر عشته فى ظروف تقتضى دائما السخط والغضب والثورة .

وتآلفت بسرعة مع هذه العيون وكان بينهم فتاة اسمها « مانى » شعرها أسود قصير وعيناها سوداوان لامعتان ، ووجدتنى أشاركهم الحديث وكانوا لحسن الحظ يلمون بشىء من الانجليزية وكنت انا قد تعرفت على بعض الكلمات الفارسية . ودار بيننا جوار وعرفت منهم الطريق الى ايران الحقيقية ، والشعب الايرانى الحقيقى ، وعرفت أيضا كيفية الوصول الى أديب ايران الاول الذى يتلقف الناس كتبه ويحفظون كلماته وينتظرون مؤلفاته الجديدة .

وكان الطريق اليه طويلا وعرا ، فهو لايعيش فى قلب طهران العاصمة ككل المشهورين ، وانما يعيش فى منطقة بعيدة شمال طهران اسمها شميران ، والطريق اليه صاعد نحو الجبل ، وعلى جانبيه أشجار عالية وقنوات تجرى فيها مياه المطر ، والمياه الذائبة الهابطة من فوق الجبل والثلج الابيض يغطى القمة العالية تشق السماء وتنعكس عليها أشعة الشمس الذهبية .

وصعدت بى السيارة الى شارع ضيق ثم دخلت فى زقاق ووقفت أمام بيت صغير قديم ظهر منه شاب اشيب ملامحه مالوفة كأنما رأيته من قبل تماما كما يحدث لى فى كل مرة حين التقى بانسان من هذا النوع يرتدى ملابس بسيطة ، وبيته من الخارج والداخل بسيطا وعربته الصغيرة تسد مدخل البيت الضيق ، عربة قديمة يشك الناظر اليها فى قدرتها على الحركة .. وربما هى أول عربة قديمة أراها فى طهران حيث العربات

الامريكية الجديدة تزحم الشوارع والميادين .

هذا النوع من الناس تألفه من أول لقاء ، وتلك الهالة غير المرئية تحيط بأجسام بعض الناس ، وهبوا طاقة لها اشعاع غير عادى ربما فى العقل أو فى النفس أو فى شىء ما عميق داخلهم تحسنه نحن الغرباء عنهـم بشىء ما داخلنا عميق ومجهول أيضا .

اسمه جلال آل احمد ، يعرفه الناس فى ايران ، ويقرءون كتبه ، لكن حكومة الشاه تصادر الكتب ، وتمنع نشر مخطوطاته الجديدة ، فيهرب بها تلاميذه وقـراؤه الى خارج ايران ، ويطبعونها فى بلاد أخرى ، ثم يوزعونها سرا فى ايران .

فيه نحافة تكسب وجهه مسحة من الارهاق فكأنه لا ينام ولا يأكل . ملامحه ايرانية صميمة . البشـرة الملوحة بالشمس ، والإنف المستقيم الحاد ، والعينـان الواسعتان السوداوان فيهما نظرة صريحة كاشـفة ، تعرى الاشياء بقسوة تصبح مع الصدق نوعا من الحنان له رواية طويلة بعنوان « لعنة الارض » وصف فيها مأساة الفلاحين فى ايران وكتاب بعنوان « غرب زدكى » ومعناه « سحقا للغرب » هاجم فيه المبـادىء الغربيـة الاستعمارية . وقد منع هذا الكتاب فى ايران لـكن تلامذة جلال آل احمد طبعوه فى كاليفورنيا ووزعـوا منه فى ايران خمسين الف نسخة سرا . وقال جـلال آل احمد : وانني اسهل على تلامذتى هذا العمل فأكتب على غلاف الكتاب انه حر للطبع فى أى مكان وزمان دون قيد أو شرط ودون أى حقوق للمؤلف ، فيطبع منه مايطبع ويوزع منه مايوزع .

وله مؤلفات عن قضية فلسطين ، آخرها كتيب صغير

كتبه بعد حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ ، لكن السلطات فى ايران صادرته ، وحرقت دار النشر التى نشرته ، فهرب به بعض تلاميذه الى الخارج حيث طبعوه ، وترجم الى اللغة العربية ووزع فى بيروت .

كنا نجلس فى حديقة بيته الصغيرة ، وجاءت زوجته الدكتورة « سيمين دانشوار » ، وهى استاذة فى جامعة طهران . لها أيضا مؤلفاتها ، ومجموعة من القصص بعنوان « النار المطفأة » . احتفظت باسم أبيها دانشوار ولم تحمل اسم زوجها جلال آل أحمد . ملامحها تشبه ملامح المصريات ، وجو من الالفة يسود واشعر كاننى فى بيتى فى مصر ، وسيمين تضع صينية الطعام والشاى الساخن امامنا . .

وأمسك جلال آل احمد ورقة وقلما ورسم خريطة ايران والخليج العربى ووضع نقطة اعلى الخليج كتب عليها « أبدان » ونقطة أخرى فى أسفل الخليج عند عنقه الضيق وكتب عليها « يحرس مسندم » ، وكتب الى جوارها ١٠٠٠ طن بترول .. ثم أمسك احد مؤلفاته واخذ يقلب فى صفحاته بأصابع طويلة رفيعة . واستقرت أصابعه فوق بعض السطور ، وضع تحتها خطا عريضا بالقلم .

« الآن ٩٠ درصد نفت اسرائيل را ايران ميدهدوانوقت، حكومت ايران اذ ترس أعراب اعلامية ميدهد كه « مادر مقابل كمپانى هيجكارة ايم . ايشان خودشان نقت رابهركه بخواهند مى فروشندا » .

وقال بصوت حزين :

هذه الكلمات معناها أن ٩٠٪ من بترول اسرائيل باتى من عبدان من عندنا !! يا للخجل وياللعار !

وتأملته طويلا في صمت ثم قلت : وكيف تعيش فى ايران بكل هذه الافكار الخطيرة ؟

وقال فى هدوء : أعيش ، لانى لست وحدى ، معي مجموعة كبيرة من الشباب والكتاب نلتقى كل أسبوع مرة فى احد المقاهى الصغيرة . ولقد فصلت من وظيفتى ثلاث مرات ، ولكننى لست موظفا ، انا كاتب وفنان ..

وسألته : وماذا تكتب الآن ؟

قال : انتهيت من دراسة جديدة عن اسرائيل فى حوالى ٤٠٠ صفحة استغرقت منى سنوات .

ــ وهل ستنشرها هنا ؟

ــ اذا استطعت .

ــ واذا لم تستطع ؟

ــ سينشرها تلامذتى بالخارج كما حدث للمؤلفات الاخرى .

ولمحت بين مؤلفاته كتيبا صغيرا أبيض بالفرنسية طبع بدار المعارف بالقاهرة . بعنوان جلال آل أحمد كاتب ايران المعاصر بقلم ج . مونوت . ويحتوى الكتيب على ترجمة فرنسية لاحدى قصص جلال آل احمد اسمها « زيارة للأماكن المقدسة » . ومقدمة استعرض فيها ج . مونوت حياة جلال آل احمد منذ ولد فى طهران سنة ١٩٢٣ ، واتجه فى أول حياته الى حزب تودا أو حزب الجماهير الايرانى ثم انفصل مع مجموعة عن هذا الحزب سنة ١٩٤٧ . وأكمل دراسته الجامعية وحصل على ليسانس الآداب وأصبح استاذا للغة الفارسية . وكان له نشاط صحفى وأدبى ، حرر فى جريدة « الشعب » ومجلة « الطلبة » ومجلة « العلم والحياة » ومجلة « الشاهد » الناطقتين باسم الحزب

الاشتراكى تحت زعامة مصدق . وأسس مجلة اسمها « العالم الشهرى » صودرت بعد العدد الثانى . ثم ثم أصبح رئيسا لتحرير مجلة العالم الجديد لكنه أقيل من منصبه سنة ١٩٦٦ . وقد أصدر جلال آل أحمد مجموعات من القصص القصيرة منها « الزيارات » و « آلامنا » و « السنا فى حاجة الى هذه المرأة » وعدة روايات طويلة منها « عش النحل » و « مدير المدرسة » و « نون والقلم » وكتب دراسات ومقالات نقدية وترجم لدوستوفسكى وكامو وسارتر وأندريه جيد ويونسكو . وله كتاب بعنوان « خدمات وخيانات المثقفين » .

وقلت لجلال آل أحمد : هذه دار مصرية نشرت لك احدى قصصك .

وابتسم ، ثم قال : ولكنها صدرت باللغة الفرنسية وليست اللغة العربية . لقد قرأت قصصا لبعض الكتاب العرب باللغة الفرنسية أيضا ، ولكنى لا أريد هذا . أريد أن يلتقى الادب العربى والادب الفارسى وجها لوجه وباللغة العربية وباللغة الفارسية دون أى وسيط فرنسى أو انجليزى .

وكانت الشمس قد غابت والدنيا اظلمت دون ان أدرى فنهضت وملأت حقيبتى بمؤلفات جلال آل أحمد الفارسية .

وودعنى هو وزوجته سيمين دانشوار حتى الباب الخارجى للحديقة الصغيرة ، وظل ممسكا بيدى وهو يصافحنى قائلا :

تأكدى أن هذا النظام فى ايران سوف يسقط

قريبا . ان ٨٠٪ من الشعب الايرانى يعيش تحت خط الفقر ، ولن يستمر الحال هكذا طويلا . شعب مصر وشعب ايران صديقان ونحن نحب العرب وعداؤنا لاسرائيل مثل عداؤكم .

كان واقفا أمامى ممسكا بالباب ، والشمس قد غربت ، وشبح أسود لمحته يتحرك في الظلمة . والتفت ورائى وقشعريرة باردة تسرى فوق جسمى . وقال جلال آل احمد بصوت مرهق : مخابرات الشاه فى كل مكان .

وشددت على يده وانا اصافحه وهاجس غامض ملأنى بالقلق ووجدتنى أقول له : احترس ، فالخطر يحوطك .

وقال بهدوء : اختفى بعض اصدقائى ، وقد يحين دورى فى أى وقت .

ولم أكن أعرف وانا اودعه انه الوداع الاخير ، واننى سأزور طهران مرة ثانية بعد عامين فلا أجده .

وفى الطريق المظلم وانا عائدة وحدى شعرت بالخوف . قطرات المطر فوق الاسفلت كوقع الاقدام من خلفى . وحفيف الاشجار على جانبى الشارع الهابط من الجبل كأنفاس شبح مختفى . والظلمة داكنة . والجبل عال اسود . والطريق ضيق ينحدر الى اسفل . ووصلت الى غرفتى بالفندق وانا مبللة بالعرق .

***

بعد عامين ، وفى يونيو عام ١٩٧٠ سافرت الى طهران لحضور مؤتمر طبى عن تحديد النسل . وسافر معى طبيب آخر يعمل فى جهاز تنظيم الاسرة اسمه « الدكتور سرور » . استخرجنا تذاكر السفر ثم ذهبنا الى السفارة

الأيرانية فى القاهرة وكتبنا طلبا للحصول على تأشيرة الدخول الى طهران .

وحصل « الدكتور سرور » على تأشيرة الدخول ، أما أنا فلم أحصل عليها ، وقال لى أحد موظفى السفارة : رفضت السلطات فى طهران اعطاءك التأشيرة . وتساءلت فى دهشة : لماذا ؟

وقال الموظف : لا أعرف ، فالرفض يأتى بدون ابداء الاسباب .

وخرجت من السفارة الايرانية حزينة . كنت أريد السفر الى ايران مرة أخرى ، والسير فى الطريق الصاعد نحو الجبل حتى شميران ، ثم الزقاق الضيق والبيت القديم ذو الحديقة الصغيرة ، والحديث الطويل حتى الليل مع جلال آل احمد وسيمين دانشوار .

وعلى الباب الخارجى للسفارة سمعت صوتا من خلفى ، ورأيت شابا ايرانيا طويلا نحيلا أشيب الشعر يشبه جلال آل احمد . قال : قرأت مقالك منذ عامين بمجلة المصور لكن مخابرات الشاه كتبت تقريرا ضد المقال .

وتساءلت : أى مقال ؟

قال : مقالك عن جلال آل احمد الذى نشر بمجلة المصور عدد رقم ٢٣٠٩ فى ١٠ يناير ١٩٦٩ . ودهشت لقدرته على الاحتفاظ فى ذاكرته برقم العدد وتاريخ صدوره رغم مرور عامين ، وأنا نفسى نسيت المقال ، ولم أكن احتفظ بالمقالات التى أكتبها . وسألت : ومن انت ؟

وهل تعمل بالمخابرات الايرانية ؟

وابتسم : لا ، ولكنى اعمل بالسفارة فى القسم الصحفى ، واعجبنى مقالك ، فأنا أحب جلال آل احمد

وهو كاتبي المفضل ، وتألمت كثيرا لموته .
وانتفضت : مات ؟!
قال بصوت خافت : نعم ، في ظروف غامضة .
وسرت فوق جسدي القشعريرة القديمة ذاتها ، وتراءى لي جلال آل أحمد وهو واقف ممسكا بالباب ، وشبح أسود في الظلمة من ورائي كأنما يتبعني .
وفي الصباح رأيت « الدكتور سرور » وحكيت له عما حدث ، فضحك بسخرية الاطباء وقال : أنت طبيبة فلماذا تكتبين وتجرين على نفسك المشاكل ، وهاهو مقال واحد يحرمك من السفر الي طهران وحضور هذا المؤتمر العالمي الهام .
عيناه من خلف النضارة البيضاء كعيون الاطباء ، شبه زجاجية ، بريقها من فوق السطح بغير عمق خال من العواطف ، لا يعرف عن الحياة الا المرض والجراثيم ، والناس في نظره اما مرضى أو سيمرضون حتما قبل أن يموتون ، وفي كلا الحالين المرض أو الموت هو يقبض الثمن مقدما او مؤخرا .
عيناه تلمع كالزجاج ، و « النني » يتذبذب في حركة دائرية كالحاسب الالكتروني ، لا يكف عن النظر الي عقارب ساعته ، وفي يده حقيبته الجلدية ، داخلها السماعة المعدنية وجهاز ضغط الدم والحقن والابر ، والجراب الداخلي السري تفوح منه رائحة البنكنوت واليود والدم .
منذ دخلت كلية الطب وانا أكره الاطباء . مشيتهم المتغطرسة بين الممرات . طرقعات كعوبهم الحديدية فوق البلاط . انوفهم المرفوعة بعيدا عن رائحة الجرح . عيونهم الشاخصة فوق جيب المريض . اصواتهم المعدنية

فوق المنصات عن الانسانية والرحمة .

وظل صـــوت « الدكتور سرور » فى اذنى . نبرة السخرية تؤكد فشلى . أهرب من أوساط الاطباء ، ولا اجد فى أوساط الادباء راحة أو عزاء . فالادباء فى بلادنا يشتغلون بالصحافة ، يتقاضون مرتبات من الدولة كموظفى الحكومة ، يطيعون الاوامر العليا ، عيونهم ناحية الحكام وظهورهم ناحية الناس والانسانية .

وفى أعماقى منذ الطفولة رغبة فى تحدى الاوامر . ووجدتنى أعد حقيبتى . المؤتمر طبى عالمى ، وصـــدر القرار المصرى بسفرى ، وتلقيت أوراق المؤتمر من جنيف وفى نهاية احدى الاوراق عبارة تقول بالانجليزية : اذا لم يحصل أحد أعضاء المؤتمر على تأشيرة الدخـول الى طهران بسبب ضيق الوقت فيمكنه الحصول عليها عند وصوله الى مطار طهران .

وضعت هذه الورقة فى حقيبتى ومعها جواز السفر والتذكرة . وفى مطار القاهرة لمحت الدكتور « سرور » من ظهره ، أمام النافذة الزجاجية للسوق الحـــرة ، يشترى زجاجات الويسكى وسجائر « كنت »

وسرت نحو الطائرة بقلب ثقيل . قد أصل الى طهران ثم أعود فى الطائرة نفسها الى القاهرة . ربما ابرقت سفارة ايران الى مطار طهران لمنعى من الدخـول . وربما يسمحون لى بالدخول ثم ينتقمون منى داخل طهران . عقلى يموج بهواجس متضاربة ، وقدماى تتقدمان نحـو الطائرة بغير تردد . ارادتى من حديد ، لكن الرحلة تبدو لى عبثية . لماذا اعرض نفسى للخطر بغير داع ؟ ســؤال راقد فى قاع عقلى منذ الطفولة ، وللخطر فى أعمـــاقى جاذبية ، ولطهران أيضا منذ الرحلة الاولى جاذبية ،

وجلال آل احمد لا يزال وجهه أمامى ، لا أصدق أنه مات .

كان شابا فكيف يموت الشباب ؟ في ظروف غامضة ؟

كلمة « غامضة » تثير خيالى ، منذ سمعتها من موظف السفارة وفى راسي قرار : لابد أن أعرف . والرغبة فى المعرفة كالثمرة الآثمة اكلتها حواء وجعلت آدم يأكل منها .

وفى صدرى احساس بالخوف كالهواء الثقيل ، كالحزن القديم ، والالم تحت المعدة . جالسة فى مقعدى بالطائرة كمن تنتظر المصير وعقاب السماء والآلهة .

ارتفعت الطائرة فى الجو واصبح كل شىء أبيض ، خفيفا بغير وزن كالهواء . لا أرض ولا سماء ولا الوان الا ذلك البياض المتكثف كرغوة صابون بغير ماء .

للحظة خاطفة غمرتنى سعادة . احساس طاغ بالخلاص من الخوف ، ثقل الارض تحت جسدى ، وثقل جسدى فوق الارض ، وثقل الهواء فى صدرى ، وثقل الاصوات فى أذنى ، وثقل العيون فى عينى .

من شدة الفرح قفزت ، لكن جسدى لا يزال مربوطا فى ومعه الخوف . لا هرب منه ولا فرار . سأظل الى الابد مشدودة اليه مربوطة فيه كوتد .

تجمع الحزن العتيق وأخذ يضغط على معدتى من تحت حزام المقعد . الالم القديم نفسه والطنين فى أذنى . ومن وسط السحاب الابيض برز الجناح الفولاذى .

أغمضت عينى فأصبح السحاب أحمر ثم أسود وجناح الطائرة الابيض يقذف مايشبه اللهب ، وعلي الرمل الاصفر فى قاع الارض البعيد طفل منكفىء على وجهه

يسيل من زاوية فمه لعاب أحمر . لم أر وجهه لكن
أصابع يديه كانت ملوثة بحبر ازرق واصبع قدمه الصغير
يطل من الصندل الجديد الاخضر . صرخت ابنى ، لكنى
سمعت صوته . البحة نفسها والقهقهة المتقطعة كالشهقة
واستدرت بسرعة . لم يكن هو ابنى . كان طفلا سمينا
متورد الوجه يتكلم بالانجليزية .

ـ ماهذه الارض التى تحتنا يا امى ؟

ـ هذه مصر .

ـ مامعنى مصر يا امى ؟

ـ لا أعرف ، انها بلد فى شمال افريقيا .

نقط النور فى القاع البعيد الإسود تهتز وتقاوم الليل .
احدى هذه النقط مصباحى بجوار سريرى ، ورف كتبى
واوراقى ، واحزانى وأفراحى ، والوسادة الصغيرة عليها
بضع شعرات من راسه ، وقطرات من عرقه ، والعينان
الصغيرتان السوداوان تلمع فيهما دمعة ، وصوت فيه
بحة ينادينى ، ويدان صغيرتان تتشبثان بيدى وتمسكان
بها كقيد . اخلص يدى بغير عنف ، برفق شديد ، واسير
على اطراف أصابعى نحو الباب . ومن خلفى أسمع صوتا
خافتا كبكاء طفل . البحة نفسها والشهقة المتقطعة ،
واستدرت بسرعة . لم يكن ابنى . انه الطفل الانجليزى
السمين لازال يضحك ويلعب . ضحكته تشبه ضحكة ابنى
وعمره يكاد يقترب من عمره . أربع سنوات ونصف ،
تركته مع أبيه وأخته من اجل ماذا ؟ رغبة آثمة فى المعرفة ؟
حنين جارف منذ الطفولة للعصيان ورفض الاوامر ؟ أم
انه السفر والترحال والانجذاب نحو العوالم الاخرى ؟

ثم ارتفع الصوت من خلال الميكرفون معلن عن الهبوط
فى مطار طهران . ولامست العجلات الارض بخفة فائقة .

ثم توقفت الطائرة تماما وظلت الابواب مغلقة . وخيل الى أنه بمجرد انفتاح الابواب سيندفع رجال البوليس والسافاك الى داخل الطائرة يبحثون فى وجوه الركاب عن وجهى .

وانفتحت الابواب ولم يدخل أحد . وخرج الناس يسيرون الى مدخل المطار فى طوابير . وأمام ضابط الجوازات وقفت فى مكانى من الصف الطويل . والى جوارى طبيب هندى تعرفت عليه ، ولم يكن حصل على تأشيرة للدخول ايضا . وأخذنا أحد موظفى المطار الى غرفة جانبية . قدمنا أوراق المؤتمر ، وأسماءنا فى كشف ضمن الاعضاء ، وأشرنا الى العبارة التى تقول ان تأشيرة الدخول يمكن أن تعطى لاعضاء المؤتمر الذين لم يجدوا الوقت للحصول على التأشيرة فى بلادهم .

كانت الغرفة مزدحمة بالناس ، وشاب ايرانى نحيل يجلس من وراء مكتب صغير . وجهه شاحب مرهق ، وقطرات عرق فوق جبهته ، وفوق مكتبه كوم من الاوراق وجوازات السفر . رفع رأسه.والقى على الطبيب الهندى نظرة سريعة ، ثم نظر الى الصورة فى جواز سفره ورفع يده بالمطرقةعلىاحدى الصفحاتالخاليةوطبع تأشيرة الدخول . وبالسرعة نفسها نظر الى صورتى فى جواز سفرى ، وظلت عيناى ثابتتان وهو ينظر فى وجهى ، ورفع يده عاليا بالمطرقة وطبع تأشيرة الدخول فوق احدى الصفحات الخالية فى جواز سفرى .

ثم وجدت نفسى فى قلب طهران ، وفى شارع بهلوى أسير . الشارع نفسه الذى كنت أسير فيه أربع مرات فى اليوم . لولا الفاصل الحديدى الذى ينتصف الشارع والمبانى الجديدة التى احتلت المساحات الخالية لظننت

أن الزمن لم يمر منذ كنت هنا من عامين . فالوجوه تكاد تكون هى الوجوه . الرجال بملامحهم البارزة المدببة فيها قوة الجبل وجرأته ، والنساء بعيونهم السوداء الكبيرة وجونلاتهم القصيرة تكشف عن أفخاذ شرقية بسمينة . والسينما هى السينما تعرض فيلم رآعى البقر ، وبائع الفسدق واللبان بأسنانه الذهبية وشاربه الاسود جالس فوق الرصيف ، والصبى الشاحب الحزين بميزانه الصغير والشحاذة العجوز نفسها لا تزال فى مكانها متكورة حول نفسها بجوار الحائط ويدها الفارغة ممدودة للامام .

ملأت صدرى برائحة الجو . والبلاد كالأشخاص لكل منها رائحة خاصة مميزة . ورائحة طهران جذابة بقدر مافيها من رائحة الجبل ، والمياه الذائبة الساقطة من فوق القمم الثلجية فى شلالات صغيرة تنكسر فوق الصخور ثم تجرى صافية بين الأشجار العالية على جانبى الشوارع المنحدرة الى أسفل .

وسرت فى الطريق الجبلى الصاعد نحو شميران ، حتى الشارع الضيق ، ووقفت امام البيت الصغير . لازلت إذكر شكل الحديقة الصغيرة التى رأيتها منذ عامين والسلم الصغير الذى يقود الى حجرة الاستقبال . وفتح الباب وكنت أظن ان الشاب الأشيب الطويل النحيل سيظهر على الفور كما ظهر فى نوفمبر ١٩٦٨ ، لكنه لم يظهر وخرجت لى امراة شابة متشحة بالسواد ، تعرفت على ملامحها رغم شحوبها ونحولها . انها زوجته سيمين دانشوار أستاذة تاريخ الادب فى جامعة طهران .

وحكت لى الدكتورة دانشوار قصة وفاة زوجها جلال آل احمد كان يمضى أجازة الصيف الماضى على شاطىء بحر قزوين ، وكانت معه تقرأ له بعض أبيات من الشعر

بعد رياضته على الشاطىء حينما وضع رأسه على الوسادة
وصمت الى الابد . كانت الدنيا ليل والمنطقة بعيدة عن
المدينة بغير كهرباء . واستنجدت ببعض عمال الشاطىء
وعندما عرفوا انه جلال آل أحمد جاءوا اليه من كل
الاكواخ وملأوا مصابيحه بالجاز وحوطوه بالزهور ، وسهر
النجارون حتى الفجر يصنعون له نعشا مزخرفا .
وابتلعت الدكتورة دانشوار دموعها وهى تقول : مات جلال
بين الناس الذين أحبهم وكتب عنهم طوال الستة واربعين
عاما التى صنعت كل عمره ، مات فى ١٧ سبتمبر سنة
١٩٦٩ ، منذ تسعة أشهر . لم يمض عام على موته بعد
مات شابا .

وتساءلت : هل أصابه مرض ؟

وتلفتت حولها وهمست بصوت خافت : لا اعرف .
كنا نجلس فى غرفة تطل على الحديقة ، ودب الصمت
فجاة ، وجفيف الشجر بدا كوقع الاقدام الخفية .
وسرت فوق جسدى القشعريرة ، وهمست : أتظنين أن
البيت مراقب ؟

وقالت بصوت حزين : لا أعرف .

وفجاة انقطع التيار الكهربائى وغرق البيت فى الظلام
وجلست فى مكانى غير قادرة على النطق أو الحركة .

وسمعت صوت دانشوار الخافت : التيار الكهربى
ينقطع كثيرا فلا تنزعجى .

وعاد النور بعد دقائق ، وقرأت لى بعض فقرات من
روايتها الاخيرة ، عنوانها : « الحزن على سيابوشى » ،
استوحتها من الاساطير الفارسية القديمة قبل مجىء
الاسلام . كان « سيابوشى » بطلا شعبيا ، وجد مقتولا ،
وحزن عليه الناس . نشرت دانشوار روايتها قبل موت

جلال آل احمد باسبوعين . وقال لها جلال : لا تنشريها هذه الايام ، وربما تجعلهم يضعون الفكرة في رءوسهم !
مسحت سيمين دانشوار عينيها وقالت : خاتمة روايتي جاءت على شكل أبيات من الشعر ، يرسلها الناس الى الآن من كل أنحاء ايران .
وقرأت خاتمة روايتها ، وجاءت كالاتي :

لا تبكي يا اختاه
في بيتك ستنمو شجره
وأشجار في مدينتك
وأشجار كثيرة في بلدك
والريح ستنقل رسالته
من شجرة الى شجرة
الى كل الشجر
والشجر يسأل الريح
وهي في طريقها اليك
هل رأيت الفجر ؟

ثم بدأت تصف لي جنازة جلال آل احمد . عشرة آلاف شخص حضروا الجنازة . وارتدى شباب الجامعة السواد ، وصدرت الاوامر بمنع نشر أي شيء عنه . أحد الشعراء الايرانيين اسمه « صوراتجر » مات بعد جلال آل أحمد بأسبوع . قبل أن يموت « صوراتجر » أنشد قصيدة في مناسبة ذكرى تتويج الشاه تمدحه . ولم يذهب أحد الى جنازته . كاتب ايراني اسمه « فردون تنكاليوني » في السجن لانه عارض سياسة الشاه . وقعت دانشوار ومائة كاتب ايراني على عريضة تحتج على حبسه وتطالب الافراج عنه . تطوع بعض المحامين للدفاع عنه . المعارضة ضد الشاه تزداد قوة ، وكثير من الناس في

السجون . منظمات كثيرة سرية داخل ايران . وفى الخارج أيضا نشاط كبير ضد الشاه .

ثم قالت دانشوار : « وجمعنا ٦٠٠.٠٠٠ تومانى وارسلناها الى الفدائيين الفلسطينيين فى الاردن . أعلن وزير الخارجية انه مع الفدائيين ، لكن هذا غير حقيقى . حكومة الشاه أقامت احتفال فى ذكرى لينين فى جامعة طهران لكن الطلاب قاطعوا الاحتفال ، وانا أيضا لم أذهب لانه اذا أصبح لينين تابع لحكومة الشاه فأنا ضد لينين ! شباب الجامعة فى ايران قوة كبيرة وهم الذين سيصنعون الثورة . »

وتركتها فى الليل وحدها بالبيت الصغير فى الجبل . ودعتنى حتى باب الحديقة ووقفت أمامى ممسكة بالباب . وقبل أن اترك الشارع الضيق استدرت خلفى ورأيتها لا تزال واقفة فى الضوء الخافت ممسكة بالباب .

***

من النافذة المفتوحة فى غرفتى بالفندق رأيت الهضبة العالية ومن فوقها تتلألأ انوار فندق الهيلتون ، والى جواره « مركز ايران للمؤتمرات العالمية » ، وفى الحديقة الواسعة اصطفت الموائد وأطباق الطعام وكئوس النبيذ والشمبانيا ، وثلاثمائة شخص من كل أنحاء العالم ، من أمريكا وغانا وتنزانيا وبريطانيا والسويد والهند وكينيا وأوغندة والسودان وليبيا وتونس والفلبين ومدغشقر وافغانستان والحبشة ولبنان وتركيا ، ومن مصر كان الدكتور سرور وثلاثة آخرين من الاطباء وأنا منهم .

لم أحضر حفل التعارف الاول بعد الافتتاح . ولم أحضر الحفل الختامى للمؤتمر . بينى وبين الحفلات عداء . وجوه ترتدى أقنعة النفاق ، وحول أعناق النساء

واهر تبرق ، وحول أعناق الرجال الربطة الحريرية
ونة . يد تمسك الكأس واليد الاخرى تصافح ، عين
تابع حركة الرئيس أو مندوب الرئيس ، والعين الاخرى
تابع حفيف الجواهر . وضحكات تتطاير في الجـــو
رقعة مع فرقعات السدادات وهي تتطاير من فوهـــة
زجاجات . وترتفع الأصوات والقهقهات . ومن حـين
حين يرن في الجو اصطلاح طبي ، أو اسم جـديد
ض جديد أو نوع حديث من لوالب عنق الرحم ، أو
ونة أمريكية جديدة على شكل شحنة من حبوب منع
حمل .

وفي أحد المقاعد الخاصة بالوفد الامريكي جلس طبيب
ريكي واعلن أن ولاية نيويورك اصدرت قرارا هذا العام
بيح الاجهاض . وارتفع صوت من الوفد التونسي يقول
الاجهاض أبيح في تونس . وتحدثت طبيبة انجليزية
مفهوم جديد للجنس . وعاد الطبيب الامريكي يقول
المجتمع الامريكي لازال يحمر وجهه اذا سمع كلمـة
جنس . وتحدث طبيب من السويد عن الحقنة الجديدة
ي تحقن بها المراة فتمنع الحمل لمدة عام كامل . واعترض
مو الوفد التركي على اضطهاد جسد المراة وحده في
ضوع تحديد النسل . وأدان الطبيب من الفلبـين
بعة المراة التي تجعلها قابلة للاخصاب في أيام قليلة من
سهر ، أما الرجل فهو مخصب طوال الشهر ولا انفصال
ه بين الجنس والاخصاب . وتحدث الطبيب مـــن
ند عن عمليات التعقيم للرجال ، وانهـــا سـهلة
طحية اما عملية التعقيم عند المراة فتستدعي فتح
لن .

وجلست صامتة طوال جلسات المؤتمر ، ثم رفعت

اصبعا طويلا مدببا فى الجلسة الاخيرة والقيت فى القاع
بالسؤال : ولماذا تحددون النسل ؟ وتحركت نحوى العيو
محملقة مستطلعة مندهشة . لم يكن حول عنقى جواهر
فادركوا اننى من البلاد الفقيرة فى العالم الثالث . ول
اكن أحمل اسمى ولقبى فوق صدرى فادركوا اننى بلا
اسم ولا لقب . واعترض طبيب على السؤال وقال انه
لا علاقة له بموضوع المؤتمر ، لان الموضوع هو وسائل
تحديد النسل وليس أسباب تحديد النسل . واعترض
على الاعتراض طبيب من السودان وقال ان السؤال فى
صلب الموضوع ولا يمكن فصل الاسباب عن الظواهر.
وتدخل طبيب من الفلبين وقال ان الاسباب تدخل فى
نطاق علوم الاجتماع والسكان وليس علوم الطب .

واعترض طبيب من الهند وقال أنه لا فاصل اليو
بين الطب والمجتمع . ونهض طبيب من الفلبين ليرد
لكن رئيس الجلسة دق بيده على المنصة وطلب المحافظ
على النظام ، واعطى الكلمة للطبيب الافريقى من غانا الذى
كان أول من رفع يده ، والقى الطبيب محاضرة عن
فوائد تحديد النسل وخاصة فى البلاد المتخلفة فى
افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية . واعترض الطبيب م
الهند على كلمة « المتخلفة » واستبدلها بكلمة « النامية
ورفع الدكتور سرور يده وطلب الكلمة وأوضح ا
التخلف ليس عيبا ، وأن الفقر ليس عيبا ، ولكن العيب
هو كثرة الحمل وولادة الاطفال كالارانب . واعترض
الطبيب من السودان على كلمة « الارانب » وقال ان الفق
هو المشكلة وليس الاطفال ، والمفروض أن نعالج الفق
أولا . وتساءل طبيب من السويد عن أسباب الفقر و
البلاد المتخلفة ، ورد طبيب من السودان وقال

الاستعمار . وهنا وقف طبيب من كينيا وقال : هـذا مؤتمر طبي ولا دخل لنا بالسياسة ، واقترح العودة الى موضوع المؤتمر الاصلي ، ووافق رئيس الجلسة على ما قاله الطبيب الكيني ، وعادت المناقشة من جديد الى ما كانت عليه ، وبدأوا يتحدثون عن انواع اللوالب التى توضع حول عنق الرحم ، ونسب الهرمونات فى حبوب منع الحمل الجديدة ، تنتجها شركة « اس أم » الامريكية وترسل منها كميات كبيرة الى البلاد المتخلفة ، ضمن مشروعات التنمية أو المعونات الاقتصادية والعسكرية .

وتسللت من الباب الخلفى الى الشارع . كانت الشمس تميل نحو الغروب ، وظلال الانوار تنعكس على الجداول الهابطة من الجبل ، ورأس الجبل مدبب أبيض ، وعلى السفح المائل « شتانوجا » بانوارها الحمراء كحبات الكريز ، ونسمة الليل والجبل ، والمياه الذائبة فى رائحة العشب ، وانغام الموسيقى الراقصة ، وايقاع كعوب الاحذية الثمينة مع اللحن الامريكى ، والشفاه المصبوغة تلتهم كرات الكافيار الاحمر .

ومن حول « شتانوجا » ترقد السيارات الطويلة الفارعة ، تتمدد على العشب بجوار أحواض الزهور ، وداخل كل سيارة سائق يجلس وراء عجلة القيادة فى وضع الاستعداد .

وعند مؤخرة السيارة كان الطفل النحيل واقفا فى يده فوطة صفراء ، يقترب من السيارة فى وجل ليمسح الزجاج ، ويمد السائق ذراعه من النافذة ويطرده بيده كما يطرد الذباب . ويجلس الطفل على الارض فى الركن البعيد ، وينضم اليه عدد من الاطفال ، عيونهم واسعة جاحظة ، وبياض العين أصفر ، وفى يد كل طفل فوطة

صفراء ، واليد الاخرى مفتوحة ممدودة فى الهواء ، تنتظر سقوط قطعة نقود من السماء .

سرت فى الطريق الهابط نحو المدينة ، واجتزت شارع بهلوى يسمونه خيابان بهلوى . طوابير الشباب امام السينما تعرض فيلم راعى البقر ، امرأة عارية فى وضع الاغراء ورجال فوق الجياد يحملون المسدسات ، وملصقات أخرى فوق الجدران . صورةالشاهوالامبراطورة اعلانات عن سجائر « كنت » ، وويسكى « جونى ووكر » زجاجة كوكاكولا ضخمة تحتل المساحة فوق الجدار ومن حولها لمبات حمراء وزرقاء وصفراء على شكل دوائر تضىء وتطفىء ثم تضىء . نافورة المياه فى الميدان . بائع الفسدق واللبان جالس فوق الرصيف . الطفل الشاحب الحزين جالس القرفصاء وامامه الميزان الصغير . الشحاذة العجوز متكورة حول نفسها بجوار الحائط ويدها الفارغة ممدودة الى الامام .

دخلت الى المطعم الصغير ، تفوح منه رائحة « الشيلوكاب » . الخبز الايرانى الكبير والبصل واللفت الاحمر . مجموعة من الشباب حول مائدة وبينهم فتاة ، شعرها أسود قصير ، وعيناها سوداوان لامعتان .

ـ التقينا هنا من قبل ؟

ـ نعم ، منذ عامين .

ـ اسمك « مانى »

ـ نعم .

وسألتها من يكتب فى ايران بعد جلال آل احمد . وذكرت اسم عباس بهلوان ، وقالت أن جلال آل أحمد صنع جسرا بين الماركسية والاسلام ، وعباس بهلوان يمشى فوق هذا الجسر ، لكنه يرفض الدروشة

والدراويش ، وكتابه الاخير بعنوان « نادرويشى » ومعناها لا درويش .

ذهبت اليه فى مكتبه ، وكان يراس تحرير مجلس « فردوسى » . شاب نحيل قصير ، ملامحه هادئة ،ولمعة فى العينين تكشف عن أعماق غير هادئة . ثورة كامنة تحت السطح . ودار بيننا حوار غريب . فهو لا يعرف الانجليزية ، وأنا لا اعرف الفارسية لكنى فهمت مايقول . اشار باصبعه على بعض الصور فى مجلة « فردوسى » . ورايت صورة لبعض الفدائيين الفلسطينيين ، ومن تحتها مقال باسمه يدافع عن القضية الفلسطينية . وصورة اخرى لمجموعة من شباب فيتنام يحاربون . وعلى غلاف أحد الاعداد رأيت صورة جمال عبد الناصر ، ثم المقال الرئيسى بقلم عباس بهلوان يدافع عن القضية العربية ويهاجم اسرائيل .

وكان معنا فى هذه الجلسة شاعر ايرانى اسمه « على نورى زاده » يتكلم العربية ، وقد ترجم الى الفارسية قصائد بعض الشعراء الفلسطينيين ، محمود درويش ، وسميح القاسم ، وفدوى طوقان .

وبينما نحن جالسون دخل رجل ايرانى طويل اشيب ما أن عرف اننى من مصر حتى بدأ يتكلم بالعربية الفصحى اسمه على أكبر قسمائى كان فى القاهرة فى شتاء سنة ١٩٤٨ وحين فشلت محاولة اغتيال شاه ايران فى ذلك الوقت كتب مقالا فى جريدة الاخبار عن هذه القضية . وقد ترجم على أكبر قسمائى من العربية الى الفارسية بعضا من كتابات المازنى وطه حسين والعقاد والحكيم ، ويقول عن نفسه انه ربيب الادب العربى .

وسالنى على اكبر قسمائى : هل قرات الخبر فى الصحف هذا الصباح ؟

وقلت : اى خبر ؟

قال : عودة العلاقات بين حكومتى مصر وايران ، وهذا خبر يفرحنا نحن الايرانيين ، فالشعب المصرى شقيق لنا ، ولغتنا الفارسية نصفها كلمات عربية . وبيننا تاريخ قديم ، وفلاسفة قدامى مثل ابن سينا والرازى .

وتراءى لى وجه جلال آل احمد ، وصوته وهو يقول: ٩٠٪ من بترول اسرائيل يأتى من عبدان من عندنا ! يا للخجل ويا للعار !

وتساءلت : وماذا عن جلال آل احمد ؟

ودب الصمت طويلا . وظهرت الحقيقة فى العيون على شكل الحزن المكتوم .

وفى اليوم التالى اخذتنى « مانى » لارى متحف جواهر تيجان الملوك فى قلب طهران . وقالت « مانى » : لابد أن ترى الجواهر داخل هذا المتحف لتعرفى لماذا يثور الشعب الايرانى اذا قدر له أن يثور .

رجال البوليس كانوا يحوطون المتحف . جردونا من الحقائب ومن آلات التصوير . سرت فى الطابور الطويل ندور حول العلب الزجاجية ، ومن خلال الزجاج نطل على التيجان المرصعة بالياقوت والماس والمرجان والفيروز اسلحة مزركشة بالجواهر . الكراسى محلاه بالاحجار الكريمة والماس . فى حفلات التتويج يستعير الملك أو الامبراطور التاج من هنا ، وكذلك الملك أو الامبراطورة . القطعة الواحدة من الجواهر بحجم راس الدبوس تقدر بملايين الجنيهات .

وسمعت مانى تقول : أموال مجمدة فى هذا المتحف

لمجرد الزينة على حين يجوع الملايين من الشعب الايراني.
في الطريق بالسيارة الى أصفهان وشيراز رأيت الفلاحين في القرى . يرتدون سراويل طويلة واسعة تشبه سراويل الفلاحين المصريين . وجوههم شاحبة ، اجسادهم نحيلة مرهقة ، وفي عيونهم حزن السنين كعيون الناس في قريتي كفر طحلة .
الى جواري كان يجلس أحد الأطباء الايرانيين من أعضاء المؤتمر ، وحين سألته عن مشاكل الفلاحين قال : الفقر ، الجهل ، المرض .
في شيراز وأصفهان انتقلت من عالم الفقر والجهل والمرض الى عالم آخر مرصع بالجواهر . الجدران والسقف مزركشة بالاحجار الكريمة . وفندق اسمه « شاه عباس » في أصفهان ، بني في القرن ١٧ ، ينقلنا الى عالم شبه خيالي ، مسحور كليالي الف ليلة وليلة . بذخ الحكام واسرافهم في المتع الى حد الجنون . وتحت اقدامهم العبيد والجواري راكعون .
وعدت الى طهران في اليوم التالي . لم أحضر الجلسة الاخيرة في المؤتمر ، أو الحفل الختامي . يد تمسك الكأس بالنبيذ ، وفي اليد الاخرى ورقة طويلة عليها التوصيات ، كلمات مكررة وحبر على ورق .
الليلة الاخيرة في طهران قضيتها في غرفة « ماني » في الزقاق الصغير . تعيش وحدها في طهران واهلها في قرية صغيرة بالقرب من شيراز . تذهب الى الجامعة في الصباح وفي الليل تعمل مع مجموعة من المناضلين . صنعت لي كوبا من الشاي وجلست أمامي . وجهها طويل نحيل . بشرتها سمراء . عيناها سوداوان واسعتان وشعرها أسود طويل ، على شكل ضفيرة كبيرة خلف

ظهرها . ترتدى ثوبا أبيض ، وتجلس على شلتة خضراء فيها مربعات بيضاء . كانت تتكلم وكنت أنصت : لى صديقة فى السجن اسمها « هوما » قبض عليها رجال السافاك وهى تسير في الشارع . لم تكن تحمل اى منشورات . وضعوها فى السجن وحاولوا استجوابها . جردوها من ملابسها الى ماتحت الصدر ، ثم بدأ أحد الضباط في حرق حلمة ثديها بسيجارة مشتعلة . كاد يقتلها الالم وبدأت تعترف بكل مالديها . وفى الليل اقتحم البوليس بعض البيوت وحبسوا عددا من زملائنا الطلبة . قام رجال السافاك ورجال المخابرات الامريكية المركزية بعمل فيلم عن « فن استجواب الثوار » وخاصة من البنات والنساء ، وعمل من هذا الفيلم مئات النسخ وزعته أمريكا كجزء من المعونة الفنية على بلاد صديقة مثل تايوان والفلبين واندونيسيا . لم نعد نجتمع فى البيوت أو الاماكن العامة . أصبحنا نجتمع فى المسجد ، فهو المكان الوحيد الذى لا يصله رجال السافاك أو المخابرات الامريكية . الشاه شبه معزول ، وأمريكا ترشده فى كل شيء ، وتحاول أن تصوره على أنه «الاب» للشعب الايرانى أو العائلة الايرانية « فرمانده » حسب التقاليد الشعبية . صور الشاه تغطى الجدران ومن تحتها كتب : « أبو العائلة الايرانية » ، وفى كل أسبوع يذهب الى الصلاة فى مسجد من المساجد . يحاول انتزاع القيادة الدينية من الائمة وآيات الله ، ويوهم الناس أنه رجل صالح يخاف الله ، وهو فاسد فى حياته العامة والخاصة . استولى على أموال الشعب ، وخياناته الزوجية المتعددة معروفة للجميع حتى زوجته فرح ديبا . يعتبرها بقرة ولادة لتنجب له ولى العهد .

لا يحترم زوجته ولا يحترم النساء . فكرته وراء انشاء وزارة لشئون المرأة ليست الا محاولة لكسب تأييد النساء نظير تقديم بعض الحقوق السطحية لهن .

صوت « مانى » ظل فى أذنى حين ركبت الطائرة فى الصباح وعدت الى القاهرة .

ومرت السنون ونسيتها أو خيل الى ذلك . حتى قامت الثورة الايرانية فعاد الى صوتها وعيناها السوداوان الواسعتان وهى جالسة أمامى بثوبها الابيض وضفيرتها الطويلة خلف ظهرها . وطرد الشاه من ايران ولم يجد بلدا ترحب به ، حتى أصدقاؤه الامريكيون نبذوه كأرنب ميت .

وتصورت أن الثورة الايرانية سوف تحرر الشعب الايرانى ، وتتحقق آمال « مانى » وزملائها وزميلاتها . لكن الثورة الايرانية سرعان ما أجهضت على يد الخمينى واعوانه وتحولت من ثورة للتحرير الى قوة بطش باسم الدين .

وفى يونيو عام ١٩٨٤ التقيت فى لندن ببعض الشباب الايرانيين ، الذين هربوا من بطش النظام الخمينى . وسألتهم عن « مانى » . وقالوا أن هناك كثيرات من المناضلات اسمهن « مانى » وحاولت أن أصف لهم ملامحها . قلت لهم بشرتها سمراء وعيناها سوداوان واسعتان ولها ضفيرة طويلة خلف ظهرها . وتذكرها احدهم . ورأيته يطرق الى الارض ثم يرفع الى عينين فيهما دموع وقال : « مانى » اعدمت فى سجن الخمينى وقبل الاعدام بأيام قليلة دخل عليها رجل واعتدى عليها جنسيا ، حتى لا تموت وهى عذراء ، فهناك اعتقاد عند آية الله الخمينى أن الفتاة اذا ماتت وهى عذراء

تدخل الجنة . ومن أجل أن تدخل « مانى » النــار أحضروا أحد الرجال وزوجوها له رغم انفها قبــل اعدامها بأيام .

هذه هى العقلية التى تحكم ايران اليوم . ومنــذ ثلاثة أعوام حاول أحذ الاساتذة الايرانيين طبع كتــابى « الوجه العارى للمراة العربية » وطبع فعلا بعــد أن ترجم الى اللغة الايرانية لكن رجال الخمينى هجموا على دار النشر وحرقوها وحرقوا الكتاب . وأصر الاستاذ الايرانى على اعادة طبع الكتاب . وفعلا طبع ووزع فى ايران . وارســل نسخة من الكتاب الى عنوانى بالقاهرة مع رسالة رقيقة يعتذر فيها عن التاخير .

وفى يونيو عام ١٩٨٤ وفى لندن أيضا التقيت بهذا الاستاذ الذى اضطر الى الهروب من بطش الخمينى وأعوانه وأصبح يعيش فى المنفى هو وبعض أفراد أسرته هربوا معه عبر حدود ايران . وله ابنة صــــغيرة لم تستطع الهرب معهم وبقيت فى سجون ايران . وزوجته لا تنام الليل فى لندن تفكر فى ابنتها الحبيسة فى طهران وفى غيرها من الفتيات والنساء الايرانيات اللائى فرضت عليهن حكومة الخومينى « التشادور » ، والوانا محددة هى الرمادى ، الاسود ، البني ، الازرق أو الاخضــر الداكن . ومن لاتلبس هذه الالوان تعاقب . ومن لاترتدى التشادور تعاقب بالفصل من عملها أو السجن . وكثير من الفتيات والنساء دخلن السجون أو اعدمن . أمــا الشباب الذين لم يدخلوا السجن أو يعدموا فقد جندهم الخميني فى الحرب ضد العراق ، وعلق فى عنــق كل شاب منهم مفتاح حديدى ، ليدخل به من باب الجنة بعد أن يموت فى الحرب .

بغير دموع تتحدث زوجة الاستاذ . عيناها مليئتان بالحزن ، وشيء آخر غير الحزن . الغضب والاصرار والتحدى . ذكرتني بعيني الدكتورة سيمين دانشوار . وزوجها الاستاذ أيضا يشبه جلال آل أحمد . شاب طويل القامة نحيل ، واشيب أيضا . البشرة سمراء ، والملامح ايرانية صميمة . والحديقة صغيرة تشبه حديقة جلال آل احمد في شميران ، ومائدة الطعام ونكهة الشاي ، ولهجة الكلام ، وكل شيء يذكرني بطهران عام ١٩٦٩ رغم أننا في لندن والعام هو ١٩٨٤ .

وعلى الباب الخارجي لبيتهما الصغير ودعني الاستاذ وزوجته بمثل ماودعني جلال آل احمد ودانشوار ورأيت مجموعة من الشابات والشبان الايرانيين مقبلين نحو الاستاذ وزوجته . وقلت لنفسي وأنا أسير نحو الشارع : ستحدث ثورة أخرى في ايران .

وعلى جدران محطة القطار تحت الارض رأيت الحروف الفارسية بالخط الاسود . « يسقط الخوميني » ، وتذكرت هذه الحروف نفسها منذ اعوام ، وبدلا من كلمة « الخوميني » كانت كلمة « الشاه » .

رحلة الهند

رحلتي الى الهند لم تكن كأية رحلة الى اى بلد كانت اشبه ماتكون برحلة الحياة كلها منذ الولادة حتى الموت . كالدائرة تبدأ وتنتهى الى النقطة ذاتها . لكنها ليست النقطة ذاتها . لان الولادة ليست هى الموت والبداية ليست هى النهاية .

قد يدهش الكثيرون ممن يهوون السفر والرحلات لماذا شعرت نحو الهند بالذات مثل هذا الشعور والعالم فيه من البلاد والامكنة التى ينبهر لها السياح . لكن السياحة في رايي ليست ركوب طائرات وزيارة متاحف والنوم والاكل فى الفنادق الفاخرة . السياحة عندى هى التجول على الاقدام فى الشوارع والحوارى المتربة ، واكتشاف الانسان فى اى مكان . وبالذات تلك الامكنة التى يهرب منها السياح ، أو يضعون مناديلهم فوق انوفهم حين يمرون عليها بالصدفة .

رحلتى الى الهند كانت طويلة ومرهقة ، ولكنها كانت ممتعة ، أشبه ماتكون برحلة الى النفس فى قسوتها وفي حلاوتها . ربما هى أصعب رحلة قمت بها فى حياتى رغم أننى زرت معظم بلاد العالم ومشيت فى أوعر الطرق . لكن صعوبة اكتشاف الهند تشبه الى حد كبير صعوبة اكتشاف النفس . رغم أن النفس ملتصقة بالانسان منا لكن كم من زمن وجهد حتى يعرف الواحد منا نفسه . وهذه هى الهند أيضا ، بقدر ما تعرف

نفسك تعرفها ، وبقدر ماعندك فى نفسك بقدر ما تعطيك الهند من نفسها ولعل هذا هو السبب فى أن بعض الناس لا يرون فى الهند الا التراب والفقر ، والبعض الآخر يستطيع ان يخترق السطح ويصل الى قلب الانسان الهندى .

قبل أن تهبط الطائرة فى مطار نيودلهى اعلنت المضيفة أن الساعة السابعة صباحا . نظرت فى ساعتى فادركت أن الناس فى القاهرة لازالوا نائمين « الشمس تشرق فى الهند قبل مصر بثلاث ساعات ونصف » . كنا فى شهر يناير وكنت أرتدى معطفا صوفيا لكنى خلعت المعطف بمجرد هبوطى على ارض الهند ، واحسست شمس الشتاء فى الهند دافئة حنون بعثت فى جسدى نوعا من اللذة والتفاؤل .

انتظرت وصول الحقائب وسط جمع كبير من السياح والمسافرين . معظمهم من الاجانب ذوى الوجوه البيضاء المشربة بالحمرة ، ملابسهم غالية أنيقة ، حقائبهم كبيرة ثمينة ، بعضهم يعلق الكاميرا فى كتفه « سياح » والبعض الآخر يمسك حقيبة يد « سمسونايت » « خبراء بالطبع » فى كل مطار التقى بهؤلاء الرجال ، أعرف شكل حركاتهم ، وأعرف نظرة عيونهم الزرقاء ترقب فى استعلاء الوجوه السمراء مثل وجهى أو وجه الهنود ، وتتأفف من منظر الحقائب القديمة والملابس البالية . كأنما السفر بالطائرات ليس الا حق هؤلاء الرجال مندوبى الشركات الاستعمارية أو السياح الاثرياء العاطلين فى أوربا وامريكا . وكأنما الاموال التى يشترون بها ملابسهم الانيقة وحقائبهم الكبيرة الثمينة ليست هى فى

الاصل اموال هذه الوجوه السمراء والكادحة أصحاب الارض وأصحاب البلد .

الوجوه الهندية من حولي تذكرني بالوجوه فى بلدى ، وتلك الابتسامة المتواضعة التى تشبه أحيانا ابتسامة من يشعرون بالضعف أو الحرج أو الذل . أحد مخلفات الاستعمار هى تلك الابتسامة وكم أفضل عليها تكشيرة الغضب . أحد الهنود يفسح مكانه فى تواضع لذلك الرجل الانجليزى المتعالى . يتقدم الرجل الانجليزى ويأخذ حقائبه دون أن يشكر الهندى أو حتى يبتسم له . أكتم الغضب فى نفسى وأرمق الرجل الانجليزى بنظرة ازدراء وكراهية يقشعر لها بدنه ويكاد يهرب من أمام عينى جريا . ابتسم لنفسى فى سخرية . هؤلاء الانجليز يغلفون انفسهم من الخارج بكبرياء يشبه الثقة والشجاعة ولكنهم فى حقيقة أمرهم لا يستطيعون مواجهة عينين سوداوين مفتوحتين تنظران اليهم دون أن ترمشان .

حملت حقيبتى بنفسي . حوطنى عدد من الحمالين يحاول كل واحد منهم أن يحمل عنى الحقيبة . تذكرت مطار القاهرة وشعرت بالحزن . مثل هذا المنظر لا أراه فى مطارات أوروبا أو أمريكا ولكن الفقر فى الهند أو فى مصر أو فى أى بلد من بلاد آسيا وأفريقيا ليس الا أحد مخلفات هؤلاء ــ المستعمرين فى أوروبا وأمريكا وينسى السياح هذه الحقيقة ويتأففون من منظر الحمالين وهم يتنافسون على حمل حقيبة ، أو يصدمهم منظر الشحاذين ، وكم يشكو السياح فى الهند من كثرة الشحاذين .

***

وجدت بحكم خبرتي في السفر والرحـــلات أن الانطباعات الاولى للعين الغريبة من أهم الانطبـاعات وأصدقها ، وقد تعودت ان أسجل انطباعاتي الاولى عن اي بلد جديد اسافر اليه ، قبل ان تألف عيني البلد وقبل ان تضعف هذه الالفة حساسية العين للأشيـاء الجديدة ، ويصبح الجديد شيئا عاديا لا تراه العين .

لا اقصد هنا العين او الرؤية فقط ولكنى أقصـد الاحساس ايضا . فقد أدركت منذ هبطت على أرض الهند أن احساسا عميقا بالراحة والسلام والطمأنينـة غمرني . لم أعرف سبب ذلك . هل هي ابتسامة الناس المستسلمة الوديعة . هل هي السماء الزرقاء الصافية والشمس . هل هو ذلك الرجل العجوز الجالس فوق الرصيف ينظر الى الناس والحياة باشفاق وزهد يشبه اشفاق وزهد غاندى ام هي تلك العصافير التي تشدو في كل مكان وتهبط في اى مكان تلتقط طعامها من وسط الناس ، أم هذه الابقار التي ترعى في الشوارع الى جوار السيارات والموتوسيكلات والعجلات ، تأكل من أى مكان دون ان يتعرض لها أحد .

قلت لنفسى اذا كانت العصافير والابقار آمنـة فى الهند فهذا هو سبب شعورى بالامان والسلام . ولكنى عرفت بعد ذلك ان الهنود يحترمون الحياة فى أى شكل من اشكالها ، وان الفلسفة الهندية قائمة على تقـديس الحياة وعدم قتل اى كائن حى وان كان بعوضة . بل ان احدى الديانات الهندية واسمها الديانة « الجينية » تفرض على الناسك منها أن يرتدى فوق انفه قناعا ، وأن يمشى على الارض حافيا وبخطوات خفيفة . والهدف من ذلك هو حماية النمل والحشرات البريئة مـن ان

تدوسها قدم الناسك ، أما القناع فهو لحماية البعوض او الهاموش الصغير البرىء من أن يدخل مع الهواء الى انف الناسك ويموت فى صدره .

كنت قد أعجبت كثيرا بموقف الهنود من الحيـــاة واحترامهم لها ، لكنى لم أستطع أن أمنـــع نفسى من الضحك على هؤلاء الرجال الحفاة ذوى الاقنعة الذين كنت التقى بهم فى الشارع أحيانا . وكنت أندهش لمنظرهم واظن من ملابسهم البيضاء والقناع الابيض أنهم أطباء خرجوا لتوهم من حجرة العمليات بحثـــا عن مريض هارب ، أو أنهم مصابون بمرض فى الانف ، أو انهم مصابون بمرض الوسوسة ويغطون أنوفهم خـــوفا من الجراثيم فى الجو ، أو أنهم نزلاء أحد المستشفيات العقلية . وحينما عرفت أنهم الناســـكون فى الديانة الجينية وانهم يغطون أنوفهم ليس حماية لانفسهم من الجراثيم وانما حماية للجراثيم منهم قلت لنفسى كم ينقلب المبدأ العظيم أحيانا الى نوع من الهلوسة والجنون، وكم تنطوى الاديان أحيانا على تناقضات ومبـــالغات وخزعبلات .

***

من الصعب أن تعرف البلد من عاصمتها ، فعواصم البلاد فى معظم الاحيان ليست الا مدنا كبيرة متشابهة ، تسكنها السفارات ودواوين الحكومة ، شوارعها فسيحة نظيفة تزداد مساحة ونظافة باقترابك من بيوت الحكام أو مكاتبهم أو حيث ينشط مندوبوهم أو ممثلوهم أو ماشابه ذلك . والعاصمة نيودلهى لا تختلف عن أية عاصمة فى ذلك ، وكم تندهش لبعض البيوت الفاخرة ذات الطراز الحديث ، المحوطة بالحدائق اليانعة ، وتلك

الشوارع الفسيحة الجميلة التى تقودك الى الاحياء الراقية حيث يعيش أثرياء الهنود والاجانب والسياح .
ولكن سرعان ماتدخل الى « دلهى » القديمة كما يسمونها ، وتضيق الشوارع وتزدحم بالاجسام والانفاس ولا تكاد تعرف الرصيف من الشارع . ولا تكاد تفصل بين تلك المركبات التى تجرى فوق الارض ، مركبات تعرف أنها سيارة ، أو موتوسيكل ، أو عجلة ، ومركبات لا تعرف ما اذا كانت سيارة أو موتوسيكل أو عجلة أو مزيج من كل هذا . فى الهند تستطيع أن ترى بعينيك جميع أنواع المركبات منذ اكتشاف العجلة وابتداء من الفيل أو الجمل أو البقرة ، أو الخنزير . كل انواع الحيوانات هنا تجر اية عربة فى اية شارع . وكل أنواع العجل منذ تطور من عجلة تحركها قدما الانسان الى عجلة يحركها موتور الى موتوسيكل ثم الى سيارة . كل ذلك تراه فى الشارع الواحد يجرى ويتسابق . ويمكنك أن تميز الطبقات وانت سائر فى الشارع ، الذين يركبون السيارات هى طبقة الحكام والاثرياء من الهنود والاجانب وذوى المهن المربحة العالية . الذين يركبون الموتسيكلات هم طبقة صغار التجار وصغار الموظفين . الذين يركبون العجلات هم أبناء الطبقة الفقيرة والطبقة العاملة . اما أدنى طبقة فى الهند فهم هؤلاء الذين لا يركبون شيئا وانما هم الذين يجرون العجلات « كما يجرها البقر أو الحمير » ومن المناظر المألوفة فى الهند هى أن ترى ذلك الرجل النحيف الهزيل الذى يلهث ويتصبب العرق من وجهه وجسده وهو يجر على عجلته ثلاثة أو أربعة من الاشخاص . هذه العجلة التى يجرها انسان اسمها « الريكشا » وهى منتشرة فى الهند ،

وكم ترى احيانا ذلك السائح الابيض السمين والى جواره زوجته السمينة يجلسان فى سعادة يتفرجان بينمــا راح الرجل الهزيل الاسمر يجرهما فوق عجلته وهــو يلهث .

على أن هذا الرجل النحيل اللاهث أحسن حالا من غيره لانه لازال يملك القوة التى يجر بها شيئا ، وهناك من فقد تلك القوة ، ولم يعـــد يملك الا الرقاد على الرصيف فى انتظار الاجل المحتوم ، وعلى الارصفة فى اى مكان فى الهند ترى هؤلاء الرجال والنساء والاطفال الذين لا ماوى لهم الا قطعة الرصيف التى يرقــدون فوقها .

بعض السياح فى الهند ينظرون الى هذا الفقر نظرة رومانتيكية . بعضهم يقف مذهولا يتألم دون أن يدرك السبب الحقيقى لهذا الفقر . بعضهم يتهم هؤلاء الفقراء بالكسل أو الغباء . بعضهم يقول أن هذه هى ارادة الله والله هو الذى يوزع الرزق على من يشاء ويحرم من يشاء . بعضهم يظن أن الفقر فلسفة هندية ونوع ارادى من العزوف عن متع الحياة . كل شىء ممكن أن يفـكر فيه السياح الا السبب الحقيقى . ذلك أن المال الذى ينفقه السائح الواحد منهم فى اليوم يكفى لاعالة أسرة هندية لمدة شهر ، وذلك أن ثروات الهند الطائلة لم تكن تذهب الى أصحاب البلد وانما الى جيوب الغزاة الاجانب ، بل ان جزءا منها حتى الان لا تزال تنهبه الشركات الانجليزية والاجنبية .

***

لا ادرى لماذا تذكرت طفولتى وانا فى الهند . ليس تذكرا عاديا بأن اتذكر حوادث ما ولكنه احساس قـوى

طاغ يستولى على حين انظر فى وجوه الاطفال الهنود فاذا بى أحس كأنما هذا الطفل الواقف امامى هو انا حينما كنت طفلة ، وأن تلك النظرة فى عينيه هى بالضبط نظرة عينى وانا طفلة ، وأن الطريقة التى ينبهر بها أو يجرى بها أو يلعب بها ، أو يحمل بها أخاه الاصغر هى نفسها طريقتى وانا طفلة .

من المناظر المألوفة فى الهند أن ترى الاطفال يلعبون ، وقد حمل الواحد منهم اخاه أو أخته الاصغر بطريقة معينة ، ذلك أن يركب الطفل الاصغر فوق خصر الطفل الاكبر وتتدلى ساقاه . هؤلاء هم الاطفال المحظوظون الذين خرجوا من بيوتهن ليلعبون فى الشوارع أو الحدائق . اما معظم الاطفال فانهم لا يعرفون شيئا اسمه اللعب وانما يشتغلون ويكدون سعيا وراء الرزق سواء فى الحقول أو المصانع أو الدكاكين الصغيرة وهناك أيضا الاطفال الذين يعترضون طريقك فى أى شارع باسطين أيديهم النحيلة وهم يقولون باللغة الانجليزية أعطنى بقشيشا . لكن المنظر الذى لا يمكن أن تنساه هو هؤلاء الاطفال الذين لا يعترضون طريقك ، ولا يقولون شيئا وانما ينظرون اليك بعينين كامتتين ليس فيهما الا معنى واحد ملحا وصارخا يهتف بغير صوت : نحن جوعى !

احساس غريب أصبح يلازمنى فى الهند كلما رايت طفلا أو دخلت بيتا أو معبدا أو مكتبا أو مدرسة و مستشفى أو مصنعا . احساس غريب كأنما انا لست فى الهند وانما فى مصر . رغم الاختلاف الظاهرى هناك نوع من التشابه الغريب ، كأنما الجذور واحدة . وأصبحت وانا اكتشف الهند كأنما اكتشف مصر ، وبدات

اتفهم تاريخ مصر من تاريخ الهند ، وارى حقائق من مصر لم ارها وانا فى مصر . ليس ذلك فقط لان الانسان لا يعرف بلده الا وهو خارجها أو لا يرى الشىء الا من مسافة ، وانما لان الملامح العامة فى الهند تشبه الملامح العامة فى مصر بل ان رائحة الهواء ورائحة التراب تكاد تشبه رائحة هواء وتراب مصر .

***

فى كل مكان اذهب اليه يسألوننى — هل رأيت التاج محل ؟ وحينما اقل لا ، تتسع العيون دهشة واسمعهم يقولون : اذن أنت لم ترين الهند . وتذكرت « الهرم فى مصر ، وكيف يتصور الكثيرون أن أهم مافى مصر هو هرم خوفو ، كما يتصور الكثيرون أن أهم مافى الهند هو التاج محل . وليست هذه هى الحقيقة فى رأيى ولست من هؤلاء الذين يعبدون الاثار والابنية . ودائما يراودنى هذا السؤال حينما أرى اثرا ضخما أو بناء هائلا : من الذى بناه ولماذا ؟ مهما بلغ البناء من جمال لا أدرى جماله الا بعد أن أعرف القصة وراءه . وكم من قصص أليمة وراء أجمل الآثار الابنية . وكم من اهرامات واشباه الاهرامات بنيت بدماء وعرق آلاف العبيد الجوعى .

ان اعظم اثر تاريخى هو الهرم الاكبر فى مصر الذى بنى بعرق ودم آلاف العبيد من المصريين الفقراء . وان أجمل أباجورات فى العالم عملت من جلود الرجال والنساء الذين قتلهم هتلر فى سجون النازية . وان التاج محل أجمل بناء فى العالم بنى بسواعد آلاف الهنود الجوعى لمدة عشرين عاما ، ويقولون ان الامبراطور المغولى قطع ذراعى المهندس الذى بناه حتى لا يبنى

واحدا مثله لاى امبراطور آخر . ومع ذلك فقد أصبح التاج محل يرمز فى التاريخ الى الحب ، وفى الليالى القمرية ترى أفواجا من العشاق والسياح يتطلعون الى هذا المبنى الرخامى الابيض ، ويذكرون باعجاب ذلك الامبراطور المغولى الذى بناه لزوجته المحبوبة بعد وفاتها . ان التاج محل ليس الا مقبرة لاحدى زوجات الحكام المغول لكنه بنى بالرخام الثمين تعلوه قباب رخامية رائعة المنظر وعلى جدرانه من الداخل والخارج نقوش بديعة متعددة الالوان .

وقد رأيت التاج محل فى مدينة اجرا ، وكما نصحنى الناس رأيته فى ضوء الشمس ورأيته فى ضوء القمر ، ولمست بأصابعى جدرانه الرخامية الناعمة تشبه فى نعومتها بشرة زوجات الاباطرة والملوك وهبطت السلالم داخله لارى التابوت الذى دفنت تحته الزوجة والذى رصع بالمرمر والاحجار الكريمة . وقيل لى أن الاموال التى بذلت فى بناء التاج محل كانت تكفى لبناء الهند وجعلها أكثر البلاد تقدما .

• وعلى العشاء فى بيت الشاعرة أمريتا برتيام دار الحوار حول هذا السؤال : أيهما كان أكثر فائدة بناء التاج محل أم بناء الهند . وانقسمت الآراء ، بعض الهنود قالوا أن بناء التاج محل كان أكثر فائدة لان السياح من جميع انحاء العالم يأتون الى الهند لرؤيته ولانه يعتبر من الناحية المعمارية ، والناحية الجمالية أجمل بناء فى العالم . لكن البعض الآخر عارض هذا الرأى وتساءل قائلا : ماهو الجمال ؟ ان الجمال الذى يقوم على استغلال آلاف الجوعى لا يمكن أن يكون جمالا . وقد كنت مع الرأى الاخير . لكن بعض عشاق

التاريخ والآثار قالوا : بهذا المنطق كان من الممكن الا يكون هناك آثار ترى الان ولا تاريخ عريق للهند أو مصر يجسده الهرم الاكبر ويجسده التاريخ محل . لكنى تساءلت ماهو التاريخ . هل تاريخ الهند هو كيف أحب الامبراطور المغولى زوجته الى حد أنها حين ماتت بنى لها هذه المقبرة الثمينة الرائعة ؟ هل التاريخ هو قصص غرام الاباطرة والملوك بزوجاتهم أو بأنفسهم وتلك المقابر التى بنوها لانفسهم أو أسرهم على شكل اهرامات أو على أى شكل آخر ؟

لاشك أننا فى حاجة الى اعادة فهم التاريخ ، فالتاريخ ليس فقط حياة الملوك والحكام أو موتهم والتاريخ ليس مجرد أبنية وقلاع واهرامات . لكن التاريخ أكبر من هذا . التاريخ هو قصة ملايين الناس فى كل شعب وكفاحهم المستمر من أجل البقاء . التاريخ هو صمود هؤلاء الملايين فى وجه الاباطرة والملوك والحكام . ان الحاكم الذى يستحق أن نذكره فى التاريخ هو ذلك الذى سعى لتوفير حياة كريمة لملايين الناس فى بلده وليس هو الذى سخر الملايين واستعبدهم من أجل أن يبنى مقبرة من الرخام الثمين لجسد زوجة لم تفعل فى حياتها شيئا سوى الاكل والنوم .

ان التاج محل فى رأيى ليس رمزا للحب الذى حدث فى التاريخ ، ولكنه رمز للحب الذى فقد فى التاريخ ، ودفن تحت مقبرة من الرخام الابيض .!

فى نيودلهى عاصمة الهند نزلت ضيفة على زوجى الذى يعمل فى الهند منذ عامين . فى شقته الصغيرة البسيطة فى حى « ديفنس كولونى » ادركت لاول مرة ان افضل وضع للزوجة هى أن تكون ضيفة فى بيت

زوجها . انها تشعر دائما انها سعيدة . ذلك لان بقاءها ليس دائما وانما بقاء مؤقت . عرفت أيضا أن البعد يجدد الحب والشوق . كنت أعرف هذه الحقيقة دائما وأقول أن الزوجين السعيدين هما اللذان يعيشان فى حجرتين منفصلتين لتظل بينهما مسافة . وحينما تطور تفكيرى كنت أقول أن الزوجين السعيدين هما اللذان يعيشان فى شقتين منفصلتين . ولكنى الآن وبعد أن نضج تفكيرى أقول أن الزوجين السعيدين هما اللذان يعيشان في بلدين منفصلين . ان البعد يضعف العلاقات الزوجية الهشة لكنه يقوى العلاقات المتينة القائمة على أساس من الحب الحقيقى والفهم والتقدير .

« نارايان » هو اسم الشاب الهندى الذى يطبخ لزوجى طعامه . انه شاب أسمر قصير نحيف يمشى على الارض بخفة غريبة . كأنما هو يشفق على الارض من ان يدوس عليها بقوة . وقد لاحظت أن كثيرا من الهنود لهم هذه المشية . وعرفت من بعد أنها نوع من التواضع الذى يتميز به الهنود ، وايضا نوع من الرقة والحرص على احترام الكائنات الحية وان كانت حشرات صغيرة تسعى فوق الارض .

وعرفت من نارايان أن عمله فى الحياة هو الطبخ فقط ـ انه مثلا لا يغسل العربية ولا يكنس البيت مهما اخذ من اجر اضافى . وليس ذلك لانه لا يحتاج الى هذا الاجر ولكن لان مثل هذه الاشغال الدنيا لها طبقة معينة أما هو فهو من طبقة أعلى . وهو لا يغسل الا ملابس الرجل . كان يمكنه ان يغسل ملابس زوجى . اما ملابسى أنا فهو يترفع عن غسلها لانى امرأة .

ان المجتمع الهندى لازال حتى الآن يفرق بشدة بين

الطبقات . اعلى طبقة هى طبقة البراهميين ، وأدنى طبقة هى طبقة الخدم ويسمونهم « طبقة الذين لا يلمسون » أو طبقة المنبوذين ، وهم هؤلاء الناس الذين يستنكر الناس لمسهم أو مصافحتهم لانهم فقراء وملوثون . حاول بعض الرواد وزعماء الهند من أمثال غاندى ونهرو أن يحاربوا هذه التفرقة الشديدة بين الطبقات وقد خفت حدة هذه التفرقة لكنها لم تختف تماما .

كان يفرض على اعضاء طبقة المنبوذين الا يقتربوا من اعضاء الطبقات الاخرى ، وأن يتحدثوا معهم من على بعد معين حتى لا تصل أنفاسهم الى أنوف الآخرين . وقيل لى أن بعض الاثرياء من البراهميين كانوا يستحمون اذا ماوقع عليهم ظل رجل من المنبوذين .

***

فى الصباح الباكر اصحو كل يوم على صوت صفارة مفزعة تشبه صفارة الانذار . وعرفت أنها فعلا صفارة انذار ، ولكنها تستخدم فى أوقات السلم كجرس عام يعلن للناس بدء اليوم . فكرة لا بأس بها للذين يعملون، ولكنها مزعجة أحيانا لمن لم يعتادها ، أو لمن سسهر الليل مثلى ويرغب فى الراحة لوقت متأخر من النهار .

لكن الناس فى دلهى لا يسهرون مثل الناس فى القاهرة . معظمهم ينامون قبل العاشرة مساء . وهم يستيقظون مبكرا جدا . اذ سرت فى الشارع الساعة السادسة صباحا تجد الزحام والعجلات والموتوسيكلات وتسمع الراديو يشدو بالاغانى الهندية فى الدكاكين والبيوت .

لكنك لا ترى السيارات فى الشوارع الا بعد التاسعة فالعمل فى المكاتب الحكومية يبدأ فى العاشرة صباحا

وينتهى السادسة مساء . وهذا نظام انجليزى لازال قائما فى الهند . كان الانجليز يستيقظون مبـــكرا ويذهبون الى النادى لممارسة لعبة الجولف قبـل ان تشتد حرارة الشمس ثم يأخذون دشا وحين يذهبون الى مكاتبهم تكون الساعة قد اصبحت العاشرة . معظم الهنود الموظفين فى الحكومة لايذهبون الى النــادى صباحا ولا يلعبون الجولف ولكنهم يستيقظون الساعة السادسة صباحا ويجلسون فى بيوتهم يشربون الشاى ويتحدثون حتى تقترب الساعة من العاشرة . قال لى بعضهم ان هذا النظام الانجليزى لا يتناسب مع جــو الهند الحار والافضل ان يبدأ العمل السادسة صباحا قبل أن يبدأ الحر وللاستفادة من ســـاعات الصباح الضائعة .

***

الهنود يدخلون عليك بيتك فى اى وقت . قد تكون مسترخيا فى سريرك مثلا وتفاجأ بجارك ـ الهنـدى وقد دخل حجرة نومك . وهم أيضا يتركون أبواب بيوتهم مفتوحة دائما لتدخل اليهم فى اى وقت . انهم يذكروننى بأهل قريتى كفر طحلة ، وكم احب مثل هذه العادات البدائية التى تحطم الحواجز المصنوعة بين الناس ، لكنها تبعث فى النفس بعض الضيق خاصــة فى تلك الاوقات التى يريد فيها الانسان ان يكون وحده او فى عزلة كاملة عن الآخرين . لكن الهنود عــامة لا يعرفون العزلة عن بعضهم البعض اللهم الا اذا كان الواحد منهم من عشاق اليوجا . او من النساك البوذيين او الهندوس الذين يقضون حياتهم فى عزلة كــاملة غارقين فى تأمل النفس الكلية الخالدة والوصول الى

تلك الحالة المسماة « النرفانا » حيث يتوحد الانسان مع نفسه ويدرك السعادة النهائية .

احدى صفات الهند المميزة هى التناقض . فالهند مليئة بالتناقضات شأنها شأن أى مجتمع ينمو من التخلف الى التقدم ، ويلتقط القيم الجديدة على حين تظل القيم القديمة موجودة وسائدة . ان بعض الناس فى الهند لازالو يقدسون التقاليد الاقطاعية القائمة على التفرقة بين الطبقات وسيادة الرجل على المرأة داخل البيت وخارجه . البعض الاخر لا زال مجتمعا أمويا تسود فيه النساء وترث البنات الارض ولا يرث الاولاد الذكور . البعض الآخر وباللذات فى نيودلهى ومدن الشمال قد تأثر الى حد كبير بالثقافة الغربية الانجليزية فترى البنات قد خلعن السارى وارتدين المينى جيب أو البنطلون الضيق والصبيان قد أطالوا شعورهم والرجال قد رشقوا البايب فى زاوية الفم ومزجوا اللغة الهندية باللغة الانجليزية . وفى ظل هذه الثقافات المتباينة تجد قيما أخلاقية متباينة تبدأ من أقصى التزمت وفرض الحجاب على النساء والعذرية على البنات الى أقصى التحرر وسيادة المرأة وحريتها فى اختيار زوجها بل أزواجها حيث تتزوج المرأة بعدد من الرجال ، وتنسب اليها أطفالها .

وايضا تجد هذه الاختلافات الشاسعة بين الاديان والعقائد فى الهند . بعضهم يؤمن باله واحد مسكنه السماء ، وبعضهم يؤمن بعدد لا حصر له من الآلهة ويقولون ان الله داخل كل انسان ، وبعدد الملايين من البشر توجد الملايين من الالهة . بعضهم ينكر وجود الاله لا فى السماء ولا فى الارض ويقولون أن الدين هو

الحياة وهو الاستمتاع بالحياة .

وتنعكس هذه الفلسفات المتباينة على المعابد الهندية بعض المعابد تشبه البيوت يدخلها الرجال والنساء والاطفال ويأكلون ويشربون ويلعبون داخل المعبد ، ويقولون أن المعبد وجد للحياة وان العبادة هى هذه الحياة .

وبعض المعابد تحرم دخول النساء والاطفال ولا يدخلها الا الذكور ، لان الذكور هم الجنس المفضل الطاهر المقرب الى الآلهة ، أما النساء فهن الجنس الملوث غير الطاهر . والتماثيل والنقوش على جدران المعابد تختلف أيضا اختلافا شديدا . بعض التماثيل تصور الآلهة على انهم بشر يأكلون ويشربون ويرقصون ويمارسون الجنس بكل أوضاعه وانواعه . وبعض التماثيل تصور الالهة على أنهم كائنات غير بشرية بغير جنس وبغير اعضاء وانما هى قوى غريبة الشكل تبعث على الدمار او الفزع أو الموت .

بعض الآلهة لها ملامح انسانية باسمة محبة للحياة والخير ، وبعض الالهة لها ملامح شيطانية يتصاعد الشرر والنار من عيونها البشعة .

فتحت هذه التناقضات عقلى على حقائق كثيرة عن طبيعة هذا المخلوق الذى اسمه الانسان . أحسست وانا فى الهند ازور المعابد واشهد بعينى تطور البشرية منذ العصور البدائية حتى اليوم كأنما عالم جديد ينفتح امام ذهنى وبدأ ضوء جديد يضىء اركانا كانت مظلمة فى راسى .

ـ مهما قرأنا عن التاريخ ومهما درسنا نظريا عن تطور الاديان وتطور الحياة البشرية والانسان فلا يمكن

أن يدرك الانسان الحقائق كما يدركها حين يزور الهند.
ويتنقل بين أجزائها المختلفة المتباينة ، ويعايش قبائلها
البدائية فوق الجبال ، وأسرها الحديثة فى المدن الكبيرة
مثل بومباى ودلهى وكالكاتا . ان جذور الانسان واحدة
وجذور الاديان واحدة وكم تتشابه حياة البشر حين
يصل المرء الى اعماقها وجذورها وكم يشتد الاختلاف
بخروجنا الى السطح والمشاهدات السطحية .

كنت فى سريرى أقرأ رواية هندية . كانت الساعة
الواحدة صباحا حينما سمعت صوتا غريبا مزعجا يدق
أرض الشارع . فتحت الشرفة ورأيت رجلا هنديا
عجوزا يسير بخطوات بطيئة فى يده عصا غليظة ، وفى
كل خطوة يدق الشارع بعصاه . وظننت انه «المسحراتى»
الذى يطوف ببعض الشوارع فى مصر اثناء شهر رمضان
ليوقظ الناس ليتناولوا طعام السحور . وسألت زوجى:
هل هذا مسحراتى وهل يصوم الهنود رمضان
ايضا ؟ .

وضحك زوجى لهذا السؤال وقال — ليس هذا
مسحراتى . انه الخفير الذى يشرف على الامن فى هذه
المنطقة .

وسألت : ولماذا يدق الارض بذلك الصوت العالى ؟

وقال زوجى : ليعرف سكان البيوت أنه يقظ وأنه
ساهر بحمايتهم .

قلت : ولكنه بهذا الصوت يعلن للصوص عن الشارع
الذى يحرسه فيسرعون الى شارع آخر حيث يسرقون
الناس وهم مطمئنين الى عدم وجود الحارس .

وضحك زوجى قائلا : هذا بالضبط ما يحدث .
ان عصا هؤلاء الحراس لا تفعل شيئا سوى ازعاج

النائمين أو تنبيه اللصوص الى مكان الحارس .

وفى اول الشهر جاء هذا الحارس الى شقتنا وطلب اجره الشهرى ، وعرفت سببا آخر لتلك العصا التى تدق ليلا . انها تقول للناس : أنا أقوم بواجبى كل ليلة واستحق الاجر الذى تدفعون .

الفقر فى الهند يدفع الكثير من الناس الى ابتكار مهن غريبة للحصول على أجر أى أجر . من المناظر المألوفة فى مدينة نيودلهى أن ترى هؤلاء المكوجية الذى يجر الواحد منهم عربة يد خشبية يوقفها امام أى بيت . ويهبط الخادم بصرة ملابس ويبدأ المكوجى عمله بنشاط حتى ينتهى من ملابس هذا البيت فيجر عربته وينتقل الى بيت آخر .. وهكذا .. حين تسير فى أى شارع فى الصباح تجد هؤلاء المكوجية المتنقلين امام ابواب البيوت يكوون الملابس فوق عرباتهم الخشبية الصغيرة .

فى أى وقت من النهار قد يدق جرس بيتك ، لتجد ذلك الرجل الهندى الذى جاء يعرض عليك خدماته دون أن تطلبها . انه قد يقول لك أنه مستعد لان يشترى أثاثا جديدا لبيتك اذا كنت من سكان الحى القدامى . أما اذا كنت ساكنا جديدا فانه يأتى اليك ليؤثث لك شقتك . وأحيانا يعرض عليك أن يبحث لك عن شقة أخرى مع انك لم تقل له أنك تريد الانتقال من شقتك . وهكذا يتفنن بعض الهنود فى الوسائل التى يقدمون بها خدماتهم من أجل الحصول على أجر أو ربح ما . وكم من مرة يدق جرس الباب « وبالذات فى يوم اجازتك » ويظهر احد هؤلاء الرجال ليعرض عليك خدمة لم تطلبها ولم تفكر فيها .

في مرة من المرات دق الجرس رجل سـمكري ، واكتشفت أثناء وجوده أن احدى الحنفيات تحتاج الى جلدة حتى لا يتسرب منها قطرات الماء . واخـرج الرجل أدواته العديدة « تشبه أدوات الطبيب الجـراح » وأخذ يفحص الحنفية طويلا ثم قال فى النهاية انها لم تعد تصلح ولابد من تركيب واحدة جديدة . وتذكـرت الرجل السمكرى فى مصر الذى كلما أطلبه ليضع جلدة فى الحنفية يقول لى انه لابد من تركيب حنفية جديدة وبالطبع يطلب ثمنا باهظا . تذكرت ذلك وقلت للسمكرى الهندى : لا ، هذه الطريقة انا اعرفها من مصر . وضحك الرجل الهندى لاننى اكتشفت حيلته ووضع الجلدة فى الحنفية نظير اجر بسيط .

***

أحب التجول فى الاحياء الشعبية واعشق السير فى حواريها والتفرج على الدكاكين الصغيرة وزحام الناس والاصوات والروائح القوية المنبعثة من كل مكان . ولكننى حين أسكن أفضل السكن فى حى هادىء بعيد عن الاصوات والزحام . وقد شاركت زوجى شقته الصغيرة فى ذلك الحى الهادىء « ريفنس كولونى » . لكن الهدوء هنا لا يعنى الهدوء الكامل ، اذ ما أن تشرق الشمس فى الصباح الباكر حتى تهب العصافير من أوكارها فـوق الشجر وتبدأ تشدو بأصوات حادة عالية يشترك فيها عدد هائل من العصافير . فى مصر حينما كنت أسمع عصفورا يشدو يطرب قلبى من الصوت الرقيق العذب، ولكن حينما يصبح هذا الصوت الرقيق العذب مضاعفا مئات المرات فانه يفقد رقته وعذوبته ويصبح كصراخ النسور . ان أعذب الاصوات تصبح مزعجة اذا زادت

عن الحد . والعصافير هنا فى الهند كثيرة وجريئة واحيانا تبلغ جراتها أن تطير فوق راسي وتخطف الخبز من يدي . ان جراتها لا تقل عن جراة البقر الذى يرعى فى الشوارع ويسير بين العربات السريعة بغير وجل ولا خوف . وسبب ذلك هو أن الهنود يحترمون كل الكائنات الحية ولا يتعرضون لاى نوع منها بأى اذى .

حينما تكف العصافير قليلا عن الصياح يبدأ صياح الباعة الجائلين الذين يطوفون بالبيوت حاملين فوق رءوسهم أو فوق عرباتهم مختلف انواع الخضروات أو الفاكهة أو اية سلعة أخرى . وايضا يطوف رجل الروبابيكيا مناديا : كبادى وله ! « وله » باللغة الهندية تعنى « ولد » أو « رجل » وحينما يكف الباعة قليلا عن صياحهم يأتى ذلك الرجل ومعه القرد أو الثعبان ويطوف بالبيوت مغنيا الاغانى الهندية أو نافخا فى المزمار ويرقص القرد على النغمات ويقوم الثعبان بألعاب بهلوانية ، وتطل النساء من شرفات البيوت ويقذفون له بعض النقود . وأحيانا لا يكون المغنى رجلا واحدا وانما فرقة بأكملها من المغنيين بالمزامير ودقات الطبول وحركات القردة والثعابين وقد يصاحبهم فى جولاتهم فيل يركبه رئيسهم . أو ذلك الحاوى الذى ينام فوق المسامير ويأكل النار ويطير فى الهواء فوق ملاءة كالبساط السحرى .

لقد وجدت أننى لست فى حاجة دائما الى أن أخرج من بيتى لاتعرف على الهند ـ لان الهند تأتى اليك بنفسها حتى باب بيتك . لكن ليس هذا الا وجها واحدا من وجوه الهند وكم تحتوى الهند على وجوه متعددة

متباينة .

كنا في شهر يناير ، والجو فى نيودلهى كالربيع فى مصر . الشمس دافئة حنون . ونسمة الهواء منعشة لا هى حارة ولا هى باردة . لا تكاد تحس ملمسها على جسمك . كأنما هى من درجة حرارة الجسم . كنا ننتظر فى مطار « دلهى » الطائرة التى ستقلنا الى جنوب الهند حيث منطقة مزارع الشاى . زوجى يقرأ جريدة التايمز الهندية وأنا أرقب حركة الناس فى المطار . المطارات بصفة عامة كالعواصم ، أمكنة عالمية تختلط فيها كل الاجناس وكل الالوان وكل اللغات . بمعنى آخر هى أمكنة بغير جنس وبغير لون وبغير لغة . ولهذا السبب تبدو جذابة وقبيحة فى نفس الوقت . جذابة لانها تحطم كل الفوارق بين الاجناس والالوان واللغات والطبقات ، وقبيحة لانها بغير شخصية تذوب فيهـــا الوجوه « بما فى ذلك وجهى أنا » فى وجه واحد ليس له ملامح معينة .

على أن مطار « دلهى » له شخصية مميزة . لا أدرى لماذا . ربما بسبب النساء الهنديات ذوات « السارى » والنقطة الحمراء فى منتصف الجبهة . وأيضا أبواب المطار الزجاجية عليها نقطة حمراء فى منتصف كل باب ثم أكن أعرف سر تلك النقطة الحمراء لكنى عرفت من بعد أنها بقايا عادة هندية دينية ثم أصبحت نوعا مـــن الزينة للنساء أو الرجال فى بعض مناطق الهند .

***

حلقت بنا الطائرة الهندية فى السماء الشاســـعة الممتدة فوق ارض الهند المترامية الاطراف . حجم الهند يساوى حجم مصر ٣٦ مرة وتطير بك الطائرة بالساعات لتصل من بلد الى بلد داخل الهند .

هبطت الطائرة في مدينة « مادراس » جنوب الهند وعرفت اننى أصبحت عن خط الاستواء ، وتحت قرص الشمس مباشرة بسبب تلك الحرارة الشديدة والرطوبة التى تميز جو المناطق الاستوائية . تخففت من بعض ملابسى وبدأ العرق يتساقط من وجهى . رأيت الوجوه فى جنوب الهند شديدة السمرة تشبه وجوه الناس فى أفريقيا الاستوائية لولا أن تقاطيع الوجه هنـــا دقيقة ، الانف مرتفع دقيق ومدبب ، والشفتان رقيقتان والشعر أسود ناعم وليس مجعدا ، والعينان تلمعـــان فى الوجه الاسمر الجذاب .

سرنا على شاطىء بحر مادارس وهو جزء من المحيط الهندى ، ولم ينجح هواء البحر فى تخفيف حدة الحر الا قليلا . لست ممن تعودوا الحرارة الشديدة مـــع الرطوبة الشديدة ولهذا أشعر بنوع من الاختناق فى المناطق الاستوائية وتبدو لى الارض كأنما تحولت الى قطعة من جهنم بغير نقطة هواء .

أسرعت ناحية السيارة التى ستقلنا الى منـــاطق مزارع الشاى فوق الجبل . هدأت أنفاسى قليلا وجف العرق حين بدأت السيارة تصعد فوق الجبل . أصبح الهواء منعشا محملا برائحة الاشجار والزهور الاستوائية من كل نوع ولون . السيارة الهندية الصغيرة تتبـــع الطريق الجبلى اللولبى وعند كل ثنية فى الطريق يدوس السـائق الهندى الاسمر على البوق ، فالمساحة ضيقة ومن السهل أن تصطدم العربة بأى من هذه اللـوريات التى تهبط الجبل محملة بالشاى .

لاحظت أن معظم هذه اللوريات تحمل اسم « ثاتا » وسألت من هو « تاتا » فعرفته أنه مليونير هنـــدى

يملك اللوريات والفنادق وعدد من الشركات والمشروعات التجارية والصناعية فى الهند . فى كل مكان فى الهند لابد أن ترى أسم « تاتا » فوق أى شيء . لازالت ثروات الهند الطائلة تذهب الى جيوب حفنة قليلة من الناس بعضهم هنود وبعضهم أنجليز . رغم استقلال الهند الا أنها لا تزال جزءا من « الكومنولث » ولا زال أصحاب الارض وأصحاب الرأسمال يدعمون النظم الاقطاعية والرأسمالية ويحاربون بكل قوة أى اتجاه اشتراكى .

والاحزاب فى الهند متعددة من أقصى اليمين الى الى أقصى اليسار . ولكل حزب صحفه ومنابره واشخاصه ووسائله .

الهواء يزداد برودة وجفافا كلما صعدت بنا السيارة فوق الجبل . اختفت الاشجار الكثيفة التى كانت تكسو الجبل وبدأت أشجار الشاى القصيرة المستوية تظهر كالبساط الاخضر الممدود صاعدا نحو الافق . عرفت أن شجرة الشاى شجرة غريبة جدا ، ولها مزاج خاص ولها شروطها الخاصة لتنمو وتزدهر . انها تحتاج الى أرض معينة ، وارتفاع معين فوق سطح البحر لا يقل عن اربعة آلاف قدم ودرجة حرارة معينة ، ودرجة رطوبة معينة ، وقدر من الشمس معين ، وقدر من المطر معين وقدر من الظل معين . أفضل أنواع الشاى تنمو فوق الجبل على ارتفاع ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر .

وقد وصلت بنا السيارة الى هذا الارتفاع عند المدينة المسماه « كونور » ورأيت مساحات هائلة من الجبل وقد تحولت كلها الى بساط أخضر هو أشجار الشاى

القصيرة التى قلمتها يد الفلاحات . لكن هناك شجرة طويلة لا تشبه شجرة الشاى قد نمت بنظام معين بين أشجار الشاى . ظننت انها شجرة برية نمت وحدها لكنى عرفت أنها زرعت بين أشجار الشاى ليحمى ظلها اوراق الشاى من حرارة الشمس القوية .

شجرة الشاى قد تعيش مائة عام ، تعطى خلالها قدرا كبيرا من أوراق الشاى ، تأتى الفلاحات الهنديات السمراوات كل صباح وعلى ظهورهن تلك السلال الكبيرة بأصابعهن السريعة المدربة يقطفن الأوراق الناعمة الملوية . ان زراعة الشاى وجمعه وصناعته فى الهند عمل نسائى فى معظمه ، ومن يتبع الشاى منذ أن يزرع فى الحقل الى أن يصبح فنجانا من الشاى نشربه يدرك أن وراء هذه المتعة من هذا الفنجان آلاف من الناس « أغلبهم نساء » الذين يعملون ويكدون منذ شروق الشمس حتى غروبها نظير بضعة روبيات هندية لا تكفى الا لسد الرمق .

بدات زراعة الشاى وصناعته على يد المستعمرين الذين حملوا الى الجبال « ضمن ماحملوا » اعدادا من فقراء الهند ، جعلوهم أشبه بالعبيد . بعد استقلال الهند تحرر هؤلاء العبيد لكنهم لازالوا يبيعون جهودهم نظير اجور ضئيلة ، ولا يزال أبناؤهم وبناتهم محرومين من التعليم وليس امامهم من مستقبل الا ان يرثوا المهنة عن امهاتهم وآبائهم .

قبل ان تبلغ البنت العاشرة تذهب مع أمها الى الحقل تعمل فى مزارع الشاى ، أو الى المصنع لتشارك فى صناعة الشاى . فى بعض القرى يعمل الاولاد والرجال أيضا . ولكن هناك مناطق لا يعمل فيها الا النساء

والبنات أما الرجال فهم الجنس الاسمى العاطل الذى يتزين ويرقص فى الحفلات الدينية ويجلس طول النهار أمام البيوت يدخن ويشرب ويلعب الطاولة أو النرد .

***

فى صباح باكر ركبت السيارة الصغيرة الى جوار المترجم الهندى . كنت قد طلبت أن أتحدث الى هؤلاء الفلاحات اللائى يعملن ويعلن أطفالهن وأزواجهن العاطلين هؤلاء النساء يتكلمن اللغة الهندية المحلية . وكان لابد أن آخذ معى مترجما من أبناء المنطقة ويعرف اللغة الانجليزية .

كان الصباح مشرقا ، لكن سرعان ما تجمعت السحب الرمادية فوق قمم الجبل وبدأ المطر ينهمر . انهمار المطر فى تلك المناطق الاستوائية الجبلية يجعل السماء كالمحيط الذى يفرغ ماؤه فوق الجبل بغير هوادة ولا رفق .

سألت الشاب الهندى : ما اسمك ؟

قال : اسمى بوجان .

سألت : واسم أبيك ؟

قال : لا أحمل اسم ابى . أحمل اسم أمى . وأمى اسمها « برافاتى » على اسم الآلهة برافاتى زوجة الاله شيفا .

قلت : ولكن هل كل الناس هنا يحملون اسماء امهاتهم ؟

قال : لا . معظم الناس هنا لا يحملون لا اسم الام ولا اسم الاب . انهم يحملون اسمهم فقط . أما اسم الاب فلا يكون الا حرفا واحدا . وتدخل سائق السيارة قائلا : أنا اسمى م . نارايان . ان « م » هو أول حرف

من اسم أبى أما اسمى فهو « نارايان » وهو اســـمى الاساسي واسم اسرتي ، وهذا عكس مايفعله الانجليز ، اذ أن الاسم الاساسى عندهم هو الإسم الاخير الذى هو اسم الاب أو الجد ، أما اسم الشخص نفسه فلا يكون الا الحروف الاولى .

سألته : وأيهما أفضل عندك ؟

قال : طبعا أن يكون اسمى الاساسى والاخير هو اسمى إنا وليس اسم أبى أو أمى أو جدى .

وضحكت وانا أسأله : وهل تريد أن يحمل أولادك اسمك من بعدك ؟

قال بحماس : لا . كل ولد من أبنائى أو بنت مـــن بناتى يجب أن يحمل اسمه هو اساسا .

وتدخل المترجم الشاب قائلا : كثير من الرجال هنـــا لا يحرصون على مسألة النسب هذه كمـــا هو الحال فى شمال الهند مثلا ، لان المرأة هنا فى أحيان كثيرة تتزوج أكثر من رجل ، وأحيانا تتزوج خمسة أو ستة أو سبعة من الاخوة امرأة واحدة . ان نسب الاطفال الى الاب هنا ليس شيئا هاما ولا يفكر فيه الرجـــال كثيرا .

سألت : وهل تحظى المرأة هنا بمكانة عالية ؟

وقال : نعم ، فى بعض المناطق تعمل المرأة وتعول أطفالها وأزواجها هذا اذا لم يسيطر عليها الرجـــل ويستولى على اجرها كما يحدث فى بعض مناطق مزارع الشاى .

توقفت بنا السيارة أمام بيت صـــغير أنيق بنى على على هضبة مرتفعة تحوطه من جميع الجهات حديقـــة جميلة مليئة بالزهور الاستوائية النفاذة العطر وأشجار

المانجو والجوافة وفواكه أخرى خاصة بهذه المنطقة . رحب بنا رجل هندي هو المشرف الاداري على هـــذه المزرعة ، التي تملكها شركة هندية . مساحة المزرعــة ۹۰۰ فدان ممتدة كالدرجات الخضراء من الســـفح الى أعلى الجبل . يعمل فيها ۱۹۰ عاملة وعامل ، معظمهم من العاملات . طلبت أن أذهب الى العاملات لاحدثهن لكن المدير قال لي أن الصعود اليهن صعب بسبب ارتفاع الجبل وتدرج الارض .

وسألته قائلة : وكيف تصعد العاملات ؟

قال : لقد تعودن ذلك .

قلت : انا امرأة رياضية واستطيع أن أصعد .

صحبني المترجم الشاب وصـــعدنا الى فوق بين صفوف أشجار الشاى . بعد بضعة دقائق أصـــبحت الهث وابتسم الشاب الهندى وهو يقول : ان العـاملة من هؤلاء الفلاحات تصعد وتهبط هذا الطريق الشاق عدة مرات في اليوم وفوق ظهرها سلة كبيرة تجمع فيها اوراق الشاى ، وعند الغروب تهبط الطريق وتســير حاملة سلتها حتى باب المصنع حيث تفرغ حمولتها وتنال اجرها حسب كمية ما جمعت .

وصلنا الى أحد صفوف الفلاحات ، وقد وقفن بنظام معين حسب صفوف أشجار الشاى ، فوق ظهر الواحدة السلة الضخمة ، وأصابعها تجمع وريقات الشـــاى العلوية بسرعة شديدة ودقة غريبة نظرت الى عيـون الفلاحات في دهشة واخذن يتأملن ملابسي ووجهي ، ثم أخذن يضحكن ويتحدثن بلغة لا أفهمها اســـمها « التامل » .

واخترت واحدة منهن لها عينان تلمعان بذكاء وحيوية

وسط وجهها الاسمر النحيف وسألتها :
ما اسمك ؟ قالت : أسمي ساروجا .
سألتها : كم عمرك ؟
قالت : سبعة عشر عاما .
قلت : متزوجة ؟
قالت : نعم .
لاحظت أن بعض النساء يرتدين « سارى » كاملا ويعضهن يرتدين نصف سارى فقط . وعرفت أن المرأة المتزوجة هى التى ترتدى السارى الكامل . وهن يتزوجن فى سن مبكرة جدا ، ويعملن طول النهار وحين يعدن الى البيت آخر اليوم يطبخن الطعام وينظفن البيت ويغسلن .
وسألت ساروجا : هل ذهبت الى المدرسة ؟
قالت : نحن لا نذهب الى المدارس .
وضحكت النسوة من سؤالى وقالت احداهن : نحن نعمل فقط .
وسألت ساروجا : وماذا يفعل زوجك ؟
قالت : يعمل معى فى المزرعة .
قلت : هل لك أطفال ؟
قالت : طفلان .
قلت : انت لا تزالين صغيرة . ياترى كم من الاطفال سيكون لديك حين تصبحين فى الثلاثين ؟
قالت ساروجا : لن أنجب غير هذين الطفلين لان زوجى ذهب الى الطبيب وأجرى له عملية التعقيم .
وعلمت من مدير المزرعة أن المشرفين الصحيين على المزرعة ينصحون العمال والعاملات بتحديد النسل حتى لا يزيد عدد أطفال الاسرة الواحدة عن اثنين أو ثلاثة ،

وحتى لا تنشغل الام بأطفالها عن أعمال المزرعة . وفى المزرعة دار حضانة للأطفال حتى يشبوا ويصلح الواحد منهم للعمل فى الحقل أو المصنع . انها مستعمرة كاملة من الرجال والنساء والاطفال نظمت حياتهم بدقة الساعة من أجل أن يخدموا شيئا واحدا هو انتاج الشاى . اما الربح الذى يعود من هذا الشاى فلا يعود اليهم وانما الى هؤلاء أصحاب المزرعة وأصحاب المصنع .

مصنع الشاى لا يختلف عن المزرعة فى ذلك النظام الدقيق المحكم الذى يعرف كيف يأخذ من العاملة أو العامل أقصى الجهد واكبر الانتاج نظير أقل اجر وأقل حقوق . وكما تحتاج شجرة الشاى لمزاج وشروط خاصة لتنمو وتزدهر كذلك تحتاج الاوراق الخضراء داخل المصنع الى شروط خاصة لتتحول الى ذلك الشاى الذى نشربه . عملية طويلة تبدأ بتجفيف الاوراق الخضراء بتعريضها لتيار من الهواء الجاف . هذا التجفيف له درجة معينة دقيقة بحيث تجف الاوراق وتظل محتفظة بمرونتها ولا تتكسر . ثم توضع أوراق الشاى الجافة فى آلة معينة لتلف كل ورقة على حدة على شكل اللوزة . ثم تنتقل الى آلة أخرى حيث تكسر الاوراق ليسيل منها سائلها : ثم تنتقل الى آلة اخرى ليعاد السائل اليها مرة أخرى . ثم عملية التخمير التى يقوم بها رجل خبير يعتمد فى عمله على أنفه الذى تدرب لسنوات طويلة على قياس الدرجة المثلى لتخمير الشاى .

من حين الى حين يتشمم هذا الخبير رائحة الشاى المخمر ثم يوقف عملية التخمير عند درجة معينة . سألت مدير المصنع : الا توجد آلة قادرة على هذا العمل بدلا

من أنف الخبير ؟ وقال المدير الهندى : بالطبع هنـاك آلات حديثة حلت محل أنف الانسان ، ولكنا هنـا لازلنا نفضل أنف هذا الخبير لانه عجوز ومدرب وانفه اكثر دقة من الآلة .

ولا ادرى كيف سررت من هذه الحقيقة ، فقد أكـد هذا الكلام ايمانى بأن حواس الانسان اذا دربت تكون اكثر دقة وكفاءة من أية آلة . فالانسان هو الذى اخترع الآلة ، لكن كم تنسى المجتمعات الصناعية المتقدمة هـذه الحقيقة ويضعون الالة فوق الانسـان ويجعلون البشر عبيدا لها .

بعد عملية التخمير يجفف الشاى ليتخلص من البلولة التى تفسده اذا حفظ طويلا ثم يمر بعد ذلك بمراحـل النخل وتنقية الشوائب ، ثم يعبأ فى الصناديق الخشبية ويرسل الى شركات التـوزيع ، حيث يخلط بأنواع متعددة من الشاى ، ويعبأ فى العلب الصـغيرة التى نشتريها من السوق .

دهشت وأنا أتتبع هذه الخطوات الطويلة الدقيقة ، ورأيت هذه الوجوه السمراء النحيلة من وراء الآلات تعمل بغير توقف . ورأيت أجساد الاطفـال النحيلة الشاحبة وهى تتطلع الى الجبل تغطيه أشجار الشاى ، يدركون أن مصيرهم كمصير آبائهم وامهاتهم فى الحقـل أو المصنع . رأيت البنات الصغار بأقدامهن المشققـة يصعدن الجبل وفوق ظهر كل واحدة حمل كبير ينثنى تحته جسدها الهزيل . دخلت بيوت المزارعين والمزارعات ورأيت انهم ينامون على الارض أو على شىء اشـبه بالبرش القديم . دخلت بيت المدير الانيق وقـدم لى فنجان من الشاى الفاخر فوق صينية من الفضـة ،

كاد الشاي الفاخر أن يقف في حلقي . وحينما لاحظ المدير انني أبتلع الشاي بصعوبة سألني قائلا : الا يعجبك الشاي ؟ انه شاي درجة أولى .

قلت : هل هناك شاي درجة أولى ودرجة ثانية ؟

قال : نعم بالطبع . الشاي درجة أولى هو الذى ينقى من الشوائب جيدا . وهذا لا يباع في السوق وانما يرسل بناء على طلبات خاصة الى الملوك والاباطرة ورؤساء البلاد .

سألت : والشاي درجة ثانية ؟؟

قال : انه الشاي الذى يخلط بانواع أخرى من الشاي وتظل به بعض الشوائب اما الشاى الدرجة الثالثة فهو الذى لا ينقى .

قلت : وهل هناك درجة رابعة ؟

قال : نعم . ويسمى تراب الشاي وهو التراب الذى يبقى بعد أن ينخل الشاي . وهذا هو الشاي الذى يباع في السوق المحلى بالهند .

قلت بأسى : وهذا هو مايشربه هؤلاء الذين يزرعون الشاي والذين يصنعونه ؟

قال دون أن يدرك معنى سؤالى : نعم ؟

وهكذا علمت أن هؤلاء النساء والرجال الذين يعملون طول النهار في مزارع الشاي ومصانعه لا يتذوقون طعم الشاي الذى يزرعوه ويصنعوه بأيديهم وعرقهم ودمهم .

***

الجزء الثانى العدد القادم

فهرس

صفحة

روايات الهلال تقدم

بنت من شبرا

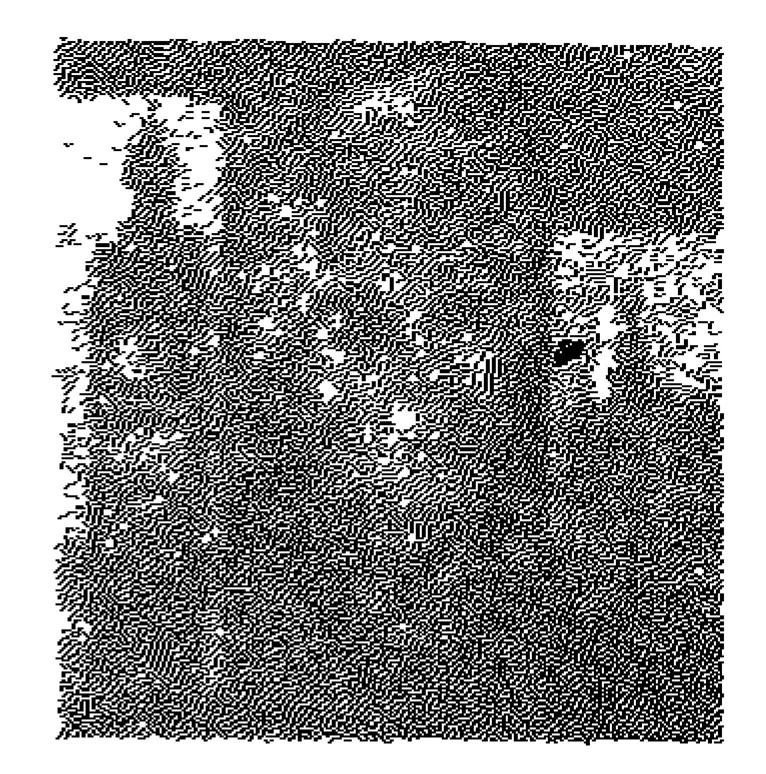
بقلم : فتحى غانم

تصدر : ١٥ فبراير سنة ١٩٨٦

رقم الايداع ١٨٥١/٨٦

الترقيم الدولى ٧ - ٢١٣ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال



هـذا الكتاب

بأسلوبها الخاص وقلمها المميز الذى جعلها واحدة من أبرز كاتبات العالم تقدم الدكتورة نوال السعداوى فى هذا الكتاب نوعا جديدا من أدب الرحلات . ترى الكون والتاريخ وحدة لا تتجزأ ، وتجمع بين المعنى واللفظ والعام والخاص والماضى والحاضر فى كائن واحد شبه عضوى . وتخلق على الورق حياة مترابطة لا انفصال فيها بين علم وفن أو طب وسياسة أو رجل وامرأة .

إنها رحلاتها حول العالم خلال العشرين عاما الماضية شرقا وغربا شمالا وجنوبا . وبقدر ما ترى الأوطان الأخرى ترى الوطن فى ضوء جديد .

فى هذا الكتاب تجول بنا الدكتورة نوال السعداوى من بلد الى بلد ومن قارة الى قارة من آسيا الى أوربا والأمريكتين تكشف بقلمها كمشرط الجراح عن المعنى العميق لظاهر الأشياء ، تبحث فى التاريخ والدين والعلم ، وتنتقل من الفلسفة الى الطبيعة والمجتمع وصراعات النفس .

تدخل المعابد والأديرة والحانات وبيوت الليل .

تقدم فى هذا الكتاب مفهوما جديدا لمعنى الرحلة والسفر ، ورؤية واسعة الأفق لمعنى الوطن كتاريخ وجغرافيا وانسان ، وليس مجرد حدود المكان . انه عمل مبدع خلاق تثرى به المكتبة العربية الى جوار مؤلفاتها الأخرى المتعددة الجوانب .

وهذا الكتاب هو الجزء الأول من عمل طويل متكامل .

ويصدر الجزء الثانى فى العدد القادم .

الجزء الأول

١٠٠ قرش